http://www.shamela.ws

تم إعداد هذا الملف آليا بواسطة المكتبة الشاملة

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢٣

قوله تعالى : .. لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ .. فى الدنيا بالتمكين ، والنصرة على العدو ، وإعلاء الرتبة ، وفى الآخرة بجزيل الثواب ، وجميل المآب ، والخلود فى النعيم المقيم ، والتقدم على الأشكال بالتكريم والتعظيم. وقوله : وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ إِنْ شاءَ يقال : إذا لم يجزم بعقوبة المنافق ، وتعلّق القول فيه على الرجاء ، فبالحرىّ ألا يخيّب المؤمن فى رجائه. انتهى كلام القشيري.

ثم ذكر رجوع الأحزاب ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٢٥ الى ٢٧]

وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً (٢٥) وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ مِنْ صَياصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ وَأَرْضاً لَمْ تَطَؤُها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (٢٧)

يقول الحق جل جلاله : وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : الأحزاب بِغَيْظِهِمْ ملتبسين بغيظهم ، فهو حال كقوله : تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ «١» أي : ردهم غائظين لَمْ يَنالُوا خَيْراً ظفرا ، أي : لم يظفروا بالمسلمين. وسمّاه «خيرا» بزعمهم ، وهو أيضا حال ، أي : غير ظافرين ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتالَ بالريح ، والملائكة ، وَكانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً قادرا غالبا ، فقهرهم بقدرته وغلبهم بقهريته. وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظاهَرُوهُمْ : عاونوا الأحزاب وجاءوا بهم مِنْ أَهْلِ الْكِتابِ ، يعنى بنى قريظة ، أنزلهم مِنْ صَياصِيهِمْ من حصونهم. والصيصة :

ما يتحصن به قال الهروي : وكل ما يتحصن به فهو صيصة ، ويقال لقرون البقر والظبى : صياصى لأنها تتحصن بها ، وفى وصف أصحاب الدجال : «شواربهم كالصياصى» ، لطولها ، وفتلها ، فصارت كالقرون. هـ.

روى أن جبريل عليه السّلام أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم صبيحة الليلة التي انهزم فيها الأحزاب ، ورجع المسلمون إلى المدينة – على فرسه الحيزوم ، والغبار على وجه الفرس والسّرج ، فقال : ما هذا يا جبريل؟ فقال : من متابعة قريش. ثم قال : إن اللّه يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة ، وأنا عائد إليهم ، فإن اللّه داقّهم دقّ البيض على الصّفا ، وهم لكم طعمة.

(١) من الآية ٢٠ من سورة المؤمنون.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢٤

وفى رواية : لمّا رجع – عليه الصلاة والسلام – ودخل مغتسله ، جاءه جبريل بعمامة من إستبرق ، على بغلة ، عليها قطيفة من ديباج ، فقال : قد وضعت السّلاح ، واللّه ما وضعت الملائكة السلاح ، وما رجعت إلا من طلب القوم ، وإن اللّه يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة. فأذّن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فى الناس : أنّ من كان سامعا مطيعا فلا يصلّين العصر إلا فى بنى قريظة. فخرج إليهم ، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة. فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : تنزلون على حكمى؟ فأبوا ، فقال : تنزلون على حكم سعد بن معاذ؟ فرضوا به. فقال سعد : نحكم فيهم : أن تقتل مقاتلتهم ، وتسبى ذراريهم ونساؤهم. فكبّر النبىّ صلى اللّه عليه وسلم وقال : «لقد حكم فيهم بحكم اللّه من فوق سبع أرقعة» «١».

ثم استنزلهم ، وخندق فى سوق المدينة خندقا ، وقدّمهم ، فضرب أعناقهم. وهم من ثمانمائة إلى تسعمائة.

وقيل : كانوا ستمائة مقاتل ، وسبعمائة أسير ، فقتل المقاتلة ، وقسم الأسارى ، وهم الذراري والنساء. وكان علىّ والزبير – رضى اللّه عنهما – يضربان أعناق بنى قريظة. والنبي صلى اللّه عليه وسلم جالس هناك. والقصة مطولة فى كتب السير «٢».

وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ الخوف. وفيه السكون والضم ، فَرِيقاً تَقْتُلُونَ ، وهم الرجال وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً وهم النساء والذراري. قالت عائشة رضى اللّه عنهما : لم يقتل صلى اللّه عليه وسلم من نساء بنى قريظة امرأة إلا واحدة ، قتلها بخلاد بن سويد ، كانت شدخت رأسه بحجر من فوق الحصن «٣».

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيارَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ كالمواشى والنقود والأمتعة. روى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جعل عقارهم للمهاجرين دون الأنصار ، وقال لهم : «إنكم فى منازلكم». وَأورثكم أَرْضاً لَمْ تَطَؤُها بعد ، قيل : خيبر ، ولم يكونوا نالوها ، أو : مكة ، أو : فارس والروم ، أو : كل أرض لم تفتح إلى يوم القيامة ، فمكّنهم اللّه من ذلك كله ، وفتح عليهم مشارق الأرض ومغاربها. وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ، فيقدر على جميع ذلك.

الإشارة : هذه عادة اللّه مع خواصه ، أن يخوفهم ثم يؤمنهم ، ويذلهم ثم يعزهم ، ويفقرهم ثم يغنيهم ، ويجعل دائرة السوء على من ناوأهم ، ويكفيهم أمرهم من غير محاربة ولا قتال ، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ

الْقِتالَ ... الآية. ثم يكون لهم التصرف فى الوجود بأسره ، أمرهم بأمر اللّه ، وحكمهم بحكمه ، واللّه غالب على أمره.

---

(١) أخرجه الطبري فى التفسير (٢١/ ١٥٣). وأخرجه البخاري ومسلم بلفظ : «لقد حكمت فيهم بحكم الملك» ، انظر صحيح البخاري (المغازي ، باب مرجع النبي صلى اللّه عليه وسلم من الأحزاب. ح ٤١١١٧ ، ٤١١٩) ومسلم (الجهاد ، باب جواز قتال من نقض العهد ، ٣/ ١٣٨٨ - ١٣٨٩ ، ح ٦٤ - ٦٥ - ٦٦).

وقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أرقعة» يعنى سبع سموات. وكل سماء يقال لها : (رقيع). انظر النهاية (رقع). ولسان العرب (٣/ ١٧٠٥).

(٢) راجع السيرة لابن هشام (٣/ ٣٣٣ - ٣٤٣).

(٣) أخرجه الطبري (٢١/ ١٥٣ - ١٥٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢٥

ولمّا نصر اللّه رسوله ، وفرّق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس أموال اليهود وذخائرهم ، فقعدن حوله : وقلن : يا رسول اللّه بنات كسرى وقيصر فى الحلي والحلل والإماء والخول «١» ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق ، وآلمن قلبه - عليه الصلاة والسلام - لمطالبتهن له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن به بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأنزل اللّه تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها فَتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٢٨) وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ أَجْراً عَظِيماً (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ ، وكن تسعا خمسا من قريش : عائشة بنت الصدّيق ، وحفصة بنت الفاروق ، وأم حبيبة بنت سفيان ، وسودة بنت زمعة ، وأم سلمة بنت أبى أمية ، وصفية بنت حيى الخيبرية ، من بنى إسرائيل ، من ذرية هارون عليه السّلام ، وميمونة بنت الحارث الهلالية ، وزينب بنت جحش الأسدية ، وجويرية بنت الحارث المصطلقيّة. أي : فقل لهن إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها أي : التوسعة فى الدنيا وكثرة الأموال والحلل ، فَتَعالَيْنَ أي : أقبلن بإرادتكن واختياركن. وأصل «تعال» أن يقوله من فى المكان المرتفع لمن فى المكان الأدنى ، ثم كثر استعماله فى كل أمر مطلوب. أُمَتِّعْكُنَّ أي : أعطكن متعة الطلاق. وتستحب المتعة لكل مطلقة إلا المفوّضة قبل الوطء مع

أخواتها ، كما فى كتب الفقه. وَأُسَرِّحْكُنَّ أطلقكن سَراحاً جَمِيلًا لا ضرر فيه.
وقيل : سبب نزولها : أنهن سألنه زيادة النفقة ، وقيل : آذينه بغيرة بعضهن من بعض ، فاغتم – عليه الصلاة والسلام – لذلك. وقيل : هجرهن شهرا ، فنزلت. وهى آية التخيير. فبدأ بعائشة – رضى اللّه عنها – وكانت أحبهن إليه ، فخيّرها ، وقرأ عليها القرآن ، فاختارت اللّه ورسوله والدار الآخرة ، فرؤى الفرح فى وجهه صلى اللّه عليه وسلم ، ثم اختارت جميعهنّ اختيارها. وروى أنه قال لعائشة : «إنّى ذاكر لك أمرا ، ولا عليك ألا تعجلى فيه حتّى تستأمرى أبويك» ، ثمّ قرأ عليها الآية ، فقالت : أفي هذا استأمر أبوىّ؟ فإنّى أريد اللّه ورسوله والدّار الآخرة «٢».

---

(١) خول الرّجل : حشمه وأتباعه ، واحدهم : خائل ، وقد يكون واحدا. وهو مأخوذ من التخويل ، أي : التمليك ، وقيل : من الرعاية. انظر النهاية (٢/ ٨٨) واللسان (خول ٢/ ١٢٩٣).
(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الأحزاب ، ح ٤٧٨٥) ومسلم فى (الطلاق ، باب بيان أن تخيير امرأته لا يكون طلاقا إلا بالنية ٢/ ١١٠٣ ، ح ١٤٧٥) من حديث سيدنا جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

وحكم التخيير فى الطلاق : أنه إذا قال لها : اختاري ، فقالت : اخترت نفسى ، أن تقع تطليقة واحدة بائنة ، وإذا اختارت زوجها لم يقع شيء. قاله النسفي. وقال ابن جزى : وإذا اختارت المرأة الطلاق فمذهب مالك : أنه ثلاث ، وقيل : طلقة بائنة. وقيل : رجعية. ووصف السراح بالجميل يحتمل أن يريد أنه دون الثلاث ، أو : يريد الثلاث ، وجماله : حسن المرعى ، والثناء ، وحفظ العهد. هـ.
وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِناتِ مِنْكُنَّ ، «من» : للبيان ، أَجْراً عَظِيماً ، فاخترن – رضى اللّه عنهن – ما هو مناسب لحاله – عليه الصلاة والسلام – ، حين خيّر بين أن يكون نبيا عبدا ، أو نبيا ملكا ، فاختار أن يكون نبيا عبدا ، لا ملكا. فاخترن العبودية ، التي اختارها – عليه الصلاة والسلام.
الإشارة : ينبغى لمن قلّده اللّه نساء متعددة أن يخيّرهن ، اقتداء برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ لا يخلو من حال الغيرة ، فإذا خيّرهن فينبغى أن يغيب عن تشغيبهن ، ولم يصغ بأذنه إلى حديثهن ، ولا ينبغى أن يغتم من أجل الغيرة ، فإنها طبع لازم للبشر ، وليقدّر فى نفسه : أنه إذا تزوجت زوجته غيره ، وهى فى عصمته ، هل يقدر على ذلك أم لا ، فالأمر واحد. واللّه أعلم.

قال القشيري : لم يرد أن يكون قلب واحد من المؤمنين والمؤمنات منه فى شغل ، أو يعود إلى واحد منهم أذى ، أو تعب من الدنيا ، فخيّر صلى اللّه عليه وسلم بأمر ربه نساءه ، ووفق اللّه عائشة ، حتى أخبرت عن صدق قلبها ، وكمال دينها ويقينها ، وما هو المنتظر من أصلها ونيتها. والباقيات جرين على منهاجها ، ونسجن على منوالها. هـ.

ثم هددهن وبشّرهن ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣٠ الى ٣١]

يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ وَكانَ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً (٣٠) وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً (٣١)

يقول الحق جل جلاله : يا نِساءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفاحِشَةٍ بسيئة بليغة فى القبح مُبَيِّنَةٍ ظاهر فحشها ، من : بيّن ، بمعنى : تبيّن. وقرأ المكي وشعبة بفتح الياء ، وهى عصيانهنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ونشوزهن.

قال فى المقدمات : كل فاحشة نعتت فى القرآن بالبينة فهى بالنطق ، والتي لم تنعت بها زنى. هـ.

يُضاعَفْ لَهَا الْعَذابُ ضِعْفَيْنِ أي : ضعفى عذاب غيرهنّ من النساء لأن الذنب منهن أقبح فإنّ قبح الذنب يتبع زيادة فضل

المذنب والنعمة عليه ، ولذلك قيل : ليست المعصية فى القرب كالمعصية فى البعد. وليس لأحد من النساء مثل فضل النساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، ولذا كان الذم للعاصى العالم أشدّ منه للعاصى الجاهل لأن المعصية من العالم أقبح ، وفى الحديث : «أشدّ الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه اللّه بعلمه» «١» لقوة الجرأة فى العالم دون غيره. ولهذا أيضا فضل حدّ الأحرار على العبيد ، ولم يرجح الكافر. وَكانَ ذلِكَ أي : تضعيف العذاب عليهن عَلَى اللَّهِ يَسِيراً هينا.

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ أي : يدم على الطاعة لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَتَعْمَلْ صالِحاً نُؤْتِها أَجْرَها مَرَّتَيْنِ أي : مثل ثوابى غيرها ، مرة على الطاعة ، ومرة على طلبهن رضا النبي صلى اللّه عليه وسلم ، بالقناعة ، وحسن المعاشرة. وقرأ حمزة والكسائي بالغيب «٢» على لفظ «من» ، وَأَعْتَدْنا لَها رِزْقاً كَرِيماً جليل القدر ، وهو الجنة.

الإشارة : من شأن الملك أن يعاتب الوزراء بما لا يعاتب غيرهم ، ويهددهم بما لا يهدد به غيرهم ، ويعطيهم من التقريب والكرامة ما لا يعطى غيرهم ، فإن هفوا وزلّوا عاتبهم ، ثم يردهم إلى مقامهم ،

وربما سمح وأغضى.

والغالب : أن الحق تعالى يعجل عتلت خواصه ، فى الدنيا قبل الآخرة ، بمصائب وأهوال ، تصفية وتطهيرا ، ولا يبعدهم من حضرته بما اقترفوا. قال القشيري : زيادة العقوبة على الجرم من أمارات الفضيلة ، كحدّ الحر والعبد ، وتقليل ذلك من أمارات النقص ، ولمّا كانت منزلتهن فى الشرف تزيد وتربو على منزلة جميع النساء ، تضاعفت عقوبتهن على أجرامهن ، وتضاعف ثوابهن على طاعتهن ، فقال : وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ ... وقال : لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ ... الآية هـ. واللّه تعالى أعلم.

ثم وصّاهن بما يليق بجنابهن المعظم ، فقال :

يا نِساءَ النَّبِيِّ ...

---

(١) رواه الطبراني فى الصغير (١/ ١٨٢) والبيهقي فى الشعب (ح ١٧٧٨) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه ، وقال الهيثمي فى المجمع (١/ ١٨٥) (: رواه الطبراني فى الصغير ، وفيه عثمان البرسي ، ضعّفه أحمد ، والنسائي ، والدارقطني.

(٢) قرأ حمزة والكسائي «يعمل» و«يؤتها» بالياء ، وقرأ الباقون «تعمل» و«نوتها». انظر الحجة للفارسى (٥/ ٤٧٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٢٨

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٢]

يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢)

يقول الحق جل جلاله : يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ أي : لستن كجماعة من جماعات النساء ، أي : إذا تقصيت أمة النساء ، جماعة جماعة ، لم توجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل ، فكما أنه – عليه الصلاة والسلام – ليس كأحد من الرجال ، كما قال : «إنى لست كأحدكم ...» «١» ، كذلك زوجاته التي شرفن به. وأصل «أحد» : وحد ، بمعنى : واحد ، فوضع فى النفي العامّ ، مستويا فيه المذكّر والمؤنث ، والواحد وما وراءه ، أي :

لستن فى الشرف كأحد من النساء ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ مخالفة اللّه ورضا رسوله ، فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ أي : إذا كلمتن الرجال من وراء الحجاب ، فلا تجئنّ بقولكنّ خاضعا ، أي : لينا خنثا مثل قول المريبات ، فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ريبة ، وفجور ، وهو جواب النهى ، وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً حسنا مع كونه

خشينا.

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣٣ الى ٣٤]

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً (٣٣) وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً خَبِيراً (٣٤)

وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ أي : استكن فيه ، والزمن بيوتكن من غير خروج. وقرأ نافع وعاصم بالفتح ، وهو من :

قرر يقرر ، لغة فى قرّ بالمكان ، وأصله : اقررن ، فحذفت الراء ، تخفيفا ، وألقيت فتحتها على ما قبلها. وقيل : من : قار يقار : إذا اجتمع. والباقون بالكسر ، من : قرّ بالمكان يقرّ – بالكسر ، وأصله : اقررن ، فنقلت كسرة الراء إلى القاف ، وحذفت الراء. وقيل : من : وقر يقر وقارا.

وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى أي : لا تبخترن فى المشي تبختر أهل الجاهلية ، فالتبرج : التبختر فى المشي وإظهار الزينة ، أي : ولا تبرجن تبرجا مثل تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى أي : القديمة ، وهو الزمان الذي ولد فيه إبراهيم عليه السّلام ، فكانت المرأة تتخذ فيه الدرع من اللؤلؤ ، وتعرض نفسها على الرجال ، زمان نمرود الجبار ، والناس كلهم كفار. أو : ما بين آدم ونوح – عليهما السلام – ثمانمائة سنة. وكان نساؤهم أقبح ما يكون ، ورجالهم حسان ، فتريده المرأة على نفسها. أو : زمن داود وسليمان – عليهما السلام – ، وكان للمرأة قميص من الدّر ، غير

---

(١) بعض حديث شريف ، لفظه كاملا : «إنى لست كهيئتكم ، إنى أطعم وأسقى» أخرجه مسلم فى (الصيام ، باب النهى عن الوصال فى الصوم ، ٢/ ٧٧٤ ، ح ١١٠٢) من حديث سيدنا عبد اللّه ابن عمر رضي اللّه عنه.

مخيط الجانبين ، فتظهر صورتها فيه. والجاهلية الأخرى : ما بين عيسى ومحمد – عليهما السلام – أو : الجاهلية الأولى : جاهلية الكفر قبل الإسلام ، والجاهلية الأخرى : جاهلية الفسوق والفجور فى الإسلام.

وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكاةَ ، خصهما بالذكر تفضيلا لهما لأن من واظب عليهما جرتاه إلى غيرهما.

وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فى سائر ما أمركن به ، ونهاكن عنه.

إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ أي : يا أهل البيت ، أو : أخص أهل البيت. وفيه دليل على أن نساءه من أهل بيته. قال البيضاوي : وتخصيص أهل البيت بفاطمة وعلى وابنيهما ، لما روى أنه – عليه الصلاة والسلام – خرج ذات غدوة عليه مرط مرحّل «١» من شعر أسود ، فجاءت فاطمة ، فأدخلها ، ثم جاء علىّ ، فأدخله فيه ، ثم جاء الحسن والحسين ، فأدخلهما فيه ، فقال : «إنما يريد اللّه ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ...» «٢»

والاحتجاج بذلك على عصمتهم ، وكون اجتماعهم حجة ، ضعيف لأن التخصيص بهم لا يناسب ما قبل الآية وما بعدها ، والحديث يقتضى أنهم من أهل البيت ، لا أنه ليس غيرهم. هـ. وإنما قال : عَنْكُمُ لأنه أريد الرجال والنساء. والرجس : كل ما يدنس ، من ذنب ، أو عيب ، أو غير ذلك ، وقيل : الشيطان.

وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً من نجاسات الآثام والعيوب ، وهو كالتعليل لما قبله ، فإنما أمرهن ، ونهاهن ، ووعظهن لئلا يقارف أهل البيت ما يدنس ، من المآثم ، وليتصونوا عنها بالتقوى. واستعار للذنب الرجس ، وللتقوى الطهر لأن عرض المقترف للمستقبحات يتلوث بها كما يتلوث بدنه بالأرجاس وأما من تحصّن منها فعرضه مصون ، نقى كالثوب الطاهر. وفيه تنفير لأولى الألباب عن كل ما يدنس القلوب من الأكدار ، وترغيب لهم فى كل ما يطهر القلوب والأسرار ، من الطاعات والأذكار.

وَاذْكُرْنَ ما يُتْلى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آياتِ اللَّهِ القرآن وَالْحِكْمَةِ السنّة ، أو : بيان معانى القرآن ، أو : ما يتلى عليكن من الكتاب الجامع بين الأمرين. إِنَّ اللَّهَ كانَ لَطِيفاً عالما بغوامض الأشياء. خَبِيراً عالما بحقائقها ، أو : هو عالم بأقوالكن وأفعالكن ، فاحذرن مخالفة أمره ونهيه ، ومعصية رسوله صلى اللّه عليه وسلم.

الإشارة : علّق الحق تعالى شرف نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم وتفضيلهن على سبعة أمور ، ويقاس عليهن غيرهن من سائر النساء ، فمن فعل هذه الأمور حاز شرف الدنيا والآخرة. الأول : تقوى اللّه فى السر والعلانية ، وهى أساس

---

(١) المرط : الكساء ، جمعه : «مرط». انظر : النهاية (مرط ٤/ ٣١٩). والمرحّل : الذي نقش فيه تصاوير رحال الإبل. انظر : النهاية (رحل ٢/ ٢١٠).

(٢) أخرجه مسلم فى (فضائل الصحابة ، باب فضل أهل البيت ٤/ ١٨٨٣ ، ح ٢٤٢٤) من حديث السيدة عائشة – رضى اللّه عنها – . [.....]

الشرف. الثاني : التحصن مما يوجب ميل الرجال إليهن من التخنث فى الكلام وغيره. الثالث : لزوم البيوت والقرار بها. وقد مدح اللّه نساء الجنة بذلك فقال : حُورٌ مَقْصُوراتٌ فِي الْخِيامِ «١». الرابع : عدم التبرج ، وهو إظهار الزينة حيث يحضر الرجال. الخامس : إقامة الصلاة وإتقانها وإيتاء الصدقة. السادس : طاعة اللّه ورسوله ، ويدخل فيه طاعة الزوج. السابع : لزوم ذكر اللّه ، وتلاوة كتابه لمن تحسن ذلك فى بيتها. فمن فعلت من النساء هذه الأمور أذهب اللّه عنها دنس المعاصي والعيوب ، وطهرها تطهيرا ، وأبدلها بمحاسن الأخلاق والشيم الكريمة.

واللّه تعالى أعلم.

ولما نزل فى نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ما نزل ، قال نساء المؤمنين : فما نزل فينا؟ فأنزل اللّه تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٥]

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ أي : الداخلين فى الإسلام ، المنقادين لأحكام اللّه قولا وفعلا ، فالمسلم : هو الداخل فى السلم بعد الحرب ، المنقاد الذي لا يعاند ، أو : المفوّض أمره إلى اللّه ، المتوكل عليه ، من : أسلم وجهه إلى اللّه ، وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ المصدّقين باللّه ورسوله ، وبما يجب أن يصدّق به ، وَالْقانِتِينَ وَالْقانِتاتِ المداومين على الطاعة ، وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ فى النيات ، والأقوال ، والأفعال ، وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ على الطاعات وترك السيئات ، وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ المتواضعين للّه بالقلوب والجوارح ، أو : الخائفين ، وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقاتِ فرضا ونفلا ، وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِماتِ فرضا ونفلا. وقيل : من تصدق فى أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين ، ومن صام البيض من كل شهر ، فهو من

---

(١) الآية ٧٢ من سورة الرحمن.

الصائمين ، وَالْحافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحافِظاتِ عما لا يحلّ ، وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِراتِ بقلوبهم

وألسنتهم ، بالتسبيح ، والتهليل ، والتكبير ، وتلاوة القرآن ، وغير ذلك من الأذكار ، والاشتغال بالعلم للّه ، ومطالعة الكتب من الذكر. وحذف «كثيرا» فى حق الذاكرات لدلالة ما تقدم عليه.

وقال عطاء : من فوض أمره إلى اللّه فهو داخل فى قوله : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ ، ومن أقرّ بأن اللّه ربه ، وأن محمدا رسوله ، ولم يخالف قلبه لسانه ، فهو من المؤمنين والمؤمنات ، ومن أطاع اللّه فى الفرض ، والرسول فى السنّة ، فهو داخل فى قوله : وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقاتِ ، ومن صلى فلم يعرف من عن يمينه وعن شماله ، فهو داخل فى قوله : وَالْخاشِعِينَ وَالْخاشِعاتِ ، ومن صبر على الطاعة وعن المعصية ، وعلى الذرية ، فهو من الصَّابِرِينَ وَالصَّابِراتِ ، ومن تصدّق فى كل أسبوع بدرهم فهو من المتصدقين والمتصدقات ، ومن صام فى كل شهر أيام البيض ، الثالث عشر وما بعده ، فهو من الصائمين والصائمات ، ومن حفظ فرجه عما لا يحل فهو من الحافظين فروجهم والحافظات ، ومن صلى الصلوات الخمس بحقوقها فهو من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات «١».

قال ابن عباس : (جاء إسرافيل عليه السّلام إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال يا محمد : سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه ، عدد ما علم ، وزنة ما علم ، وملء ما علم. من قالهن كتبت له ست خصال كتب من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات ، وكان أفضل ممن ذكره فى الليل والنهار ، وكان له عرش فى الجنة ، وتحاتت عنه ذنوبه ، كما تحات ورق الشجر اليابس ، وينظر اللّه إليه ، ومن نظر اليه لم يعذبه). وقال مجاهد : لا يكون العبد من الذاكرين اللّه كثيرا والذاكرات حتى يذكر اللّه قائما وقاعدا ومضجعا. هـ. من الثعلبي.

وسئل ابن الصلاح عن القدر الذي يصير به العبد من الذاكرين اللّه كثيرا؟ فقال : إذا واظب على الأذكار المأثورة صباحا ومساء ، وفى الأوقات والأحوال المختلفة ، ليلا ونهارا ، كان من الذاكرين كثيرا. هـ. قلت : وقد تتبعت ذلك فى تأليف مختصر سميته : «الأنوار السنية في الأذكار النبوية».

هذا وعطف الإناث على الذكور لاختلاف الجنسين. وهو ضرورى كقوله : ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً «٢». وعطف الزوجين على الزوجين لتغاير الوصفين ، وليس بضرورى ، ولو قال : «إن المسلمين والمسلمات المؤمنين والمؤمنات» بغير واو لجاز ، كقوله : مُسْلِماتٍ مُؤْمِناتٍ قانِتاتٍ ... إلخ. وهو من عطف الصفة ، ومعناه : إن الجامعين والجامعات

---

(١) ذكره البغوي فى تفسيره (٦/ ٣٥٢).

(٢) من الآية ٥ من سورة التحريم.

لهذه الصفات. أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً لما اقترفوا من السيئات ، وَأَجْراً عَظِيماً على طاعتهم. قال البيضاوي : والآية وعد لهن ، ولأمثالهن ، على الطاعة والتدرّع بهذه الخصال. روى أن أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم قلن : ذكر الرجال فى القرآن بخير فما فينا خير ، فنزلت «١». هـ.

الإشارة : اعلم أن اصطلاح الصوفية أن ما يتعلق بعمل الجوارح الظاهرة يسمى إسلاما ، وما يتعلق بعمل القلوب الباطنية يسمى إيمانا ، وما يتعلق بعمل الأرواح والأسرار يسمى إحسانا. قال فى البغية :

فالإسلام يشتمل على وظائف الظاهر ، وهى الغالبة عليه ، وذلك من عالم الشهادة ، والإيمان يشتمل على وظائف الباطن ، وهى الغالبة عليه ، وذلك من عالم الغيب ، وهى الأعمال الغيبية ، ولمّا انفتح لها باب من الأعمال الظاهرة للعبادة ، وأشرقت عليها من ذلك أنوار ، وتعلقت همتها بعالم الغيب ، مالت إلى الوفاء بالأعمال الباطنة ، ثم لمّا تمكنت فى الأعمال الباطنة ، واطلعت على عالمها ، وأشرفت على طهارتها ، وتعلقت همتها بعالم الملكوت ، مالت إلى الوفاء بالأسرار الإحسانية ، ومن هناك تدرك غاية طهارتها وتصفيتها ، والاطلاع على معارف الحقائق الإلهية. ثم قال : فإذا تبين هذا ، فالإسلام له معنى يخصه ، وهو انقياد الظاهر بما تكلف به من وظائف الدين ، مع ما لا بد منه من التصديق.

والإيمان له معنى يخصه ، وهو تصديق القلب بجميع ما تضمنه الدين من الأخبار الغيبية ، مع ما لا بد منه من شعبه. والإحسان له معنى يخصه ، وهو تحسين جميع وظائف الدين الإسلامية والإيمانية ، بالإتيان بها على أكمل شروطها ، وأتم وظائفها ، خالصة من جميع شوائب عللها ، سالمة من طوارق آفاتها. هـ.

قلت : ولا يكفى فى مقام الإحسان تحسين الوظائف فقط ، بل لا بد فيه من كشف حجاب الكائنات ، حتى يفضى إلى شهود المكوّن ، فيعبد اللّه على العيان. كما فى الحديث : «أن تعبد اللّه كأنك تراه». فإذا تقرر هذا فالآية مشتملة على تدريج السلوك فأول مقامات المريد : الإسلام ، ثم الإيمان ، كما فى الآية ، ثم يكون من القانتين المداومين على الطاعة ، ثم يكون من الصادقين فى أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، صادقا فى طلب مولاه ، غائبا عن كل ما سواه ، ثم من الصابرين على مجاهدة النفس ، ومقاساة الأحوال ، وقطع المقامات والمفاوز. وقال القشيري : من الصابرين على الخصال الحميدة وعن الخصال الذميمة ، وعند جريان مفاجآت القضية. هـ. ثم من الخاشعين الخاضعين لهيبة الجلال ، مشاهدا لكمال أنوار الجمال. قال القشيري : الخشوع : إطراق السريرة عند بواده الحقيقة. هـ.

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، أحمد فى المسند (٦/ ٣٠١) والحاكم ، وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤١٦) ، والطبراني فى الكبير (٢٣/ ٢٦٣ ح ٥٥٤) و(٢٣/ ٢٩٤ ح ٦٥٠) من حديث أم سلمة – رضى اللّه عنها – وأخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ١٠) من حديث ابن عباس رضي اللّه عنه وأم سلمة – رضى اللّه عنها.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٣

ثم يتحقق بأوصاف الكمال كالسخاء والكرم ، فيبذل ما عنده فى مرضات ربه ، فيكون من المتصدقين بأموالهم وأنفسهم ، حتى لا يكون لأحد معهم خصومة فيما أخذوا منهم وقالوا فيهم ، ثم يصوم عن شهود السّوى ، ثم يحفظ فرجه عن وقاع الشهوة والهوى ، فلا ينزل إلى سماء الحقوق ، أو أرض الحظوظ ، إلا بالإذن والتمكين ، والرسوخ فى اليقين. ثم يكون من المستهترين بذكر اللّه ، أعنى ذكر الروح والسر ، وهو مقام الإحسان ، الذي هو محل العيان ، فيكون ذاكرا باللّه ، مذكورا فى حضرة اللّه ، مشهورا فى ملكوت اللّه. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه.

ثم ذكر قضية تزويجه – عليه الصلاة والسلام – زينب ، مناسبا للحافظين فروجهم ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٣٦]

وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ أي : ما صحّ لرجل مؤمن ، ولا امرأة مؤمنة ، إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً من الأمور أَنْ يَكُونَ «١» لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ أي : أن يختاروا من أحدهم شيئا ، بل الواجب عليهم أن يجعلوا رأيهم تبعا لرأيه ، واختيارهم تلوا لاختياره.

نزلت فى زينب بنت جحش ، وأخيها عبد اللّه بن جحش. وكانت زينب بنت أميمة بنت عبد المطلب ، عمة النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فخطبها – عليه الصلاة والسلام – لمولاه زيد بن حارثة ، فلما خطبها ، ظنت أنه يخطبها لنفسه ، فرضيت ، فلما علمت أنه خطبها لزيد كرهت وأبت ، وقالت : أنا أم نساء قريش ، وابنة عمتك ، فلم أكن أرضه لنفسى ، وكذلك قال أخوها. وكانت بيضاء جميلة ، وكان فيها بذاذة ، فأنزل اللّه الآية «٢» ، فأعلمهم أنه لا اختيار لهم على ما قضى اللّه ورسوله. فلما نزلت الآية إلى قوله : مُبِيناً قالت : رضيت يا رسول اللّه ، وجعلت أمرها بيد النبي صلى اللّه عليه وسلم

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي : (يكون) بالياء من تحت. وقرأ الباقون بالتاء وقد أثبت المفسر – رحمه اللّه – قراءة التاء.

انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٦).

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ١١).

وكذلك أخوها ، فأنكحها صلى اللّه عليه وسلم زيدا ، فدخل بها ، وساق إليها النبي صلى اللّه عليه وسلم عشرة دنانير ، وستين درهما ، وملحفة ، ودرعا ، وإزارا ، وخمسين مدّا من طعام ، وثلاثين صاعا من تمر «١». وقيل نزلت فى أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط ، وكانت من أول من هاجر من النساء ، فوهبت نفسها للنبى صلى اللّه عليه وسلم فقبلها ، وقال : زوجتها من زيد ، فسخطت هى وأخوها ، وقالا : إنما أردنا النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ، فنزلت «٢». والأول أصح.

وإنما جمع الضمير فى «لهم» ، وكان من حقه أن يوحّد لأن المذكورين وقعا نكرة فى سياق النفي ، فعمّا كل مؤمن ومؤمنة ، فرجع الضمير إلى المعنى ، لا إلى اللفظ. والخيرة : ما يتخير ، وفيه لغتان : سكون الياء ، وفتحها ، وتؤنث وتذكر باعتبار الفعل لمجاز تأنيثها.

وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فيما اختار وقضى فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِيناً بيّن الانحراف عن الصواب.

فإن كان العصيان عصيان رد وامتناع عن القبول فهو ضلال كفر ، وإن كان عصيان فعل ، مع قبول الأمر ، واعتقاد الوجوب ، فهو ضلال فسق.

ثم إن زينب مكثت عند زيد زمانا ، فأتى عليه الصلاة والسلام ذات مرة دار زيد ، لحاجة ، فأبصرها فى درع وخمار ، فوقعت فى نفسه ، وذلك لما سبق فى علم اللّه من كونها له. فقال : «سبحان مقلب القلوب» «٣» ، وكانت نفسه قبل ذلك تنفر منها ، لا تريدها ، فانصرف ، وسمعت زينب بالتسبيحة ، فذكرتها لزيد ، ففطن ، وألقى فى نفسه كراهيتها والرغبة عنها فى الوقت ، وقال : يا رسول اللّه إنى أريد فراق صاحبتى؟ فقال : «مالك ، أرابك منها شى ء؟»

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٣٥٣).

(٢) أخرجه ابن جرير فى التفسير (٢٢/ ١٢) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣٨١) لابن أبى حاتم. عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

والحديث معضل.

(٣) قال الحافظ ابن حجر فى الكافي (ص ١٣٤ رقم ٢٢٤) : (ذكره الثعلبي بغير سند ، وأخرج الطبري «٢٢/ ١٣» معناه من رواية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم) قلت : هذه الرواية ، وإن ساقها عدد من المفسرين ، إلا أن العلماء المحققين ردوها فالروايات كلها جاءت من طرق ضعيفة ، ولا يوجد شيء منها فى كتب الحديث المعتمدة ، والذي جاء فى الصحيح يخالف ذلك. ولا يجوز أن يستند إلى روايات ضعيفة فى إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم صلى اللّه عليه وسلم. قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره : (٣/ ٤٩٠) : (ذكر ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، هاهنا ، آثارا عن بعض السلف ، أحببنا أن نضرب عنها صفحا لعدم صحتها ، فلا نوردها) – ثم إن السيدة «زينب بن جحش» – رضى اللّه

عنها – ابنه عمته ، ويعرفها مذ كانت طفلة حتى كبرت ، وهو الذي زوّجها لمولاه زيد ، وكان بإمكانه أن يتزوجها قبل أن يزوجها زيدا. فغير معقول – والحال كما ذكر – أن يزوجها لغيره ثم يرغب فيها.

والحق فى المسألة ما سيذكره الشيخ ابن عجيبة بعد ، نقلا عن الشيخ عبد الرحمن الفاسى من أن المعنى : وتخفى فى نفسك ما اطلعت عليه من مفارقة زيد لها ، وتزوجك إياها بعده ... إلخ كلامه.

للمزيد راجع : الشفاء للقاضى عياض (٢/ ٨٧٨ – ٨٨٠) روح المعاني للألوسى ، (٢٢/ ٢٤ – ٢٥) الإسرائيليات والموضوعات للدكتور محمد أبى شهبة (٣٢٣ – ٣٢٨).

(٤٣٤/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٥

فقال : لا واللّه ، ما رأيت منها إلا خيرا ، إلا أنها تتعظم علىّ ، لشرفها ، وتؤذيني بلسانها ، فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «أمسك عليك زوجك واتق اللّه».

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٣٧ الى ٣٩]

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً (٣٧) ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩)

وهذا معنى قوله : وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بالإسلام الذي هو من أجلّ النعم وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ بالإعتاق والتبني ، فهو متقلب فى نعمة اللّه ونعمة رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، وهو زيد بن حارثة : أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ زينب ، وَاتَّقِ اللَّهَ فلا تطلقها ، وهو نهى تنزيه ، أو : اتق اللّه ، فلا تذمها بالنسبة إلى الكبر وأذى الزوج ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ أي : تخفى فى نفسك نكاحها إن طلقها زيد ، وقد أبداه اللّه وأظهره ، وقيل :

الذي أخفاه فى نفسه : تعلق قلبه بها ، ومودة مفارقة زيد إياها.

قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : والصواب أن المعنى : وتخفى فى نفسك ما اطلعت عليه من مفارقة زيد لها ، وتزوجك إياها بعده ، فإن هذا هو الذي أبداه سبحانه وأظهره بعد ذلك. وأما قوله : وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ ، فإنما يعنى به الحياء من الناس فى أن يقابلهم بما يسوءهم ، وهو إخبار زيد بما أطلعه اللّه عليه من صيرورة زوجته زينب له ، بعد مفارقة زيد لها ، لأنه لم يؤمر بإفشاء ذلك ، وإلا لبلّغ من غير روية ولا حشمة ، سالكا فى ذلك سنّة من خلا قبله من الأنبياء ، الذين

لا يخشون فى التبليغ أحدا إلا اللّه.

وقال القشيري : أي : تخشى عليهم أن يقعوا فى الفتنة فى قصة زيد [والفتنة التي يقعون فيها هى ظنهم أنه عليه الصلاة والسلام عشقها ، وأمره بطلاقها] وكانت تلك الخشية إشفاقا منه عليهم ، ورحمة لهم ألا يطيقوا سماع هذه الحالة ، بأن يخطر ببالهم ما ليس فى وسعهم. وأما قوله : أَمْسِكْ عَلَيْكَ .... الآية – مع علمه بما يؤول إليه الأمر فى العاقبة ، بما أطلعه اللّه عليه من فراقه لها – فإقامة للشريعة. هـ. ملخصا.

وفى الوجيز : وَتَخْشَى النَّاسَ أي : تكره مقالة الناس لو قلت طلّقها ، فيقال : أمر رجلا فطلق امرأته ثم تزوجها. وقد نقل فى نوادر الأصول عن علىّ بن الحسين : أن اللّه أعلم نبيه أنها تكون من أزواجه ، فأخفى ذلك.

فلما جاء زيد يشكوها قال له : اتق اللّه ، وأمسك عليك زوجك «١» ، قال : فعلىّ بن حسين جاء بها من خزانة العلم ، جوهرا من الجواهر ، ودرّا من الدرر ، وأنه إنما عتب اللّه عليه فى أنه قد أعلمه ، ثم قال بعد ذلك لزيد : أمسك ..

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ١٣).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٦

رعاية لما يقال ، وتركا لتدبير اللّه ، مع كونه أحق بالرعاية ، وكيف ، وفى ذلك تشريع لئلا يكون على المؤمنين حرج وضيق فيما فرض اللّه له فيما أعلمه. ثم قال : والحاصل أنه – عليه الصلاة والسلام – لم يلمّ بخطيئة ، بدليل أنه لم يؤمر بتوبة ولا استغفار ، وإنما أخبره بما أضمر فى نفسك ، خشية افتتان الغير ، واللّه أحق أن يخشى ، بأن يبتهل إليه ليزيل عنهم ما يخشى فيهم.

قال ابن عرفة : الصواب : أن ما أخفاه فى نفسه هو : أن اللّه أخبره أن سيتزوجها. وما قاله ابن عطية لا يحل أن يقال ، لأنه تنقيص لم يرد فى حديث صحيح. وإنما ذكره المفسرون. هـ. قلت : إنما يكون تنقيصا إذا كان ذلك الواقع فى القلب ثابتا ، وأما إن كان خاطرا مارا فلا نقص إذ ليس فى طوق البشر لأنه من أوصاف العبودية ، بل الكمال فى دفعه ورده بعد هجومه.

ثم قال ابن عرفة ، على قوله : وَتَخْشَى النَّاسَ : هو تمهيد لعذره ، وإن كان لمجرد أمر اللّه له بذلك ، ولا ينبغى حمله على أنه خاف الناس فقط. بل المراد : عتابه على خلط خوفه من اللّه بخوفه من الناس ، وأمره ألا يخاف إلا من اللّه فقط ، خوفا غير مشوب بشىء. هـ. قلت : إذا فسرنا الخشية بالحياء لا

يحتاج إلى هذا التعسف ، مع أن الخوف من الخلق مذموم ، وحده أو مع خوف اللّه ، والنبي صلى اللّه عليه وسلم منزه عن ذلك ، أي : تستحى من الناس أن يقولوا :
نكح امرأة ابنه ، وكان – عليه الصلاة والسلام – أشد الناس حياء من العذراء فى خدرها. والحياء ممدوح عند الخاص والعام. وأما قوله تعالى : وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ فتنبيه على أن الحياء فى بعض المواضع تركه أولى ، فهو ترقية له ، وتربية لوقت آخر. أو : وتخشى أن يفتتن الناس بذلك ، واللّه أرحم بهم من غيره ، فاللّه أحق أن تخشى ، فتبتهل إليه فى زوال ذلك عنهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : فى الآية الأولى حث على التفويض وترك الاختيار ، مع ما أمر به الواحد القهار. وفى الحكم :
«ما ترك من الجهل شيئا من أراد أن يظهر فى الوقت غير ما أظهر اللّه» «١». فالواجب على العبد أن يكون فى الباطن مستسلما لقهره ، وفى الظاهر متمثلا لأمره ، تابعا لسنّة نبيه صلى اللّه عليه وسلم ، ولما يوجب رضاه ومحبته. وفى الآية الثانية تنبيه على أن خواص الخواص يعاتبون على ما لا يعاتب عليه الخواص. والخواص ، يعاتبون على ما لا يعاتب عليه العوام ، فكلما علا المقام ، واشتد القرب ، اشتدت المطالبة بالأدب ، ووقع العتاب على أدنى ما يخل بشيء من الأدب ، على عادة الوزراء مع الملك. وذلك أمر معلوم ، مذوق عند أهل القلوب. وباللّه التوفيق.

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٠ ، حكمة : ١٧)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٧
ثم ذكر تزوجه – عليه الصلاة والسلام – لزينب بعد مفارقة زيد ، فقال :
فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ ...
يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ مِنْها وَطَراً حاجة ، بحيث ملّها ولم تبق له فيها حاجة.
والوطر : الحاجة ، فإذا بلغ البالغ حاجته من شيء له فيه همّة ، يقال : قضى منه وطرا ، أي : فلما قضى حاجته منها ، وطلقها ، وانقضت عدّتها ، زَوَّجْناكَها. روى أنها لما اعتدت قال – عليه الصلاة والسلام – لزيد : «ما أجد أحدا أوثق فى نفسى منك ، ايت زينب فاخطبها لى» قال زيد : فأتيتها وولّيتها ظهرى ، إعظاما لأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم ، وقلت :
يا زينب إنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم يخطبك ، ففرحت ، وقالت : ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربّى ، فقامت إلى مسجدها ، فنزل القرآن : فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ ... الآية ، فتزوجها عليه الصلاة والسلام ،

ودخل بها حينئذ ، وما أولم على امرأة ما أولم عليها ، ذبح شاة ، وأطعم الناس الخبز واللحم حتى امتد النهار «١».

وقيل : زوجّه اللّه تعالى إياها بلا واسطة عقد ، ويؤيده : أنها كانت تقول لسائر أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم : إن اللّه زوجنى من فوق سبع سموات ، وأنتن زوّجكنّ أولياؤكنّ «٢». وكانت تقول للنبى صلى اللّه عليه وسلم : إنى لأدلّ عليك بثلاث ، ما من نسائك امرأة تدل عليك بهنّ : جدّى وجدّك واحد ، وإياى أنكحك اللّه من السماء ، وإن السفير لى جبريل «٣».

ثم علل تزويجه إياها ، فقال : لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْواجِ أَدْعِيائِهِمْ الذين يتبنونهم إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً ، قال الحسن : ظنت العرب أن حرمة المتبنى مشتبكة كاشتباك الرحم ، فبيّن اللّه تعالى الفرق بينهما ، وأن حلائل الأدعياء غير محرمة. وليست كحلائل أبناء الصلب. قال البيضاوي : وفيه دليل على أن حكمه

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، مسلم فى (النكاح ، باب : زواج زينب بنت جحش ، ونزول الحجاب ، ٢/ ١٠٤٨ - ١٠٤٩ ح : ١٤٢٨) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري فى (التوحيد ، باب وكان عرشه على الماء ح ٧٤٢٠) من حديث أنس رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه الطبري فى تفسيره (٢٢/ ١٤) من مرسل الشعبي. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٨

وحكم الأمة واحد ، إلا ما خصه الدليل. هـ. وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ الذي يريد أن يكونه مَفْعُولًا مكونا لا محالة ، كما كان تزويج زينب.

ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ أي : حلّ له ، أو : قسم له ، من قولهم : فرض له فى الديوان كذا ، وفروض العساكر ، لأرزاقهم. أي : لا حرج على النبي فيما حلّ له وأمر به ، كتزويج زينب ، أو : قسم له من عدد النساء بلا حدّ ، سُنَّةَ اللَّهِ : مصدر مؤكد لما قبله من قوله : ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ أي :

سنّ ذلك سنّة فى الأنبياء الماضين ، وهو : ألا حرج عليهم فى الإقدام على ما أحلّ لهم ووسع عليهم فى باب النكاح وغيره. وكانت تحتهم المهائر «١» والسراري ، وكانت لداود عليه السّلام مائة امرأة ، وثلاثمائة سرّية. فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ أي : فى الأنبياء الذين مضوا من قبله ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً

مَقْدُوراً أي : قضاء مقضيا ، وحكما مثبوتا مبرما ، لا مرد له.

الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسالاتِ اللَّهِ ، هو صفة ل «لذين خلوا من قبل» ، أو : بدل منه ، أو : مدح لهم منصوب ، أو :

مرفوع ، أي : هم الذين ، أو : أعنى الذين يبلغون رسالات اللّه ، وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ، ونبينا صلى اللّه عليه وسلم من جملتهم ومن أشرفهم ، وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيباً للمخاوف ، أو : محاسبا ، فينبغى ألا يخشى إلا منه تعالى.

الإشارة : إذا تمكن العبد مع مولاه وتحققت محبته فيه ، كانت حوائجه مقضية ، وهمته كلها نافذة ، إذا اهتم بشيء ، أو خطر على قلبه شيء ، مكّنه اللّه منه ، وسارع فى قضائه ، كما فعل مع حبيبه ، حين خطر بباله تزوج زينب ، أعلمه أنه زوجه إياها. وأهل مقام الفناء جلهم فى هذا المقام ، إذا اهتموا بشيء كان ، إذا ساعدتهم المقادير ، وإلا فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار ، ولذلك قال هنا : وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ، وَكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً. وصفة أهل الهمم القاطعة : أنهم لا يخافون إلا اللّه ، ولا يخشون أحدا سواه ، لا يخافون فى اللّه لومة لائم ، ذكرهم للّه دائم ، وقلبهم فى الحضرة هائم. وباللّه التوفيق.

ثم ردّ على من قال : إنه – عليه الصلاة والسلام – تزوج امرأة ابنه ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٤٠]

ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٤٠)

---

(١) المهائر : جمع المهيرة ، وهى الحرة ، والمهائر : الحرائر ، ضد السّرارى. انظر اللسان (مهر ٦/ ٤٢٨٧).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٣٩

يقول الحق جل جلاله : ما كانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ أي : لم يكن أبا رجل منكم حقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ، والمراد : من رجالكم البالغين ، وأما أولاده القاسم ، والطيب ، والطاهر ، فماتوا قبل أن يكونوا رجالا ، وأما الحسن والحسين ، فأحفاد ، لا أولاد. وَلكِنْ كان رَسُولَ اللَّهِ ، وكل رسول أبو أمته ، فيما يرجع إلى وجوب التوقير والتعظيم له عليهم ، ووجوب الشفقة والنصيحة لهم عليه ، لا فى سائر الأحكام الثابتة بين الآباء والأبناء. وزيد واحد من رجالكم ، الذين ليسوا بأولاد حقيقة ، فكان حكمه حكمهم. والتبني من باب الاختصاص

والتقريب ، لا غير. وَكان أيضا صلى اللّه عليه وسلم خاتَمَ النَّبِيِّينَ أي : آخرهم الذي ختمهم ، أو : ختموا به على قراءة عاصم. بفتح التاء ، بمعنى : الطابع ، كأنه طبع وختم على مقامات النبوة ، كما يختم على الكتاب لئلا يلحقه شيء. فلا نبى بعده. وعيسى ممّن نبأ قبله ، وحين ينزل ينزل عاملا على شريعته صلى اللّه عليه وسلم ، كأنه بعض أمته. ومن قرأ بكسر التاء ، فمعناه : فاعل الختم ، كما قال – عليه الصلاة والسلام – : «أنا خاتم النبيين فلا نبى بعدي» «١». ويصح أن يكون بمعنى الطابع أيضا إذ فيه لغات خاتم – بالفتح والكسر – ، وخاتام ، وخيتام. وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ، فيعلم من يليق بأن يختم به النبوة ، وكيف ينبغى شأنه.

الإشارة : كان صلى اللّه عليه وسلم أبا الأرواح حقيقة إذ الوجود كله ممتد من نوره ، وأبا الأشباح باعتبار أنه السابق نوره.

فأول ما ظهر نوره – عليه الصلاة والسلام – ، ومنه امتدت الكائنات ، فهو بذرة الوجود. وسيأتى فى قوله : فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ «٢» تتميم ذلك إن شاء اللّه. ولم يكن أبا باعتبار تولد الصلب ، وهو الذي نفاه اللّه تعالى عنه.

ثم حضّ على الذكر إذ هو سبب التهذيب والتأديب ، فيزجر صاحبه عن الخوض فيما لا يعنى ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً (٤٤)

---

(١) أخرجه مطولا أحمد فى المسند (٥/ ٢٧٨) ، وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣٨٦) لابن مردويه ، عن ثوبان. وجاء الجزء الأول «أنا خاتم النبيين» في حديث «مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ..» الحديث ، أخرج البخاري فى (المناقب ، باب خاتم النبيين ، ح ٣٥٣٥) ومسلم فى (الفضائل ، باب ذكر كونه صلى اللّه عليه وسلم خاتم النبيين ٤/ ١٧٩١) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ٨١ من سورة الزخرف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٠

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً قياما ، وقعودا ، وعلى جنوبكم ، قال ابن عباس : (لم يعذر أحد فى ترك ذكر اللّه – عز وجل – إلا من غلب على عقله) «١». وقال :

الذكر الكثير : ألّا تنساه أبدا. وروى أبو سعيد عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «أكثروا ذكر اللّه حتى يقولوا مجنون» «٢».

والذكر أنواع : تهليل ، وتحميد ، وتقديس ، واستغفار ، وتلاوة ، وصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم. وقيل : المراد : ذكر القلوب ، فإن الذكر الذي يمكن استدامته ، هو ذكر القلب ، وهو استدامة الإيمان والتوحيد. وأمّا ذكر اللسان فإن إدامته كالمتعذر. قاله القشيري. وَسَبِّحُوهُ أي : نزّهوه ، أو : قولوا : سبحان اللّه وبحمده ، بُكْرَةً أول النهار وَأَصِيلًا آخر النهار. وخصّا بالذكر لأن ملائكة الليل وملائكة النهار يجتمعون فيهما. وعن قتادة : (قولوا :

سبحان اللّه ، والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه). أو : الفعلان – أي : (اذكروا) و(سبّحوه) – موجهان إلى البكرة والأصيل ، كقولك : صم وصل يوم الجمعة. والتسبيح من جملة الذكر ، وإنما اختص من بين أنواعه إبانة لفضله لأن معناه : تنزيه ذاته عما لا يجوز عليه من الصفات. ويجوز أن يراد بالذكر وإكثاره : تكثير الطاعات والعبادات ، فإنها من جملة الذكر ، ثم خصّ من الذكر التسبيح بكرة ، وهى صلاة الفجر ، وأصيلا ، وهى صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، أو : صلاة الفجر والعشاءين.

هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ ، لمّا كان من شأن المصلى أن ينعطف فى ركوعه وسجوده استعير لمن ينعطف على غيره ، حنوا عليه ، كحنو المرأة على ولدها. ثم كثر ، حتى استعمل فى الرحمة والترؤف ، ومنه قولهم : صلى اللّه عليك ، أي : ترحم عليك وترأف. فإن قلت : صلاة اللّه غير صلاة الملائكة ، فكيف اشتركا فى العطف؟ قلت : لاشتراكهما فى قدر مشترك ، وهو إرادة وصول الخير إليهم ، إلا أنه منه تعالى برحمته ، ومن الملائكة بالدعاء والاستغفار.

وذكر السدى : أن بنى إسرائيل قالت لموسى عليه السّلام : أيصلى ربنا؟ فكبر هذا الكلام على موسى عليه السّلام ، فأوحى اللّه إليه : أن قل لهم : إنى أصلى ، وإنّ صلاتى رحمتى ، وقد وسعت كل شىء «٣». وفى حديث المعراج : «قلت :

إلهى لمّا لحقنى استيحاش قبل قدومى عليك ، سمعت مناديا ينادى بلغة ، تشبه لغة أبى بكر ، فقال : قف ، إن ربك

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ١٧).

(٢) أخرجه أحمد فى المسند (٣/ ٦٨ ، ٧١) والحاكم (١/ ٤٩٩) وصححه ، من حديث سيدنا أبى سعيد الخدري رضي اللّه عنه.

(٣) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٣٨٩) لعبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن.

يصلى ، فعجبت من هاتين ، هل سبقنى أبو بكر إلى هذا المقام ، وإن ربى لغنى عن أن يصلّى؟ فقال تعالى : أنا الغنى عن أن أصلّى لأحد ، وإنما أقول : سبحانى ، سبقت رحمتى غضبى. اقرأ يا محمد : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ... الآية ، فصلاتى رحمة لك ولأمتك. ثم قال. وأما أمر صاحبك ، فخلقت خلقا على صورته ، يناديك بلغته ، ليزول عنك الاستيحاش ، لئلا يلحقك من عظيم الهيبة ما يقطعك عن فهم ما يراد منك».

والمراد بصلاة الملائكة : قولهم : اللهم صلّ على المؤمنين. جعلوا – لكون دعائهم بالرحمة مستجابا – كأنهم فاعلون الرحمة. والمعنى : هو الذي يترحم عليكم ويترأف ، حيث يدعوكم إلى الخير ، ويأمركم بإكثار ذكره ، ويأمر ملائكته يترحمون عليكم ، ويستغفرون لكم ، ليقربكم ، ويخصكم بخصائص ليست لغيركم. بدليل : لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ، ثم من ظلمات المعاصي إلى نور الطاعة ، ثم من ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة ، ثم من ظلمات الحجاب إلى نور العيان. وقيل : يصلّى عليكم : يشيع لكم الذكر الجميل فى عباده.

وَكانَ اللّه بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ، قد اعتنى بصلاح أمرهم ، وإثابة أجرهم ، واستعمل فى خدمتهم ملائكته المقربين ، وهو دليل على أن المراد بالصلاة : الرحمة ، حيث صرّح بكونه رحيما بهم. قال أنس : لمّا نزل قوله تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ قال أبو بكر : يا رسول اللّه ما خصك اللّه بشريف إلا وقد اشتركنا فيه ، فأنزل قوله : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ... إلخ «١».

تَحِيَّتُهُمْ أي : تحية اللّه لهم ، فهو من إضافة المصدر إلى مفعوله ، يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ عند الموت. قال ابن مسعود : إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن ، قال : ربك يقرئك السلام «٢». أو : يوم الخروج من القبور ، تسلّم عليهم الملائكة وتبشرهم. أو : يوم يرونه فى الجنة ، سَلامٌ ، يقول اللّه تبارك وتعالى : «السلام عليكم يا عبادى ، هل رضيتم؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيت ما لم تعط أحدا من العالمين. فيقول لهم : أعطيكم أفضل من ذلك ، أحل عليكم رضوانى ، فلا أسخط عليكم أبدا» كما فى البخاري «٣». وفى رواية غيره : يقول تعالى :

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٣٨٩) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن مجاهد. وذكره البغوي فى التفسير (٦/ ٣٦٠) عن أنس رضي اللّه عنه.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٣٩٠) للمروزى فى الجنائز ، وابن أبى الدنيا ، وأبى الشيخ.

(٣) سبق تخريج الحديث.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٢

«السلام عليكم ، مرحبا بعبادي الذين أرضونى باتباع أمرى» هو إشارة إلى قوله : سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ «١».

وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْراً كَرِيماً ، يعنى الجنة وما فيها.

الإشارة : قال القشيري : قوله تعالى : اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً. الإشارة فيه : أحبّوا اللّه لقوله – عليه الصلاة والسلام – «من أحبّ شيئا أكثر من ذكره» «٢» فيجب أن يقول : اللّه ، ولا ينس اللّه بعد ذكر اللّه. هـ. قلت : لأن ذكر اللّه عنوان محبته ، ومنار وصلته ، وهو الباب الأعظم فى الدخول إلى حضرته ، وللّه در القائل :

الذكر عمدة لكل سالك تنورت بنوره المسالك
هو المطية التي لا تنتكب ما بعدها فى سرعة الخطا نجب
به القلوب تطمئن فى اليقين ما بعده على الوصال من معين
به بلوغ السالكين للمنى به بقاء المرء من بعد الفنا
به إليك كل صعب يسهل به البعيد عن قريب يحصل
فهو أقوى سبب لديك وكلّه إليك ، لا عليك
فكل طاعة أتى الفتى بها هو أساسها ، كذاك سقفها
ووحده يفوق كل طاعه كما أتى عن صاحب الشفاعه
كفى بفضله لدا البيان ذهابه بالسهو والنسيان
إذا ذكرت من له الغنى العظيم لديك يصغر الفقير يا نديم
عليه دم حتى إذا تجوهرا بسره الفؤاد كلّ ما ترى
ترى به المذكور دون ستر وقد علا الإدراك درك الفكر
به الحبيب فى الورى تجلى به السّوى عن الحجا تولى
به تمكن المريد فى الفنا حتى يصير قائلا أنا أنا
به رجوعه إلى العبادة به التصرف الذي فى العاده
تاللّه لو جئت بكل قول ما جئتكم بما له من فضل. هـ.

---

(١) من الآية ٧٣ من سورة الزمر.

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٨٣١٢) للديلمى ، فى الفردوس ، وضعّفه ، من حديث السيدة عائشة – رضي اللّه عنها.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٣

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سبق المفرّدون ، قيل : من المفرّدون يا رسول اللّه؟ قال : المستهترون بذكر اللّه ، يضع الذّكر عنهم أثقالهم ، فيردون يوم القيامة خفافا» «١» وسئل صلى اللّه عليه وسلم : أىّ المجاهدين أعظم أجرا؟ قال : «أكثرهم للّه تبارك وتعالى ذكرا. وقيل : فأى الصالحين أعظم أجرا؟ قال : أكثرهم للّه تبارك وتعالى ذكرا. ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، كل ذلك ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «أكثرهم للّه تبارك وتعالى ذكرا». فقال أبو بكر لعمر : يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أجل» «٢» رواه أحمد والطبراني.

وقوله تعالى : هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ ... الآية. قال الورتجبي : صلوات اللّه : اختياره العبد فى الأزل لمعرفته ومحبته ، فإذا خصّه بذلك جعل زلاته مغفورة ، وجعل خواص ملائكة مستغفرين له ، لئلا يحتاج إلى الاستغفار بنفسه عن اشتغاله باللّه ومحبته ، وبتلك الصلاة يخرجهم من ظلمات الطبع إلى نور المشاهدة ، وهذا متولد من اصطفائيته الأزلية ورحمته الكافية القدسية. ألا ترى إلى قوله : وَكانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً أي : قبل وجودهم ، حيث أوجدهم ، وهداهم إلى نفسه ، بلا سبب ولا علة. ثم قال عن ابن عطاء : أعظم عطية للمؤمن فى الجنة : سلام اللّه عليهم من غير واسطة. هـ.

وقوله تعالى : تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ قال القشيري : التحية إذا قرنت بالرؤية ، واللقاء إذا قرن بالتحية ، لا يكون إلا بمعنى رؤية البصر ، والتحية : خطاب يفاتح بها الملوك ، أخبر عن علوّ شأنهم ، فهذا السلام يدلّ على علو رتبتهم. هـ.

ولمّا أمر بذكره وتنزيهه ، ذكر شهادته لرسوله ، ليدلّ على اقترانها فى صحة الإيمان وكمال الذكر ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٤٥ الى ٤٨]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَداعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجاً مُنِيراً (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ وَدَعْ أَذاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلاً (٤٨)

---

(١) أخرجه بلفظه الترمذي فى : (الدعوات ، باب : فى العفو والعافية ٥/ ٥٣٩ ، ح : ٣٥٩٦) ، وبنحوه أخرجه مسلم فى (الذكر والدعاء ، باب الحث على ذكر اللّه تعالى ٤/ ٢٠٦٢ ، ح ٢٦٧٦) من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه.

والمستهترون بذكر اللّه : المولعون بالذكر : المداومون عليه ، لا يبالون ما قيل فيهم ، ولا ما فعل بهم.
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٨) ، وقال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١٠/ ٧٤) : رواه أحمد والطبراني ، وفيه : زبان بن فائد ، وهو ضعيف ، وقد وثّق ، وكذلك ابن لهيعة ، وبقية رجال أحمد ثقات.

(٤٤٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٤
قلت : «شاهدا» : حال مقدرة ، كمررت برجل معه صقر صائدا به غدا.
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً على من بعث إليهم ، على تصديقهم وتكذيبهم ، أي : مقبولا قولك عند اللّه ، لهم وعليهم ، كما يقبل قول الشاهد العدل فى الحكم ، وَمُبَشِّراً للمؤمنين بالنعيم المقيم ، وَنَذِيراً للكافرين بالعذاب الأليم ، وَداعِياً إِلَى اللَّهِ إلى الإقرار بربوبيته ، وتوحيده ، وما يجب الإيمان به ، من صفاته ، ووعده ، ووعيده ، بِإِذْنِهِ بأمره ، أو : بتيسيره. وقيّد به الدعوى إيذانا بأنه أمر صعب ، لا يتأتى إلا بمعونة من جناب قدسه ، وَسِراجاً مُنِيراً يستضاء به فى ظلمة الجهالة ، وتقتبس من نوره أنوار الهداية ، قد جلى به اللّه ظلمات الشرك ، واهتدى به الضالون ، كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير ، ويهتدى به. وقيل : المراد به القرآن ، فيكون التقدير : وذا سراج. ووصف بالإنارة لأن من السرج من لا يضيء جدا إذا قلّ سليطه ، – أي : زيته – ورقّت فتيلته. أو : شاهدا بوحدانيتنا ، ومبشرا برحمتنا ، ونذيرا بنقمتنا ، وداعيا الى عبادتنا ، وسراجا تنير الطريق إلى حضرتنا.
وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيراً ثوابا عظيما ، يربو على ثواب سائر الأمم. وفى الحديث : «مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمن استأجر عمالا إلى آخر اليوم ، فعملت اليهود إلى الظهر ، ثم عجزوا ، ثم عملت النصارى إلى العصر ، فعجزوا ، ثم عملتم إلى آخر النهار ، فاستحققتم أجر الفريقين ، فغضبت اليهود والنصارى ، وقالوا : نحن أكثر عملا ، وأقلّ أجرا ، فقال لهم اللّه تعالى : هل ظلمتكم من حقكم شيئا؟ قالوا : لا ، قال : فذلك فضلى أوتيه من أشاء» «١» وفى رواية : «أنهم عملوا إلى الظهر ، أو العصر ، وقالوا : لا حاجة لنا بأجرك ، فبطل أجر الفريقين». وهذا فى حق من أدرك الإسلام منهم ولم يؤمن. والحديث فى الصحيح. نقلته بالمعنى.
قال البيضاوي : ولعله معطوف على محذوف ، أي : فراقب أمتك وبشّرهم. هـ.
وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ أي : دم على مخالفتهم ، وهو تهييج وتنفير عن حالهم ، وَدَعْ أَذاهُمْ أي : لا تلتفت إليه ، ولا تحتفل بشأنه. وهو من إضافة المصدر إلى الفاعل ، أي : اجعل إيذائهم إياك فى جانب ، وأنت فى جانب ، ولا تبال بهم ، ولا تخف من إيذائهم. أو : إلى المفعول ، أي : دع إيذاءك

إياهم مجازاة ومؤاخذة على كفرهم. ولذلك قيل : إنه منسوخ. وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فإنه يكفيكهم ، وَكَفى بِاللَّهِ وَكِيلًا موكولا عليه ،

---

(١) أخرجه البخاري فى (الإجارة ، باب الإجارة إلى نصف النهار ، ح ٢٢٦٨) من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٥

ومفوضا إليه الأمر فى الأحوال كلها ، ولعله تعالى لمّا وصفه بخمسة أوصاف ، قابل كلا منها بخطاب مناسب له ، فقابل الشاهد بقوله : وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ لأنه يكون شاهدا على أمته ، وهم يكونون شهداء على سائر الأمم ، وهو الفضل الكبير ، وقابل المبشّر بالإعراض عن الكافرين والمنافقين لأنه إذا أعرض عنهم أقبل بكليته على المؤمنين ، وهو مناسب للبشارة ، وقابل النذير بدع أذاهم لأنه إذا ترك أذاهم فى العاجل ، والأذى له ، لا بد له من عقاب عاجل أو آجل ، كانوا منذرين به فى المستقبل. وقابل الداعي إلى اللّه بأمره بالتوكل عليه لأن من توكل على اللّه يسّر عليه كل عسير ، فتسهل الدعوة ، ويتيسر أمرها ، وقابل السراج المنير بالاكتفاء به وكيلا لأن من أناره اللّه وجعله برهانا على جميع خلقه كان حقيقا بأن يكتفى به عن جميع خلقه. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال الورتجبي : إنا أرسلناك بالحقيقة شاهدا ، أنت شاهدنا ، شاهدناك وشهدت علينا ، فألبستك أنوار ربوبيتى ، فمن شهدك بالحقيقة فقد شهدنا. قلت : لأن نوره صلى اللّه عليه وسلم أول نور ظهر من نور الحق ، فمن شهده شهد الحق.

ثم قال : ومن نظر إليك فقد نظر إلينا. قال صلى اللّه عليه وسلم : «من عرفنى فقد عرف الحق ، ومن رآنى فقد رأى الحق». ثم قال :

وَسِراجاً مُنِيراً ، أسرجت نورك من نورى ، فتنور بنوري عيون عبادى المؤمنين ، فيأتون إلىّ بنورك. ثم أمره بأن يبشر المؤمنين بأنهم يصلون إلى مشاهدته ، بلا حجاب ولا عتاب. هـ.

قال القشيري : يا أيها المشرّف من قبلنا إنّا أرسلناك شاهدا بوحدانيتنا ، ومبشرا ، تبشر عبادنا بنا ، وتحذّرهم مخالفة أمرنا ، وتعلمهم مواضع الخوف منا ، وداعيا الخلق إلينا بنا ، وسراجا منيرا يستضيئون بك ، وشمسا ينبسط شعاعك على جميع من صدّقك وآمن بك ، ولا يصل إلينا إلا من اتّبعك وخدمك وقدّمك ، وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بفضلنا عليهم ، ونيلهم طولنا عليهم ، وإحساننا إليهم. ومن لم تؤثر فيهم بركة إيمانهم بك فلا قدر لهم عندنا. ولا تطع من أعرضنا عنه وأضللناه ، من أهل الكفر والنفاق ، وأهل

البدع والشقاق ، وتوكل على اللّه بدوام الانقطاع إليه ، وكفى باللّه وكيلا. هـ.
ثم ذكر حكم المطلقة قبل الدخول ، وأنه لا عدّة عليها. مناسب لقوله : فَلَمَّا قَضى زَيْدٌ ... إلخ ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٤٩]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلاً (٤٩)

(٤/٤٤٥)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٦
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِناتِ أي : تزوجتموهن. والنكاح فى الأصل : الوطء ، من : تناكحت الأشجار : إذا التصق بعضها ببعض. وتسمية العقد نكاحا مجاز لملابسته له ، من حيث إنه طريق إليه ، كتسمية الخمر إثما لأنها سببه ، ولم يرد لفظ النكاح فى كتاب اللّه إلا فى معنى العقد لأنه لو استعمل فى الوطء لكان تصريحا به ، ومن آداب القرآن الكناية عنه بلفظ الملامسة ، والمماسة ، والقربان ، والتغشى ، والإتيان ، تعليما للأدب والحياء. وفى تخصيص المؤمنات ، مع أن الكتابيات تساوى المؤمنات فى هذا الحكم ، إشارة إلى أن الأولى للمؤمن أن ينكح المؤمنة ، تخييرا للنطفة. والمعنى : إذا تزوجتم النساء ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ تجامعوهن. والخلوة الصحيحة كالمسّ ، فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَها أي : تستوفون عددها ، وتعدونها عليهن ، من : عددته الدراهم فاعتدها ، كقوله : كلته الطعام فاكتاله. والإسناد إلى الرجال للدلالة على أن العدّة تجب على النساء لحق الأزواج ، كما يشعر به ، فَما لَكُمْ. والإتيان ب «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم أن تراخى الطلاق [ربما يمكن الإصابة فتجب العدة] «١».
فَمَتِّعُوهُنَّ بشيء من المال ، وهذا فى المفوض لها قبل الفرض ، وأما المفروض لها ، أو المسمى صداقها ، فتأخذ نصف مهرها ، ولا متعة لها على المشهور. وَسَرِّحُوهُنَّ سَراحاً جَمِيلًا أي : لا تمسكوهنّ ضرارا ، وأخرجوهن من بيوتكم إذ لا عدة لكم عليهن. قال القشيري : (سراحا جميلا) لا تذكروهن بعد الفراق إلا بخير ، ولا تستردوا منهن شيئا ، ولا تجمعوا عليهن سوء الحال والإضرار من جهة المال. هـ.
الإشارة : أيها المريدون إذا طلقتم نفوسكم ، وغبتم عنها بخمرة قوية ، من قبل أن تمسوهن بمجاهدة ولا مخالفة ، فمتعوها بالشهود ، وسرحوا فكرتها فى ذات المعبود ، سراحا جميلا ، لا حجر فيه ولا حصر ، فمن رزقه اللّه الغيبة عن نفسه ، حتى غاب عن حظوظها وهواها ، فقد كفاه اللّه قتالها ، فيدخل

الحضرة بلا مشقة ولا تعب ، لكنه نادر ، وعلى تقدير وجوده يكون ناقص التربية لأنه يكون كمن طويت له الطرق للحج ، فلا يعرفها كما يعرفها من سافر فيها ، وكابد مشقتها ، وعرف منازلها ومياهها ، ووعرها وسهلها ، ومخوفها ومأمونها ، وكلهم أولياء للّه تعالى ، لكن طريق التربية أن يكون المريد سلك الطريقة ، وقاس شدائد نفسه ، وعالجها ليعالج غيره بما يعالج نفسه ، على يد شيخ عارف بالطريق. وباللّه التوفيق.

---

(١) العبارة كما فى البيضاوي : [وفائدة «ثم» إزاحة ما عسى أن يتوهم تراخى الطلاق ريثما تمكن الإصابة ، كما يؤثر فى النسب يؤثر فى العدة].

(٤/٤٤٦)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٧

ثم وسّع على نبيه فى باب النكاح ، فقال تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٠]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللاَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَناتِ عَمِّكَ وَبَناتِ عَمَّاتِكَ وَبَناتِ خالِكَ وَبَناتِ خالاتِكَ اللاَّتِي هاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَها خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ مهورهن إذ المهر أجر البضع ، ولذا قال الكرخي – من الحنفية – : إن النكاح بلفظ الإجارة جائز ، والجواب : أن التأبيد من شرط النكاح ، والتأقيت من شرط الإجارة ، وبينهما منافاة ، وإيتاؤها : إعطاؤها عاجلا ، أو فرضها فى المفوض ، وتسميته فى المسمى. والمراد بالأزواج المحلّلة له – عليه الصلاة والسلام – : نساؤه اللاتي فى عصمته حينئذ ، كعائشة وغيرها ، وكان قد أعطاهن مهورهن ، أو : جميع النساء اللاتي يريد أن يتزوجهن ، فأباح له جميع النساء.

وهذا أوسع.

وَأحللنا لك ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ من السّرارى مِمَّا أَفاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ من الغنائم ، وهى صفية ، أعتقها وتزوجها ، وَبَناتِ عَمِّكَ ، وَبَناتِ عَمَّاتِكَ ، وَبَناتِ خالِكَ ، وَبَناتِ خالاتِكَ ، يعنى قرابتك ، التي من جهة أبيك ، ومن جهة أمك. وكان له – عليه الصلاة والسلام – أعمام وعمات ، أخوة لأبيه ، ولم يكن لأمه صلى اللّه عليه وسلم أخ ولا أخت ، فإنما يعنى بخاله وخالته : عشيرة أمه ، وهم بنو زهرة ، ولذلك كانوا

يقولون : نحن أخوال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فإذا قلنا : المراد بقوله : أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ من كان فى عصمته ، فهذا عطف عليهن ، وإباحة لأن يتزوج قرابته ، زيادة على من كان فى عصمته ، وإذا قلنا : المراد : جميع النساء ، فهذا تحديد لهن ، على وجه التشريف ، بعد دخولهن فى العموم. وقوله : اللَّاتِي هاجَرْنَ مَعَكَ ، قيد فى حلّية قرابته – عليه الصلاة والسلام – . قالت أم

هانئ : خطبنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فعذرنى ، فأنزل اللّه هذه الآية ، فلم أحلّ له لأنى لم أهاجر معه ، كنت من الطلقاء «١».

و«مع» هنا : ليست للاقتران ، بل لوجود الهجرة فقط ، كقوله : أَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمانَ «٢».

وَأحللنا لك امْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَها لِلنَّبِيِّ من غير مهر ولا عقد ، فهو منصوب بفعل يفسره ما قبله ، أو : عطف على ما سبقه ، ولا يدفعه أن «التي» للاستقبال لأن المعنى بالإحلال : الإعلام بالحلّ ، أي :

أعلمناك حلّ امرأة مؤمنة وهبت لك نفسها ، ولا تطلب مهرا إن اتفق ، ولذلك نكّرها. واختلف فى اتفاق ذلك ، والقائل به ذكر أربعا : ميمونة بنت الحارث ، حين جاءها الخاطب ، قالت : البعير وما عليه لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فتزوجها. وزينب بنت خزيمة الأنصارية ، أم المساكين ، وتوفيت فى حياته صلى اللّه عليه وسلم ، وأم شريك بنت جابر الأسدية ، وقيل : أم شريك العامرية ، قيل : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تزوجها ، ولم يثبت ذلك. ذكره ابن عبد البر. وخولة بنت حكيم السلمية. ذكر البخاري عن عائشة أنها قالت : كانت خولة بنت حكيم من اللائي وهبن أنفسهن. قال أبو نعيم :

تزوجها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولم يدخل بها. قال السهيلي : فدلّ أنهن كن غير واحدة. واللّه أعلم. هـ. وقال ابن عباس : هو بيان حكم فى المستقبل ، ولم يكن عنده أحد منهن بالهبة ، فانظره «٣».

وقرأ الحسن بفتح «أن» على حذف لام التعليل. وقرأ ابن مسعود رضي اللّه عنه بغير «إن» أي : وأحللنا لك امرأة مؤمنة وهبت نفسها للنبى إن أراد النبي أن يستنكحها ، أي : طلب نكاحها والرغبة فيها. وقيل : نكح واستنكح بمعنى واحد.

والشرط الثاني تقييد للأول ، كأنه قال : أحللنا لك امرأة إن وهبت نفسها ، وأنت تريد أن تستنكحها ،

وإرادته هى :

قبول [الهبة] «٤».

جعلنا ذلك خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، بل يجب عليهم المهر ، تسمية أو فرضا. وفيه إيذان بأنه مما خص به – عليه الصلاة والسلام – لشرف نبوته ، وتقرير لاستحقاقه الكرامة. قال ابن جزى : وانظر كيف رجع من الغيبة إلى الخطاب ليخص المخاطب وحده. وقيل : إن «خالصة» يرجع إلى كل ما تقدم من النساء المباحات له

---

(١) أخرجه الترمذي فى (التفسير – سورة الأحزاب ٥/ ٣٣١ ، ح ٣٢١٤) ، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٢٠) ، والبيهقي فى السنن (٧/ ٥٤) وابن جرير فى التفسير (٢٢/ ٢٠) والطبراني فى الكبير (٢٤/ ٤٠٥ ح ٩٨٥) وقال الترمذي : حسن صحيح.

(٢) من الآية ٤٤ من سورة النمل.

(٣) انظر : تفسير القرطبي (٦/ ٥٤٤٣) والبحر المحيط (٧/ ٢٣٣).

(٤) فى الأصول : الهدية.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٤٩

صلى اللّه عليه وسلم لأن سائر المؤمنين قصّروا على أربع نسوة ، وأبيح له – عليه الصلاة والسلام – أكثر من ذلك. ومذهب مالك :

أن النكاح بلفظ الهبة لا ينعقد ، خلافا لأبى حنيفة. هـ. قلت : إن قرنه ذكر الصداق جاز ، كما فى المختصر.

و(خالصة) : مصدر مؤكد ، أي : خلص إحلالها ، أو : إحلال ما أحللنا لك على القيود المذكورة خلوصا لك. أو :

حال من الضمير فى (وهبت) ، أو : صفة لمصدر محذوف ، أي : هبة خالصة لك.

قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا عَلَيْهِمْ فِي أَزْواجِهِمْ أي : ما أوجبنا من المهور على أمتك فى زوجاتهم ، أو : ما أوجبنا عليهم فى أزواجهم من الحقوق ، كالنفقة وحسن المعاشرة ، أو : ما فرضنا عليهم من الاقتصار على الأربع ، أو : ما أوجبنا عليهم من الإشهاد والولي ، وَما مَلَكَتْ أَيْمانُهُمْ بالشراء وغيره من وجوه الملك ، فقد علمنا ما فرضنا عليهم من الإنفاق والرفق ، وألا يكلفوهن ما لا طاقة لهن به ، مع حليّة الوطء ، ولو تعددن. وإنما وسّعنا عليك فى أمر النساء لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ضيق ، وهو راجع

لقوله : خالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ.

والجملة من قوله : قَدْ عَلِمْنا ما فَرَضْنا .. إلخ : اعتراضية للدلالة على أن الفرق بينه وبين المؤمنين فى نحو ذلك ليس لمجرد التوسيع عليه ، بل لمعان تقتضى التوسيع عليه والتضييق عليهم تارة ، والعكس أخرى ، كنكاح الكتابية والأمة ، فتحرمان عليه صلى اللّه عليه وسلم دون أمته. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً بالتوسعة على عباده ، أو : غفورا لما يعسر التجرد عنه ، رحيما بالتوسعة فى مظان الحرج.

الإشارة : قد وسّع اللّه على خواصه فى باب النكاح ، وأمدهم فى ذلك بالقوة ، وأعطاهم من الباءة ما لم يعط غيرهم ، تشريفا وترغيبا فى هذا الأمر ، لإبقاء النسل الطيب ، ولما فيه من التوسعة فى المعرفة ، وحسن الخلق ، وتعلم السياسة ، فدلّ ذلك أن كثرة النساء لا ينافى الزهد ، ولا يقدح فى كمال المعرفة ، بل يزيد فيها. قال الإمام ابن منصور المقدسي ، فى شرح منازل السائرين – فى باب الزهد – : ومتعلق الزهد ستة أشياء ، لا يستحق العبد اسم الزهد حتى يزهد فيها ، وهى : المال ، والرئاسة ، والناس ، والنفس ، وكل ما دون اللّه. وليس المراد رفضها عن الملك ، فقد كان داود وسليمان – عليهما السلام – من أزهد أهل زمانهما ، ولهما من الملك والنساء والملك ما لهما. وكان نبينا صلى اللّه عليه وسلم أزهد البشر على الإطلاق ، وله تسع نسوة ، وكان علىّ بن أبى طالب – كرم اللّه وجهه ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزبير ، وعثمان – رضوان اللّه عليهم – من الزهاد ، مع مالهم من الأموال – أي : والنساء – فكان لعلىّ رضي اللّه عنه أربع حرائر ، وسبعة عشر سرية ، ولعبد الرحمن بن عوف والزبير أربع أربع ، ولعثمان كذلك. وتزوج المغيرة بن شعبة تسعا وتسعين امرأة. ثم قال : وكان الحسن بن علىّ – رضى اللّه عنهما – من الزهاد ، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحهن. ثم قال : ومن أحسن ما قيل فى الزهد كلام الحسن وغيره ، قال : ليس الزهد فى الدنيا

(٤/٤٤٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٠

بتحريم الحلال ، ولا بإضاعة المال ، وإنما الزهد أن تكون بما فى يد اللّه أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو لم تصبك. انتهى المقصود منه.

ثم وسّع على نبيه فى القسمة ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥١]

تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ ذلِكَ أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيماً (٥١)

يقول الحق جل جلاله لرسوله صلى اللّه عليه وسلم : تُرْجِي مَنْ تَشاءُ مِنْهُنَّ أي : تؤخرها فى القسمة ،

وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشاءُ أي : تضمها إليك ، والمعنى : تترك مضاجعة من تشاء منهن وتضاجع من تشاء ، فقد خيّره اللّه فى القسمة وعدمها. قال أبو رزين : لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلّقن ، فقلن : يا نبيّ اللّه اجعل لنا من مالك ونفسك ما شئت ، ودعنا على حالنا «١» ، فكان ممن أرجى منهن : سودة ، وجويرية ، وصفية ، وميمونة ، وأم حبيبة ، فكان يقيم لهن ما يشاء ، وكان ممن آوى إليه عائشة ، وحفصة ، وأم سلمة ، وزينب ، فكان يقسم لهن بالسوية «٢» ، لا يفضل بعضهن على بعض. فآوى أربعا وأرجى خمسا. وقيل : إنه كان صلى اللّه عليه وسلم يسوّى بين الجميع فى القسم ، إلا سودة ، فإنها وهبت ليلتها لعائشة ، حين هم بطلاقها ، وقالت : لا تطلّقنى حتى أحشر فى زمرتك وفى نسائك. والجمهور على أنه صلى اللّه عليه وسلم كان يعدل فى القسمة بين نسائه ، أخذا منه بأفضل الأخلاق ، مع أن اللّه خيّره. وقيل : (ترجى من تشاء) أي : تطلق من تشاء منهن ، وتمسك من تشاء. وقيل : تترك تزوج من شئت من أمتك ، وتتزوج من شئت.

وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُناحَ عَلَيْكَ أي : ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ، ممن عزلت عن نفسك بالإرجاء ، فلا ضيق عليك فى ذلك ، أي : ليس إذا عزلتها من القسمة ، أو من العصمة ، لم يجز لك ردّها إلى نفسك ، بل افعل ما شئت ، فلا حرج عليك. ذلِكَ التفويض إلى مشيئتك أَدْنى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِما آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ أي : هو أقرب إلى قرة أعينهن ، وقلة حزنهن ، ورضاهن جميعا لأنه إذا علمن أنّ هذا الحكم من عند اللّه اطمأنت نفوسهنّ ، وذهب التغاير ، وحصل الرضا ، وقرّت العيون.

---

(١) أخرجه بمعناه الطبري (٢٢/ ٢٦) عن أبى رزين. وانظر أسباب النزول للواحدى (ص : ٣٧١).

(٢) عزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي (ص ١٣٥ ح ٢٣٢) لابن أبى شيبة ، وعبد الرزّاق ، عن أبى رزين ، وهذا مرسل.

قلت : والذي يظهر أن من أرجاه صلى اللّه عليه وسلم من النساء إنما كان بوحي ، ومن ضمه كذلك إذ لا يتصرف إلا بإذن من اللّه ، فإذا علم النساء أن الإرجاء والإيواء كان بوحي من اللّه رضين بذلك ، وقرت أعينهن ، وزال تغايرهن ، وأما مطلق التفويض إليه فقط ، فلا يقطع الغيرة فى العادة ، فالإشارة تعود إلى حكم الإرجاء والإيواء فتأمله. و«كلهن» :

تأكيد ضمير «يرضين».

وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ من أمر النساء ، والميل إلى بعضهن ، أو : يعلم ما فى قلوبكم من الرضا بحكم اللّه والتفويض إليه ، ففيه تهديد لمن لم يرض منهن بما دبّر اللّه ، وفوّض إلى رسوله ، وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً بذات الصدور ، حَلِيماً لا يعاجل بالعقوبة ، فهو حقيق بأن يتقى ويحذر.

الإشارة : إذا تحقق فناء العبد وزواله ، وتكملت ولايته ، كان مفوضا إليه فى الأمور ، يفعل ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، لم يبق عليه تحجير ، ولم يتوجه إليه عتاب لأن العبد المملوك إذا تحققت محبة سيده له ، كتب له عقد التحرير. وشاهده حديث : «إذا أحبّ اللّه عبدا لم يضره ذنب» «١» ، وحديث البخاري : «لعلّ اللّه اطّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم» «٢» ، وسببه معلوم.

وفى القوت عن زيد بن أرقم : إن اللّه عز وجل ليحب العبد ، حتى يبلغ من حبه أن يقول له : اصنع ما شئت ، فقد غفرت لك. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى اللّه عنه : يبلغ الولي مبلغا يقال له : أصحبناك السلامة ، وأسقطنا عنك الملامة ، فاصنع ما شئت. ومصداقه من كتاب اللّه : قوله تعالى فى حق سليمان عليه السّلام : هذا عَطاؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ «٣». وهذا وإن كان للنبى من أجل العصمة ، فلمن كان من الأولياء فى مقام الإمامة قسط منه ،

---

(١) ذكره الغزالي فى الإحياء (كتاب المحبة ٤/ ٣٤٥) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه. وقال العراقي فى المغني : ذكره صاحب الفردوس – الديلمي – ولم يخرجه ولده فى مسنده. هـ. والحديث أخرجه – مطولا – القشيري فى الرسالة (باب التوبة/ ٧٦) عن شيخه «ابن فورك» بسنده عن أنس. وزاد الزبيدي فى إتحاف السادة المتقين (٩/ ٦٠٩) عز والحديث لابن أبى الدنيا ، وابن النجار فى تاريخه.

قلت : معناه : أنه إذا أحب اللّه العبد تاب عليه قبل الموت ، فلم تضره الذنوب الماضية ، ولو كثرت ، كما لا يضر الكفر الماضي قبل الإسلام.

(٢) جزء من حديث ، أخرجه بطوله البخاري فى (الجهاد ، باب الجاسوس ، ح ٣٠٠٧) ومسلم فى (فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر – رضى اللّه عنهم ٤/ ١٩٤١ – ١٩٤٢ ، ح ٢٤٩٤) عن سيدنا علىّ بن أبى طالب رضي اللّه عنه.

وسبب الحديث : أن حاطب بن أبى بلتعة ، أرسل رسالة مع امرأة إلى قريش ، يخبرهم فيه ببعض أمر رسول صلى اللّه عليه وسلم ، فلما أتى برسالة إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، قال : «يا خاطب! ما هذا؟» قال : لا تعجل علىّ يا رسول اللّه! إنى كنت امرأ ملصقا فى قريش ، وكان ممن كان معك من المهاجرين ، لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم ، فأحببت إذا فاتنى ذلك من النسب فيهم ، أن أتخذ فيهم يدا ، يحمون بها قرابتى ، ولم أفعل كفرا ولا ارتدادا عن دينى ، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام. فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «صدق» فقال عمر : دعنى ، يا رسول اللّه أضرب عنق هذا المنافق فقال

: «إنه قد شهد بدرا ..» الحديث.

(٣) الآية ٣٩ من سورة «ص».

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٢

من أجل الحفظة. وقال أيضا رضي اللّه عنه فى بعض أدعيته : وأدرج أسمائى تحت أسمائك ، وصفاتى تحت صفاتك ، وأفعالى تحت أفعالك ، درج السلامة ، وإسقاط الملامة ، وتنزل الكرامة ، وظهور الإمامة. هـ.

فإذا اندرجت أسماء العبد وصفاته وأفعاله تحت أسماء الرب ، وصفاته ، وأفعاله ، لم يبق للعبد وجود أصلا ، وكان الفعل كله باللّه ، ومن اللّه ، وإلى اللّه. وهذا مقام عزيز ، لا يناله إلا الأفراد من أهل الفناء فى اللّه ، والبقاء باللّه ، وقد غطى وصفهم بوصفه ، ونعتهم بنعته ، فغيّبهم عن اسمهم ورسمهم ، فهم باللّه فيما يفعلون ويذرون. واللّه تعالى أعلم.

ثم قال تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٢]

لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلاَّ ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢)

يقول الحق جل جلاله : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ أي : من بعد التسع ، اللاتي خيرتهن فاخترنك لأن التسع نصاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، كما أن الأربع نصاب أمته. لمّا اخترن اللّه ورسوله والدار الآخرة قصره اللّه عليهن ، وقيل : هى منسوخة كما يأتى. أو : لا يحلّ لك نساء الأجانب ، وإنما لك نساء قرابتك ، كبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك ، فيحل لك منهن ما شئت ، ولو ثلاثمائة ، أو أكثر. أو : لا يحل لك النساء من غير المسلمات ، كالكتابيات والمشركات. وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ بالطلاق. والمعنى : ولا أن تستبدل بهؤلاء التسع أزواجا ، بكلهن أو بعضهن ، كرامة لهن ، وجزاء على ما اخترن ورضين. فقصر رسوله صلى اللّه عليه وسلم على التسع اللاتي مات عنهن. وقال أبو هريرة وابن زيد : كانت العرب فى الجاهلية يتبادلون بالأزواج ، يعطى امرأة هذا أياما ويأخذ امرأته ، فأنزل اللّه : وَلا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ بأن تعطي بعض أزواجك وتأخذ بعض أزواجهم ، إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، فلا بأس أن تبادل بجاريتك. و«من» : لتأكيد النفي ليفيد استغراق جنس الأزواج بالتحريم ، وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ أي : حسن الأزواج المتبدلة. وقيل : هى أسماء بنت عميس ، امرأة جعفر بن أبى طالب ، فإنها ممن أعجبه حسنهنّ.

وعن عائشة وأم سلمة ، (ما مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. حتى أحلّ اللّه له أن يتزوج من النساء ما شاء) «١» ، يعنى أن الآية نسخت إما بالسنّة ، أو : بقوله : إِنَّا أَحْلَلْنا لَكَ أَزْواجَكَ. وترتيب النزول ليس على ترتيب

---

(١) أخرجه ، عن السيدة عائشة ، رضى الله عنها ، أحمد فى المسند (٤/ ٤١) والترمذي فى (التفسير – سورة الأحزاب ٥/ ٣٣٢ ، ح ٣٢١٦) وقال : حديث حسن صحيح. والنسائي فى (النكاح ، باب ما افترض اللّه عز وجل على رسوله صلى اللّه عليه وسلم وحرمه على خلقه ، ٦/ ٥٦) والدارمي فى (النكاح ، باب قول اللّه تعالى : لا يَحِلُّ لَكَ النِّساءُ مِنْ بَعْدُ ٢/ ٢٠٥ ، ح ٢٢٤١) وصححه الحاكم (٢/ ٤٣٧) ووافقه الذهبي.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٣

المصحف. إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمِينُكَ استثناء من النساء لأنه يتناول الأزواج ، وقيل : منقطع ، أي : لكن ما ملكت يمينك ، فيحل لك ما شئت ، وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً حافظا ومطلعا. وهو تحذير عن مجاوزة حدوده.

واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : من نكح أبكار الحقائق العرفانية ودخل بأسرار العلوم اللدنية ، لا يحل له أن ينكح ثيبات نساء العلوم الرسمية ، ولا أن يتبدل بما عنده من المواهب الربانية ، بغيرها من العلوم اللسانية ، ولو أعجبك حسنها ورونقها – على الفرض والتقدير – إذ التنزل إليها بطالة عند المحققين ، إلا ما كنت تملكه قبل علم الحقيقة ، فلا بأس أن تنزل إلى تعليمه وإفادته ، إن توسعت فى علم الباطن ، وصرت من الأغنياء الكبار ، تنفق كيف تشاء ، فلا يضرك حينئذ التنزل إلى علم الظاهر. وقد كان شيخ شيوخنا سيدى يوسف الفاسى رضي اللّه عنه عنده مجلسان مجلس لأهل الظاهر ، ومجلس لأهل الباطن. فإن كان فى مجلس الظاهر ، وجاء إليه أحد من الفقراء ، يقول : اذهب حتى نأتى إلى مجلسكم ، وإن كان فى مجلس أهل الباطن ، وجاء إليه أحد من أهل الظاهر ، قال : اذهب حتى نأتى إليكم. وكان له هذا بعد الرسوخ فى علم الحقيقة. وباللّه التوفيق.

ولمّا أو لم – عليه الصلاة والسلام – على زينب ، جلس قوم فى بيته يتحدثون ، فأنزل اللّه تعالى فى شأنهم :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٥٣ الى ٥٤]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ وكانت تسعا ، إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ أي : إلا وقت أن يؤذن لكم ، أو : إلا مأذونا لكم ، فجملة : (إلا أن يؤذن) : فى موضع الحال ، أو الظرف. و(غير ناظرين) : حال من (لا تدخلوا) ، وقع الاستثناء على الوقت والحال ، كأنه قيل : لا تدخلوا بيوت

(٤٥٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٤

النبي إلا وقت الإذن ، ولا تدخلوها إلا غَيْرَ ناظِرِينَ أي : منتظرين إِناهُ أي : إدراكه ونضجه. قال ابن عزيز : إناه : بلوغ وقته ، يقال : أنى يأنى ، وآن يئين : إذا شهى ، بمنزلة : حان يحين. هـ. وقال الهروي : أي :

غير ناظرين نضجه وبلوغ وقته ، مكسور الهمزة مقصور ، فإذا فتحت مددت ، فقلت : الإناء ، أي غير ناظرين وقت الطعام وساعة أكله.

روى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم أو لّم على زينب بتمر وسويق ، وذبح شاة ، وأمر أنسا أن يدعوا الناس ، فترادفوا أفواجا ، يأكل كل فوج ، فيخرج ، ثم يدخل فوج ، إلى أن قال : يا رسول اللّه دعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه. فقال : «ارفعوا طعامكم» وتفرق الناس ، وبقي ثلاثة نفر يتحدثون ، فأطالوا ، فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ليخرجوا ، فطاف بالحجرات ، وسلم عليهن ، ودعون له ، ورجع ، فإذا الثلاثة جلوس يتحدثون. وكان صلى اللّه عليه وسلم شديد الحياء ، فتولى ، فلما رأوه متوليا خرجوا ، فنزلت الآية ، وهى آية الحجاب. قال أنس : فضرب بينى وبينه الحجاب «١».

قال تعالى : وَلكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا : تفرقوا ، وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ أي : ولا تدخلوها حال كونكم مستأنسين لحديث ، أو : غير ناظرين ولا مستأنسين ، فهو منصوب ، أو مجرور ، عطف على «ناظرين» ، نهوا أن يطيلوا الجلوس فى بيته صلى اللّه عليه وسلم مستأنسين بعضهم ببعض ، لأجل حديث يتحدثون به ، إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ من إخراجكم وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، يعنى أن إخراجكم حق ، ما ينبغى أن يستحى منه ، ولا يترك بيانه ، حياء ، أو : لا يأمر

بالحياء فى الحق ، ولا يشرع ذلك.

وَإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ أي : نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، بدلالة البيوت عليهن لأن فيها نساءه ، مَتاعاً عارية أو حاجة ، فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ستر ، ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ من خواطر الشيطان وعوارض الفتن. وكانت النساء قبل هذه الآية يبرزن للرجال ، وكان عمر رضي اللّه عنه يحب ضرب الحجاب عليهن ، ويودّ أن ينزل فيه ، وقال : يا رسول اللّه : يدخل عليك البرّ والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب؟ فنزلت «٢».

وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام ، كان يطعم ومعه بعض أصحابه ، فأصابت يد رجل يد عائشة ، فكره النبىّ صلى اللّه عليه وسلم ذلك فنزلت الآية «٣». واللّه تعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير ، سورة الأحزاب ، ح ٤٧٩٣) وفى (الاستئذان) ، ومسلم فى (النكاح ، باب زواج زينب بنت جحش ٢/ ١٠٥٢ ، ح ٩٥ من كتاب النكاح) من حديث سيدنا أنس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البخاري فى (التفسير ، باب : واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، ح ٤٤٨٣). عن أنس رضي اللّه عنه.

(٣) أخرجه الطبري فى التفسير (٢٢/ ٣٩) والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٤) عن مجاهد ، مرسلا. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٥

الإشارة : العلماء ومشايخ التربية ورثة الأنبياء ، فإذا دعوا إلى طعام فلا يدخل أحد حتى يؤذن له ، فإذا طعموا فلينتشروا ، وإذا سأل أحد حاجته من أهل دار الشيخ فليسأل من وراء الباب ، وليتنح عن مقابلة الباب لئلا يتكشف على عرض شيخه ، فيسيء الأدب معه ، وهو سبب الخسران.

ثم نهى عن تزوج نساء النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

وَما كانَ لَكُمْ ...

يقول الحق جل جلاله : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ أي : ما صحّ لكم إيذاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهو كفر ، وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً تعظيما لحرمته صلى اللّه عليه وسلم ، ولبقاء عصمته عليهن ، ولذلك وجبت نفقتهن بعده ، لقوله : «ما بقي بعد نفقة أهلى صدقة». وكذا السكنى كما قد علم ، وبه قال ابن العربي.

وعطف (و لا أن تنكحوا) على (أن تؤذوا) من عطف الخاص على العام إذ تزوج نسائه من أعظم الإيذاء. إِنَّ ذلِكُمْ أي : الإيذاء أو التزوج كانَ عِنْدَ اللَّهِ ذنبا عَظِيماً.

إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً من أذى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو نكاح أزواجه ، أَوْ تُخْفُوهُ فى أنفسكم ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ، فيعاقبكم عليه. روى أن رجلا من الصحابة قال : لئن قبض النبي صلى اللّه عليه وسلم لأنكحنّ عائشة ، فنزلت ، فحرّمن «١». وفيه نزلت : إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً أي : من نكاح عائشة ، أَوْ تُخْفُوهُ ... إلخ. وكان – عليه الصلاة والسلام – ملك قتيبة بنت الأشعث بن قيس ، ولم يبن بها ، فتزوجها عكرمة بن أبى جهل ، بعد ذلك ، فهمّ به أبو بكر ، وشقّ عليه ، حتى قال له عمر : يا خليفة رسول اللّه ، ليست من نسائه ، ولم يخيرها ، ولم يحجبها ، وقد برأها اللّه منه بالردة ، حين ارتدت مع قومها ، فسكن أبو بكر. وقال الزهري : إن العالية بنت ظبيان ، التي طلق النبىّ صلى اللّه عليه وسلم تزوجت رجلا وولدت له قبل أن يحرم أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم «٢».

---

(١) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٤) بدون سند. وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٠٤) لابن مردويه ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) أخرجه البيهقي فى الكبرى (٧/ ٧٣) عن يونس ، عن ابن شهاب ، بلاغا.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٦

الإشارة : مذهب الصوفية تشديد الأدب مع الأشياخ ، فإذا مات الشيخ ، أو طلّق امرأة بعد الدخول ، فلا يتزوجها أحد من تلامذته أبدا ، تعظيما وأدبا مع الشيخ. وأما تزوج بنت الشيخ فلا بأس ، إن قدر على القيام بالأدب معها ، والصبر على أذاها ، وإلا فالبعد أحسن وأسلم ، واللّه تعالى أعلم.

قال القشيري : قوله تعالى إِنْ تُبْدُوا شَيْئاً .... الآية : حفظ القلب مع اللّه تعالى ، ومراعاة الأمر – بينه وبين اللّه على الصّحة فى دوام الأوقات لا يقوى عليه إلا الخواصّ ، من أهل الحضور. هـ.

ثم رخّص للأقارب أن يدخلوا على أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٥]

لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ وَلا نِسائِهِنَّ وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً (٥٥)

يقول الحق جل جلاله : لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبائِهِنَّ وَلا أَبْنائِهِنَّ وَلا إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ إِخْوانِهِنَّ وَلا أَبْناءِ أَخَواتِهِنَّ أن يدخلوا عليهن بلا حجاب. قال ابن عباس : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء

والأقارب : ونحن أيضا نكلمهن من وراء حجاب ، فنزلت : لا جُناحَ ... إلخ ، أي : لا إثم عليهن فى أن لا يحتجبن من هؤلاء. ولم يذكر العم والخال لأنهما يجريان مجرى الوالدين. وقد جاء تسمية العم أبا فى قوله تعالى : نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ .. «١» وإسماعيل عم يعقوب ، فسمّاه أبا. وذكر القاضي إسماعيل ، عن الحسن والحسين : أنهما كانا لا يريان أمهات المؤمنين. وقال ابن عباس : إن رؤيتهما لهن تحل ، أي : لأنهما ولدا البعل. قال القاضي : وأحسب أن الحسن والحسين ذهبا فى ذلك إلى أن أبناء البعولة لم يذكروا فى الآية. وقال فى سورة النور : وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلى قوله : ... أَوْ أَبْناءِ بُعُولَتِهِنَّ «٢» ، فذهب ابن عباس إلى ما فى سورة النور ، وذهب الحسن والحسين إلى ما فى هذه السورة. هـ.

---

(١) الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٢) الآية ٣١ من سورة النور.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٧

وَلا نِسائِهِنَّ أي : نساء المؤمنات ، فلا حجاب عليهن ، وَلا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ من العبيد والإماء. وقيل : من الإماء خاصة ، وأما العبيد فهم كالأجانب. وهو المشهور ، وَاتَّقِينَ اللَّهَ فيما أمرتن به من الحجاب ، وما نزل فيه الوحى من الاستتار ، واحتطن فى ذلك. ونقل الكلام فيه من الغيبة إلى الخطاب لشدة التهديد ، ولذا قال : إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً عالما يعلم خطرات القلوب وهواجسها ، فيعاتب عليها.

الإشارة : ما قيل فى أزواج النبي صلى اللّه عليه وسلم يقال فى نساء المشايخ والعلماء ، فتحتجبن من جميع الخلق ، إلا من محارمهن ، ولا يمنعهن من إدخال محارمهن عليهن إلا جامد أو جاهل ، ولا ينبغى لأحد أن يمنع زوجه من لقاء محرمها والدخول عليها إلا لفساد بيّن. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالصلاة على رسوله صلى اللّه عليه وسلم وحضّ عليها ، بعد أن أمر بتعظيمه واحترامه ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٦]

إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يعتنون بإظهار شرفه وتعظيم شأنه.

وقال صاحب المغني : الصواب عندى : أن الصلاة لغة بمعنى واحد ، وهو العطف ، ثم العطف بالنسبة إلى اللّه تعالى :

الرحمة ، وإلى الملائكة : الاستغفار ، وإلى الآدميين : دعاء. واختاره السّهيلى قبله. والمراد بالرحمة منه تعالى غايتها ، وهو إفاضة الخير والإحسان ، لا رقة القلب ، الذي هو معنى الرحمة حقيقة. يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ أي : قولوا : اللهم صلّ على محمد – أو : صلى اللّه على محمد. وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً أي : قولوا : اللهم سلّم على محمد ، أو : صلّ وسلّم على محمد ، أو : انقادوا لأمره وحكمه ، انقيادا كليا.

وعن كعب بن عجرة : قلنا : يا رسول اللّه ، أما السلام عليك ، فقد عرفناه ، فكيف الصلاة عليك؟ قال : «قولوا اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد ، كما صلّيت على ابراهيم ، إنك حميد مجيد ، اللهمّ بارك على محمد وعلى آل محمد ، كما باركت على إبراهيم ، إنك حميد مجيد» «١». ومعرفتهم السلام من التشهد. والصلاة على غير الأنبياء

---

(١) أخرجه البخاري فى (التفسير – سورة الأحزاب ، باب : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ح ٤٧٩٧).

(٤/٤٥٧)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٨

بالتبع جائزة. وأما بالاستقلال فمكروه ، وهو من شعار الروافض. هـ. قال الكواشي : روى أنه قيل يا رسول اللّه : أرأيت قول اللّه تعالى : إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ .. الآية؟ فقال : هذا من العلم المكنون ، ولو لا أنكم سألتمونى عنه ما أخبرتكم ، إن اللّه وكل بي ملكين ، فلا أذكر عند عبد مسلم ، فيصلى علىّ ، إلا قال ذانك الملكان : غفر اللّه لك.

وقال اللّه وملائكته جوابا لذينك الملكين : آمين. ولا أذكر عند عبد مسلم ، فلا يصلى علىّ إلا قال ذانك الملكان :

لا غفر اللّه لك. وقال اللّه جوابا لذينك الملكين : آمين «١». هـ.

والصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم واجبة. فمنهم من أوجبها عند ذكره كلما ذكر ، وعليه الجمهور ، وهو الاحتياط للحديث المتقدم. ولقوله صلى اللّه عليه وسلم : «من ذكرت عنده فلم يصلّ علىّ دخل النار». ومنهم من أوجبها فى كل مجلس مرة ، وإن تكرر ذكره ، كتشميت العاطس وآية السجدة. ومنهم من أوجبها مرة فى العمر. قالوا : وكذلك الخلاف فى إظهار الشهادتين ، وأما ذكرها فى الصلاة فليست شرطا عند أبى حنيفة ومالك ، خلافا للشافعى ، والاحتياط : الإكثار منها بغير حصر ، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه. واختلف هل كانت الأمم الماضية متعبدة بالصلاة على أنبيائهم. قال

القسطلاني : إنه لم ينقل إلينا ذلك ، ولا يلزم من عدم النقل عدم الوقوع. هـ.

الإشارة : اعلم أن الصلاة عليه صلى اللّه عليه وسلم سلم ومعراج الوصول إلى اللّه لأن تكثير الصلاة عليه صلى اللّه عليه وسلم توجب محبته ، ومحبته – عليه الصلاة والسلام – توجب محبة اللّه تعالى ، ومحبته تعالى للعبد تجذبه إلى حضرته ، بواسطة وبغيرها. وأيضا : الرسول صلى اللّه عليه وسلم وزير مقرب ، ومن رام دخول حضرة الملوك يخدم الوزير ، ويتقرب إليه ، حتى يدخله على الملك. فهو صلى اللّه عليه وسلم حجاب اللّه الأعظم ، وبابه الأكرم ، فمن رام الدخول من غير بابه طرد وأبعد ، وفى ذلك يقول ابن وفا :

وأنت باب اللّه ، أىّ امرئ وفاه من غيرك لا يدخل.

وقال الشيخ الجزولى رضي اللّه عنه فى دلائل الخيرات : وهى من أهم المهمات لمن يريد القرب من رب الأرباب.

وقال شارحه : ووجه أهميتها من وجوه ، منها : ما فيها من التوسل إلى اللّه سبحانه بحبيبه ومصطفاه. وقد قال تعالى : وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ «٢» ، ولا وسيلة إليه أقرب ، ولا أعظم ، من رسوله الأكرم صلى اللّه عليه وسلم.

---

(١) قال الهيثمي فى المجمع (٧/ ٩٣) : رواه الطبراني ، وفيه الحكم بن عبد اللّه بن خطاف ، وهو كذّاب.

(٢) من الآية ٣٥ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٥٩

ومنها : أن اللّه تعالى أمر بها ، وحضّنا عليها ، تشريفا له وتكريما ، وتفضيلا لجلاله ، ووعد من استعملها حسن المآب ، وجزيل الثواب ، فهى من أنجح الأعمال ، وأرجح الأقوال ، وأزكى الأحوال ، وأحظى القربات ، وأعم البركات.

وبها يتوصل إلى رضا الرحمن ، وتنال السعادة والرضوان ، وتجاب الدعوات ، ويرتقى إلى أرفع الدرجات. وأوحى اللّه تعالى إلى موسى عليه السّلام : يا موسى أتريد أن أكون أقرب إليك من كلامك إلى لسانك ، ومن وسواس قلبك إلى قلبك ، ومن روحك إلى بدنك ، ومن نور بصرك إلى عينيك؟ قال : نعم يا رب ، قال : فأكثر من الصلاة على محمد صلى اللّه عليه وسلم.

ومنها : أنه صلى اللّه عليه وسلم محبوب للّه عز وجل ، عظيم القدر عنده ، وقد صلّى عليه هو

وملائكته ، فوجبت محبة المحبوب ، والتقرب إلى اللّه تعالى بمحبته ، وتعظيمه ، والاشتغال بحقه ، والصلاة عليه ، والاقتداء بصلاته ، وصلاة ملائكته عليه. قلت : وهذا التشريف أتم وأعظم من تشريف آدم عليه السّلام ، بأمر الملائكة بالسجود له لأنه لا يجوز أن يكون اللّه مع الملائكة فى ذلك التشريف. فتشريف يصدر عنه مع ملائكة أبلغ من تشريف تختص به الملائكة.

ومنها : ما ورد فى فضلها ، ووعد عليها من جزيل الأجر وعظيم القدر ، وفوز مستعملها برضا اللّه ، وقضاء حوائج آخرته ودنياه.

ومنها : ما فيها من شكر الواسطة فى نعم اللّه علينا المأمور ، بشكره ، وما من نعمة للّه علينا ، سابقة ولا لاحقة من نعمة الإيجاد والإمداد ، فى الدنيا والآخرة ، إلا وهو السبب فى وصولها إلينا ، وإجرائها علينا ، فوجب حقه علينا ، ووجب علينا فى شكر نعمته ألا نفتر عن الصلاة عليه ، مع دخول كل نفس وخروجه.

ومنها : ما فيها من القيام برسم العبودية ، بالرجوع لما يقتضى الأصل نفيه ، فهو أبلغ فى الامتثال ، ومن أجل ذلك كانت فضيلة الصلاة على النبي صلى اللّه عليه وسلم على كل عمل. والذي يقتضى الأصل نفيه ، هو كون العبد يتقرب إلى اللّه بالاشتغال بحق غيره لأن قولنا «اللهم صلّ على محمد» هو الاشتغال بحق محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وأصل التعبدات : ألا يتقرب إلى اللّه تعالى إلا بالاشتغال بحقه. ولكن لمّا كان الاشتغال بالصلاة على محمد بإذن من اللّه تعالى ، كان الاشتغال بها أبلغ فى امتثال الأمر ، فهى بمثابة أمر اللّه تعالى للملائكة بالسجود لآدم ، فكان شرفهم فى امتثال أمر اللّه ، وإهانة إبليس فى مخالفة أمره سبحانه.

ومنها : ما جرب من تأثيرها ، والنفع بها فى التنوير ورفع الهمة ، حتى قيل : إنها تكفى عن الشيخ فى الطريق ، وتقوم مقامه ، حسبما نقله الشيخ السنوسى ، والشيخ زروق ، وغيرهما.

(٤٥٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٠

ومنها : ما فيها من سير الاعتدال ، الجامع لكمال العبد وتكميله ، ففى الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ذكر اللّه ورسوله ، ولا كذلك عكسه ، فلذلك كانت المثابرة على الأذكار والدوام عليها يحصل به الانحراف ، وتكسب نورانية تحرق الأوصاف ، وتثير وهجا وحرارة فى الطباع ، والصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تذهب وهج الطّباع ، وتقوى النفوس لأنها كالماء البارد ، فكانت تقوم مقام شيخ التربية. انتهى كلامه.

قلت : والحق الذي لا غبار عليه : أن الصلاة عليه صلى اللّه عليه وسلم ، والإكثار منها ، تدلّ صاحبها

على من يأخذ بيده ، وتوصله إلى شيخ التربية ، الذي هو خليفة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إن كان صادق الطلب ، وأما كونها تقوم مقام الشيخ فى دخول مقام الفناء والبقاء ، حتى تعتدل حقيقته وشريعته فلا إذ لا تنقطع رعونات النفوس إلا بآمر وناه من غيره ، يكون عالما بدسائس النفوس وخدعها ، وغاية ما توصل إليه الصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم – إن لم يظفر بالشيخ – الفناء فى الصفات ، وينال مقام الصلاح الأكبر ، ويظهر له كرامات وخوارق ، ويكون من أرباب الأحوال ، وإن وصل إلى مقام الفناء تكون شريعته أكبر من حقيقته.

هذا ما ذقناه ، وشهدناه ، وسمعناه من أشياخنا ، والطريق التي أدركناهم يستعملونها ، وأخذناها منهم ، أنهم يأمرون المريد إن رأوه أهلا للتربية أن يلتزم الاسم المفرد ، ويفنى فيه ، حتى تنهدم به عوالمه ، فإذا تحقق فناؤه وغاب عن نفسه ورسمه ، ردوه إلى مقام البقاء ، وحينئذ يأمرونه بالصلاة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، لتكون صلاته عليه كاملة ، يصلى على روحه وسره بلا حجاب ، ويشاهده فى كل ساعة كما يشاهدونه. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر أهل الغفلة والبعد ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٥٧ الى ٥٨]

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً (٥٨)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ بارتكابهم ما يكرهانه من الكفر والمعاصي والبدع. وقال ابن عباس : هم اليهود والنصارى والمشركون. فقالت اليهود : يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ «١» ، إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ «٢»

---

(١) كما ذكرت الآية ٦٤ من سورة المائدة.

(٢) كما ذكرت الآية ١٨١ من سورة آل عمران

وقالت النصارى : الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ «١» ، إِنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلاثَةٍ «٢». وقال المشركون : الملائكة بنات اللّه ، والأصنام شركاؤه. وقيل : يؤذونه : يلحدون فى أسمائه وصفاته. ويؤذون رسول اللّه ، حين شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وقيل له : هو ساحر وشاعر ومجنون. أو : بترك سنّته ومخالفة شريعته. ويحتمل أن يكون المراد يؤذون رسول اللّه فقط بالتنقيص ، أو بالتعرض لنسائه. وذكر اسم اللّه

للتشريف. لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ أي : أبعدهم من رحمته فى الدارين وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً يهينهم ويخزيهم فى النار.

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا بغير جناية يستحقون بها الإيذاء ، فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتاناً كذبا وَإِثْماً مُبِيناً ظاهرا ، وإنما أطلق فى إيذاء اللّه ورسوله ، وقيّد إيذاء المؤمنين والمؤمنات لأن إيذاء اللّه ورسوله لا يكون إلا بغير حق ، وأما إيذاء المؤمنين فمنه ما يكون بحق ، كالحدّ والتعزير ، ومنه باطل. وقيل :

نزلت فى ناس من المنافقين ، كانوا يؤذون عليّا رضي اللّه عنه ، ويسمعونه ، وقيل : فى زناة المدينة ، كانوا يمشون فى طرق المدينة ، ويتبعون النساء إذا تبرزن بالليل لقضاء حوائجهن ، فيغمزون المرأة ، فإن سكتت اتبعوها ، وإن زجرتهم انتهوا «٣». وعن الفضيل : لا يحلّ أن تؤذى كلبا أو خنزيرا بغير حق ، فكيف بالمؤمنين؟. هـ.

الإشارة : إذاية اللّه ورسوله هى إذاية أوليائه ، ونقله الثعلبي عن أهل المعاني ، فقال : فأراد اللّه تعالى المبالغة فى النهى عن أذى أوليائه ، فجعل أذاهم أذاه. هـ. ويؤيده الحديث القدسي : «من آذى لى وليّا فقد بارزني بالمحاربة» «٤» ، أو كما سبحانه. وإذاية المؤمنين كثيرة ، تكون باللسان وبغيره ، وقد قالوا : البر لا يؤذى الذر. ومن أركان التصوف : كف الأذى ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، ورمى الدنيا بالقفا. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بتمييز الحرائر من الإماء فى اللباس ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : آية ٥٩]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٥٩)

---

(١) كما ذكرت الآية ٣٠ من سورة التوبة.

(٢) كما ذكرت الآية ٧٣ من سورة المائدة.

(٣) ذكره الواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٧) والبغوي فى التفسير (٦/ ٣٧٦) عن الضحاك ، والسدى ، والكلبي.

(٤) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب : التواضع ، ح ٦٥٠٢). من حديث أبى هريرة بلفظ : «من عادى لى وليّا فقد آذنته بالحرب ..»

الحديث وأخرجه الإمام أحمد فى المسند (٦/ ٢٥٦) من حديث السيدة عائشة – رضى اللّه عنها – بلفظ : «من أذل لى وليّا فقد استحل محاربتى ...» الحديث.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٢

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وَبَناتِكَ وَنِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ أي : يرخين على وجوههنّ من جلابيبهن فيغطين بها وجوههن. والجلباب : كل ما يستر الكل ، مثل الملحفة ، والمعنى : قل للحرائر يرخين أرديتهن وملاحفهن ويغطين بها وجوههن ورؤوسهن ، ليعلم أنهن حرائر فلا يؤذين. وذلِكَ أَدْنى أي : أقرب وأجدر ، أَنْ يُعْرَفْنَ من الإماء فَلا يُؤْذَيْنَ ، وذلك أن النساء فى أول الإسلام كن على زيهنّ فى الجاهلية متبذّلات ، تبرز المرأة فى درج وخمار ، لا فصل بين الحرّة والأمة. وكان الفتيان يتعرّضون للإماء ، إذا خرجن بالليل لقضاء حاجتهنّ فى النخيل والغيضات «١» ، وكن يخرجن مختلطات مع الحرائر ، فربما تعرضوا للحرّة ، يحسبونها أمة ، فأمرن أن يخالفن بزيهنّ عن زى الإماء بلباس الجلابيب ، وستر الرؤوس والوجوه ، فلا يطمع فيهنّ طامع.

قال ابن عباس رضي اللّه عنه : أمر اللّه تعالى نساء المؤمنين أن يغطين رؤوسهن ووجوههن بالجلابيب ، ويبدين عينا واحدة. قلت : وقد مرّ فى سورة النور «٢» أن الوجه والكفين ليس بعورة ، إلا لخوف الفتنة ، وأما الإماء فلا تسترن شيئا إلا ما بين السرة والركبة ، كالرجل. قال أنس : مرت جارية متقنعة بعمر بن الخطاب فعلاها بالدرة ، وقال :

يا لكاع أنت تشبهين بالحرائر ، فألق القناع. وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً لما سلف منهن من التفريط ، رَحِيماً بتعليمهن آداب المكارم.

الإشارة : ينبغى لنساء الخواص أن يتميزن من نساء العامة بزيادة الصّون والتحفظ ، وقلة الخروج ، فإذا لزمهنّ الخروج ، فليخرجن فى لباس خشين ، بحيث لا يعرفن ، أو يخرجن ليلا. وثبت أن زوجة الشيخ أبى الحسن الشاذلى رضي اللّه عنه لم تخرج من دارها إلا خرجتن خرجة حين زفت إلى زوجها ، وخرجة إلى المقابر. نفعنا اللّه ببركاتهم. آمين.

ثم هدد المنافقين ، حيث كانوا [يؤذوان] «٣» رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٠ الى ٦٢]

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)

---

(١) الغيضة : هى الشجر الملتف ، وجمعه : غياض وغيضات. انظر اللسان (غيض ٥/ ٣٣٢٧).

[.....]

(٢) راجع تفسير الآية ٣١ من سورة النور.

(٣) فى الأصول الخطية [يؤذوا] ..

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٣

قلت : (لنغرينك) : جواب القسم المغني عن جواب الشرط. و(ثم لا يجاورنك) : عطف عليه لأنه يصح أن يجاب به القسم لصحة قولك : لئن لم ينتهوا لا يجاورنك ، ولمّا كان الجلاء عن الوطن أعظم من جميع ما أصيبوا به عطف بثم ، لبعد حاله عن حال المعطوف عليه. و(ملعونين) : نصب على الشتم أو الحال ، والاستثناء دخل على الظرف والحال معا ، أي : لا يجاورنك إلا قليلا فى اللعنة والبعد ، ولا يصح نصبه بأخذوا لأن ما بعد حرف الشرط لا يعمل فيما قبله.

يقول الحق جل جلاله : لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ عن نفاقهم وإيذائهم ، وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فجور ، وهم الزناة من قوله : «فيطمع الذي فى قلبه مرض». وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ ، وهم أناس كانوا يرجفون بأخبار السوء فى المدينة ، من سرايا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فيقولون : هزموا وقتلوا ، وجرى عليهم كيت وكيت ، فيكسرون بذلك قلوب المؤمنين. يقال : رجف بكذا : إذا أخبر به على غير حقيقته لكونه خبرا مزلزلا غير ثابت ، من :

الرجفة ، وهى الزلزلة ، لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ : لنأمرنك بقتالهم وإجلائهم ، أو ما يضطرهم إلى طلب الجلاء ، أو :

لنسلطنك عليهم ، ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها فى المدينة إِلَّا زمنا قَلِيلًا.

والمعنى : لئن لم ينته المنافقون عن عداوتهم وكيدهم ، والفسقة عن فجورهم ، والمرجفون عما يلقون من أخبار السوء ، لنأمرنك بأن تفعل بهم الأفاعيل التي تسوءهم ، بأن تضطرهم إلى طلب الجلاء من المدينة ، وألّا يساكنوك فيها إلّا زمنا قليلا ، ريثما يرتحلون. فسمّى ذلك إغراء ، وهو التحريش ، على سبيل المجاز. حال كونهم مَلْعُونِينَ أي : لا يجاورونك إلا ملعونين ، مبعدين عن الرحمة أَيْنَما ثُقِفُوا وجدوا ، أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ، والتشديد للتكثير.

سُنَّةَ اللَّهِ أي : سنّ اللّه ذلك سنّة فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ فى المنافقين الذين كانوا ينافقون الأنبياء من قبل ، ويسعون فى وهنهم بالإرجاف ونحوه أن يقتّلوا أينما وجدوا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا أي : لا يبدل اللّه سنّته ولا يقدر أحد أن يبدلها ، بل يجريها مجرى واحدا فى الأمم كلهم.

قال ابن جزى : تضمنت الآية وعيد هؤلاء الأصناف إن لم ينتهوا ، ولم ينفذ الوعيد فيهم. ففى ذلك دليل على بطلان القول بوجوب إنفاذ الوعيد فى الآخرة. وقيل : إنهم انتهوا وستروا أمرهم فكف عنهم إنفاء الوعيد. هـ.

الإشارة : منافقو الصوفية هم الذين ينتسبون إلى الصوفية ، ويدّعون محبة القوم ، وهم يعترضون على

الفقراء ، ويرفعون الميزان عليهم ، وهم الذين فى قلوبهم مرض ، أي : حيرة وضيق من غم الحجاب إذ لو ارتفع عنهم

(٤٦٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٤

الحجاب لم يعترضوا على أحد ، وهم المرجفون بأهل النسبة ، إذا سمعوا شيئا يسوؤهم أفشوه ، وأظهروا الفرح. لئن لم ينتهوا عن ذلك ليسلطن اللّه عليهم من يخرجهم من النسبة بالكلية ، ثم لا يبقون فيها إلا قليلا ، ممقوتين عند أهل التحقيق ، أينما وجدوا ، أخذوا بالفعل أو بالقول فيهم. وقد ألّف بعض الفقهاء تأليفا فى الرد على الفقراء ، فسلط اللّه عليه من أهانه ، ووسمه بالبلادة والجمود ، ولا زال مهانا أينما ذكر ، والعياذ باللّه.

ولما ذكر حال المنافقين ، ذكر حال المشركين ، لاشتراكهم فى الكفر ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٣ الى ٦٨]

يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً (٦٣) إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً (٦٤) خالِدِينَ فِيها أَبَداً لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا (٦٦) وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا (٦٧)

رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً (٦٨)

يقول الحق جل جلاله : يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ، كان المشركون يسألون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن وقت الساعة ، استعجالا واستهزاء ، واليهود يسألون امتحانا لأن اللّه تعالى أخفى وقتها فى التوراة وفى كل كتاب ، فأمر رسوله صلى اللّه عليه وسلم أن يجيبهم بأنه علم قد استأثر اللّه به ، ثم بيّن لرسوله عليه الصلاة والسلام – أنها قريبة الوقوع ، تهديدا للمستعجلين ، وإسكاتا للممتحنين فقال : قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ اللَّهِ ، لم يطلع عليها ملكا ولا نبيا.

وَما يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً أي : شيئا قريبا ، أو : فى زمان قريب ، فتنصب على الظرفية ، ويجوز أن يكون التذكير لأن الساعة فى معنى اليوم أو الزمان.

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكافِرِينَ أبعدهم عن رحمته ، وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً نارا شديدة التسعير ، أي : الإيقاد ، خالِدِينَ فِيها أَبَداً ، وهذا يرد مذهب الجهمية فى زعمهم أن النار تفنى ، و(خالدين) : حال مقدرة من ضمير «لهم». لا يَجِدُونَ وَلِيًّا يحفظهم ، وَلا نَصِيراً يمنعهم ويدفع العذاب عنهم ، وذلك يَوْمَ تُقَلَّبُ أو : واذكر يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ تطوف من جهة إلى جهة ، كما ترى البضعة «١» من اللحم تدور

(١) البضعة : القطعة. انظر اللسان (بضع ، ١/ ٢٩٦).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٥

فى القدر إذا غلت. وخصّت الوجوه لأنها أكرم موضع على الإنسان من جسده. أو : يكون الوجه كناية عن الجملة.

حال كونهم يَقُولُونَ يا لَيْتَنا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا فى الدنيا ، فنتخلص من هذا العذاب ، فندّموا حيث لم ينفع الندم.

وَقالُوا رَبَّنا إِنَّا أَطَعْنا سادَتَنا وَكُبَراءَنا ، والمراد : رؤساء الكفر ، الذين لقنوهم الكفر ، وزيّنوه لهم. وقرأ ابن عامر ويعقوب «ساداتنا» بالجمع ، جمع : سادة ، وسادة : جمع سيد ، فهو جمع الجمع ، فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا أي :

أتلفونا عن طريق الرشد. يقال : ضلّ السبيل وأضله إياه ، وزيادة الألف للإطلاق. رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذابِ أي : مثلى ما آتيتنا منه للضلال والإضلال ، وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً «١» كثير العدد ، تكثيرا لأعداد اللاعنين ، أو : العنهم المرة بعد المرة. وقرأ عاصم بالباء ، أي : لعنا هو أشد اللعن وأعظمه. وهو يدلّ على تعدد الأجزاء والأفراد.

الإشارة : مذهب العباد والزهاد والصالحين : جعل الساعة نصب أعينهم ، لا يغيبون عنها ، فهم يجتهدون فى التأهب لها ليلا ونهارا. ومذهب العارفين الموحّدين : الغيبة عنها ، بالاستغراق فى شهود الحق ، فلا يشغلهم الحق ، دنيا ولا آخرة ، ولا جنة ولا نار لما دخلوا جنة المعارف ، غابوا عن كل شىء ، فانخلعوا عن الكونين بشهود المكوّن ، وجعلوا الوجود وجودا واحدا إذ المتجلى هنا وثم واحد. وإذا كان كبراء الضلال يضاعف عذابهم ، وكان كبراء الهداية يضاعف ثوابهم ، يأخذون ثواب الاهتداء والإرشاد ، فمن دلّ على هدى كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة ، ومن اهتدى على يديه أحد جرى عليه أجره ، وكان فى ميزانه كل من تبعه كذلك ، وفى ذلك يقول القائل :

والمرء فى ميزانه اتباعه فاقدر إذن قدر النبىّ محمد «٢»

ثم رجع إلى النهى عن إذاية الرسول ، فقال :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٦٩ الى ٧١]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً (٦٩) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ

وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١)

---

(١) قرأ عاصم «كبيرا» بالباء ، وقرأ الباقون «كثيرا» بالتاء ، من الكثرة. انظر الإتحاف (٢/ ٣٧٨).
(٢) انظر ديوان البوصيرى (ص ١٢٢) ، وفيه :
والمرء فى ميراثه أتباعه فاقدر إذن فضل النبي محمد

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٦
يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسى من بنى إسرائيل فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا. وذلك أن بنى إسرائيل كانوا يغتسلون عرايا ، ينظر بعضهم إلى بعض ، وكان موسى عليه السّلام يستتر لشدة حيائه ، فقالوا : ما يمنع موسى من الاغتسال معنا إلا أنه آدر – والأدرة : انتفاخ الأنثيين – أو : به عيب من برص أو غيره ، فذهب يغتسل وحده ، فوضع ثوبه على حجر ، ففرّ الحجر بثوبه ، فلجّ فى أثره يقول : ثوبى حجر ، ثوبى حجر! حتى نظروا إلى سوأته ، فقالوا : واللّه ما بموسى من بأس ، فقام الحجر من بعد ما نظروا إليه ، وأخذ ثوبه ، فطفق بالحجر ضربا ، ثلاثا أو أربعا «١».
وقيل : كان أذاهم : ادعاءهم عليه قتل أخيه. قال علىّ رضي اللّه عنه : صعد موسى وهارون الجبل ، فمات هارون ، فقالت بنو إسرائيل : أنت قتلته. وكان أشدّ لنا حبا ، وألين منك ، فآذوه بذلك ، فأمر تعالى الملائكة فحملته ، حتى مرت به على بنى إسرائيل ، وتكلمت الملائكة بمماته ، حتى تحققت بنو إسرائيل أنه قد مات ، فبّرأ اللّه موسى من ذلك ، ثم دفنوه. فلم يطلع على قبره إلا الرّخم «٢» من الطير ، وإن اللّه جعله أصم أبكم «٣» ، وقيل : إنه على سرير فى كهف الجبل. وقيل : إن قارون استأجر امرأة مومسة ، لتقذف موسى بنفسها على رأس الملأ ، فعصمها اللّه ، وبرأ موسى ، وأهلك قارون «٤». وقد تقدم.
وَكانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً ذا جاه ومنزلة رفيعة ، مستجاب الدعوة. وقرأ ابن مسعود والأعمش «وكان عبدا للّه وجيها».
يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ فى ارتكاب ما يكرهه ، فضلا عما يؤذى رسوله ، وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً صدقا وصوابا ، أو : قاصدا إلى الحق. والسداد : القصد إلى الحق والقول بالعدل. والمراد : نهيهم عما خاضوا فيه من حديث زينب من غير قصد وعدل فى القول. والحث على أن يسددوا قولهم فى كل باب لأن حفظ اللسان ، وسداد القول رأس كل خير ، ولذلك قال : يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ أي : يوفقكم لصالح الأعمال ، أو : يقبل طاعتكم ، ويثيبكم عليها ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ أي : يمحها.

(١) أخرجه البخاري فى (الأنبياء – باب ٢٨ ح ٣٤٠٤) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.
(٢) الرّخم : نوع من الطير معروف ، واحدته : «رخمة» ، وهو موصوف بالغدر ، وقيل بالقذر. انظر النهاية (٢/ ٢١٢).
(٣) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ٥٢) والحاكم وصححه () ، وانظر الدر المنثور (٥/ ٤١٩).
(٤) ذكره البغوي فى التفسير (٦/ ٣٧٩) عن أبى العالية.

والمعنى : راقبوا اللّه فى حفظ ألسنتكم ، وتسديد قولكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك أعطاكم ما هو غاية الطلبة من تقبل حسناتكم ، ومن مغفرة سيئاتكم. وهذه الآية مقررة للتى قبلها ، فدلت تلك على النهى عما يؤذى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وهذه على الأمر باتقاء اللّه فى حفظ اللسان ، ليترادف عليها النهى والأمر ، مع اتباع النهى ما يتضمن الوعيد من قصة موسى عليه السّلام ، واتباع الأمر الوعد البليغ بتقوى اللّه الصارف عن الأذى والداعي إلى تركه.

ثم وعدهم بالفوز العظيم بقوله : وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فى الأوامر والنواهي فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً ، يعيش فى الدنيا حميدا ، وفى الآخرة سعيدا. جعلنا اللّه منهم ، آمين.

الإشارة : فى الآية تسلية لمن أوذى من الأولياء بالتأسى بالأنبياء. روى أن موسى عليه السّلام قال : يا رب احبس علىّ ألسنة الناس ، فقال له : هذا شىء لم أصنعه لنفسى ، فكيف أفعله بك. وأوحى تبارك وتعالى إلى عزير : إن لم تطب نفسا بأن أجعلك علكا فى أفواه الماضغين ، لم أثبتك عندى من المتواضعين. هـ.

واعلم أن تعظيم الرسول صلى اللّه عليه وسلم هو سبب السعادة والفوز الكبير ، وتعظيم أولياء اللّه وخدمتهم هو سبب الوصول إلى اللّه العلى الكبير ، وتقوى اللّه أساس الطريق ، وحفظ اللسان وتحرى القول السديد هو سبب الوصول إلى عين التحقيق.

قال الشيخ زروق رضي اللّه عنه فى بعض وصاياه – بعد كلام – : ولكن قد تصعب التقوى على النفس لاتساع أمرها ، فتوجّه لترك العظائم والقواعد المقدر عليها ، تعن على ما بعدها ، وأعظم ذلك معصية : الغيبة قولا وسماعا ، فإنها خفيفة على النفوس لإلفها ، مستسهلة لاعتيادها ، مع أنها صاعقة الدين ، وآفة المذنبين ، من اتقاها أفلح فى بقية أمره ، ومن وقع فيها خسر فيما وراءها. قال اللّه تعالى : يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ... الآية ، فجعل

صلاح العمل متوقفا على سداد القول ، وكذلك ورد : أن الجوارح تصبح تشتكى اللسان ، وتقول : اتق اللّه فينا ، فإنك إن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا. فلا تهمل يا أخى لسانك ، وخصوصا فى هذه الخصلة ، فتورع فيها أكثر ما تورع فى مأكلك ومشربك ، فإذا فعلت طابت حياتك ، وكفيت الشواغب ، ظاهرا وباطنا. هـ.

فإذا تحققت بالتقوى ، وحصّنت لسانك بالقول السديد ، كنت أهلا لحمل الأمانة ، كما قال تعالى :

[سورة الأحزاب (٣٣) : الآيات ٧٢ الى ٧٣]

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (٣٧)

(٤٦٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٦٨

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبالِ ، الأمانة هنا هى التوحيد فى الباطن ، والقيام بوظائف الدين فى الظاهر ، من الأوامر والنواهي ، فالإيمان أمانة الباطن ، والشريعة بأنواعها كلها أمانة الظاهر ، فمن قام بهاتين الخصلتين كان أمينا ، وإلا كان خائنا. والمعنى : إنا عرضنا هذه الأمانة على هذه الأجرام العظام ، ولها الثواب العظيم ، إن أحسنت القيام بها ، والعقاب الأليم إن خانت ، فأبت وأشفقت واستعفت منها ، مخافة ألا تقدر عليها ، فطلبت السلامة ، ولا ثواب ولا عقاب. وهذا معنى قوله : فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها. فيحتمل أن يكون الإباء بإدراك ، خلقه اللّه فيها ، وقيل : أحياها وأعقلها ، كقوله : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً «١». ويحتمل أن يكون هذا العرض على أهلها من الملائكة والجن.

وقال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : وقد يقال : الأمانة هى ما أخذ عليهم من عهد التوحيد فى الغيب بعد الإشهاد لربوبيته ، وينظر لذلك قوله : «لن يسعنى أرضى ولا سمائى ووسعني قلب عبدى المؤمن».

وأما حملها على التكاليف فلا يختص بالآدمى لأن الجن أيضا مكلف ، ومناسبة الآية لما قبلها : أن الوفاء بها من جملة التقوى المأمور بها. هـ.

وقيل : لم يقع عرض حقيقة ، وإنما المقصود : تعظيم شأن الطاعة ، وسماها أمانة من حيث إنها واجبة الأداء.

والمعنى : أنها لعظمة شأنها لو عرضت على هذه الأجرام العظام ، وكانت ذا شعور وإدراك ، لأبين أن

يحملنها ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان ، مع ضعف بنيته ، ورخاوة قوته ، لا جرم ، فإن الراعي لها ، والقائم بحقوقها ، بخير الدارين. هـ. قاله البيضاوي. والمراد بالإباية : الاستعفاء ، لا الاستكبار ، أي : أشفقن منها فعفا عنهن وأعفاهن.

وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ أي : آدم. قيل : فما تم له يوم من تحملها حتى وقع فى أمر الشجرة ، وقيل : جنس الإنسان ، وهذا يناسب حمل الأمانة على العهد الذي أخذ على الأرواح فى عالم الغيب. إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا حيث تعرض لهذا الخطر الكبير ، ثم إن قام بها ورعاها حق رعايتها خرج من الظلم والجهل ، وكان صالحا أمينا

---

(١) الآية ١١ من سورة فصلت.

عدولا ، وإن خانها ولم يقم بها ، كان ظلوما جهولا ، كلّ على قدر خيانته وظلمه ، فالكفار خانوا أصل الأمانة ، وهى الإيمان فكفروا ، ومن دونهم خانوا بارتكاب المناهي أو ترك الطاعة ، فبعضهم أشد ، وبعضهم أهون ، وكل واحد عقوبته على قدر خيانته.

ثم علل عرضها ، وهو : لتقوم الحجة على عباده ، فقال : لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ حيث لم يقوموا بها ، وخانوا فيها ، فتقوم الحجة عليهم ، ولا يظلم ربك أحدا. وقال أبو حيان : اللام للصيرورة والعاقبة. وقال أبو البقاء : اللام متعلق بحملها ، وحينئذ تكون للعاقبة قطعا.

وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ ، حيث حملوا الأمانة ، إلا أن العبد لا يخلو من تفريط ، قال تعالى : كَلَّا لَمَّا يَقْضِ ما أَمَرَهُ «١» وقال :

وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ «٢» ولذلك قال : وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ، فالغفران لمن لحقه تفريط وتقصير ، والرحمة لمن اجتهد قدر طاقته ، كالأولياء وكبار الصالحين.

والحاصل : أن العذاب لمن تحملها أولا ، ولم يقم بحقها ثانيا. والغفران لمن تحملها وقام بحقها ، والرحمة لمن تحملها ورعاها حق رعايتها. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : الأمانة التي عرضها اللّه على السموات والأرض والجبال هى شهود أسرار الربوبية فى الباطن ، والقيام بآداب العبودية فى الظاهر ، أو تقول : هى إشراق أسرار الحقائق فى الباطن ، والقيام بالشرائع فى الظاهر ، مع الاعتدال ، بحيث لا تغلب الحقائق على الشرائع ، ولا الشرائع على الحقائق ، فلا يغلب السكر على الصحو ، ولا الصحو على السكر. وهذا السر خاص بالآدمى لأنه اجتمع فيه

الضدان اللطافة والكثافة ، النور والظلمة ، المعنى والحس ، القدرة والحكمة ، فهو سماوى أرضى ، روحانى بشرى ، معنوى وحسى. ولذلك خصه اللّه تعالى من بين سائر الأكوان بقوله : خَلَقْتُ بِيَدَيَّ «٣» أي : بيد القدرة والحكمة ، فكان جامعا للضدين ، ملكيا ملكوتيا ، حسه حكمة ، ومعناه قدرة. وليست هذه المزية لغيره من الكائنات ، فالملائكة والجن معناهم غالب على حسهم ، فإذا أشرقت عليهم أنوار الحقائق غلب عليهم السكر والهيمان ، والحيوانات والجمادات حسهم غالب على معناهم ، فلا يظهر عليهم شيء من الأنوار والأسرار.

---

(١) الآية ٢٣ من سورة عبس.

(٢) الآية ٦٧ من سورة الزمر.

(٣) من الآية ٧٥ من سورة (ص).

وهذا السر الذي خص به الآدمي هو كامن فيه ، من حيث هو ، كان كافرا أو مؤمنا ، كما كمن الزبد فى اللبن ، فلا يظهر إلا بعد الترييب والضرب والمخض ، وإلا بقي فيه كامنا ، وكذلك الإنسان ، السر فيه كامن ، وهو نور الولاية الكبرى ، فإذا آمن ووحد اللّه تعالى ، واهتز بذكر اللّه ، وضرب قلبه باسم الجلالة ، ظهر سره ، إن وجد شيخا يخرجه من سجن نفسه وأسر هواه.

وله مثال آخر ، وهو أن كمون السر فيه ككمون الحب فى الغصون قبل ظهوره ، فإذا نزل المطر ، وضربت الرياح أغصان الأشجار ، أزهرت الأغصان وأثمرت ، وإليه أشار فى المباحث الأصلية ، حيث قال :

وهى من النفوس فى كمون كما يكون الحب فى الغصون
حتى إذا أرعدت الرعود وانسكب الماء ولان العود
وجال فى أغصانها الرياح فعندها يرتقب اللقاح

ثم قال :

فهذه فواكه المعارف لم تشر بالتالد أو بالطارف «١»
ما نالها ذو العين والفلوس وإنما تباع بالنفوس

فلا يظهر هذا السر الكامن فى الإنسان إلا بعد إرعاد الرعود فيه ، وهى المجاهدة والمكابدة ، وقتل النفوس ، بخرق عوائدها ، وبعد نزول أمطار النفخات الإلهية ، والخمرة الأزلية ، على يد الأشياخ ،

الذين أهّلهم اللّه لسقى هذا الماء ، وتجول فى أغصان عوالمه رياح الواردات ، وينحط مع أهل الفن ، حتى يسرى فيه أنوارهم ، ويتأدب بآدابهم ، فحينئذ ينتظر لقاح السر فيه ، ويجنى ثمار معارفه ، وإلا بقي السر أبدا كامنا فيه. وباللّه التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق. وصلى اللّه على سيدنا محمد وآله.

---

(١) التالد : المال القديم الأصلى ، الذي ولد عندك ، وطال فى ملكك. انظر اللسان (تلد ، ١/ ٤٣٩) والطارف والطريف : الحادث من المال ، أي : الذي تجدد ملكه ، وهو ضد التالد. انظر (طرف ، ٤/ ٢٦٥٧) وانظر شرح الأبيات فى الفتوحات الإلهية (١١٧ - ١٢٦). [.....]

سورة سبإ

مكية ، إلا قوله : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ .. الآية «١» ، فاختلف فيه ، مكى أو مدنى؟ وهى خمس وخمسون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالْأَرْضِ «٢» مع قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ ، وكأنه يشير إلى أنه تعالى غنى عمن حمل الأمانة ، ومن لم يحملها ، فمن حملها فلنفسه ، ومن تركها فعليها ، وإن اللّه لغنى عن العالمين ، ولذلك افتتح بالثناء عليه ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١ الى ٢]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ ما يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَما يَخْرُجُ مِنْها وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ وَما يَعْرُجُ فِيها وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢)

يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، إن أجرى على المعهود فهو بما حمد به نفسه محمود ، وإن أجرى على الاستغراق فله لكل المحامد الاستحقاق. واللام فى (لله) للتمليك لأنه خالق ناطق الحمد أصلا ، فكان بملكه مالك للحمد ، وللتحميد أهلا ، الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ خلقا ، وملكا ، وقهرا ، فكان حقيقا بأن يحمد سرا وجهرا ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ كما له الحمد فى الدنيا إذ النعم فى الدارين هو موليها والمنعم بها.

غير أن الحمد هنا واجب لأن الدنيا دار التكليف. وثمّ لا لأن الدار دار التعريف ، لا دار التكليف. وإنما يحمد أهل الجنة سروا بالنعيم ، وتلذذا بما نالوا من الفوز العظيم ، كقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

صَدَقَنا وَعْدَهُ .. «٣» والْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. «٤» فأشار إلى استحقاقه الحمد فى الدنيا بقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وأشار إلى استحقاقه فى الآخرة بقوله : وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ بتدبير ما فى السموات والأرض ، الْخَبِيرُ بضمير من يحمده ليوم الجزاء والعرض.

يَعْلَمُ ما يَلِجُ : ما يدخل فِي الْأَرْضِ من الأموات والدفائن ، وَما يَخْرُجُ مِنْها من النبات وجواهر المعادن ، وَما يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ من الأمطار وأنواع البركات ، وَما يَعْرُجُ يصعد فِيها من الملائكة والدعوات ، وَهُوَ الرَّحِيمُ بإنزال ما يحتاجون إليه ، الْغَفُورُ بما يجترئون عليه. قاله النسفي.

---

(١) الآية ٦ من السورة.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

(٣) من الآية ٧٤ من سورة الزمر.

(٤) من الآية ٣٤ من سورة فاطر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧٢

الإشارة : المستحق للحمد هو الذي بيده ما فى سماوات الأرواح من الكشوفات وأنواع الترقيات ، إلى ما لا نهاية له ، من عظمة الذات ، وبيده ما فى أرض النفوس من القيام بالطاعات وآداب العبودية وتحسين الحالات ، وما يلحق ذلك من المجاهدات والمكابدات ، وبيده ما يتحفهم به فى الآخرة ، من التعريفات الجمالية ، والفتوحات الربانية ، والترقي فى الكشوفات السرمدية. فله الحمد فى هذه العوالم الثلاثة إذ كلها بيده ، يخص بها من يشاء من عباده ، مع غناه عن الكل ، وإحاطته بالكل ، ورحمته للكل ، يعلم ما يلج فى أرض النفوس من الهواجس والخواطر ، وما يخرج منها من الصغائر والكبائر ، أو من الطاعة والإحسان من ذوى البصائر ، وما ينزل من سماء الملكوت من العلوم والأسرار ، وما يعرج فيها من الطاعات والأذكار ، وهو الرحيم بالتقريب والإقبال ، الغفور لمساوئ الضمائر والأفعال.

ثم ردّ على من أنكر الآخرة ، التي تقدم ذكرها ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣ الى ٥]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقالُ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلاَّ فِي كِتابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (٥)

قلت : (و لا أصغر) و(لا أكبر) : عطف على (مثقال) ، أو : مبتدأ ، وخبره : ما بعد الاستثناء.

و(ليجزى) : متعلق بقوله : (لتأتينكم) ، وتجويز ابن جزى تعلقه بيعزب بعيد لأن الإحاطة بعلمه تعالى ذاتية ، والذاتي لا يعلل ، وإنما تعلل الأفعال لجوازها ، ويصح تعلقه بما تعلق به (فى كتاب) أي : أحصى فى كتاب مبين للجزاء.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : منكر والبعث. والناطق بهذه المقالة أبو سفيان بن حرب ، ووافق عليها غيره ، وقد أسلم هو. قالوا : لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، وإنما هى أرحام تدفع ، وأرض تبلع. قبّح اللّه رأيهم ، وأخلى الأرض منهم. قُلْ لهم : بَلى ، أبطل مقالتهم الفاسدة ببلى ، التي للإضراب ، وأوجب ما بعدها ، أي : ليس الأمر إلا إتيانها ، ثم أعيد إيجابه ، مؤكدا بما هو الغاية فى التوكيد والتشديد ، وهو التوكيد باليمين باللّه عز وجل ، فقال : وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ.

(٤٧٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧٣

ولمّا كان قيام الساعة من الغيوب المستقبلية الحقية أتبعه بقوله : عالِمِ الْغَيْبِ ، وقرأ حمزة والكسائي : «علّام الغيب» ، بالمبالغة ، يعلم ما غاب فى عالم ملكه وملكوته ، لا يَعْزُبُ عَنْهُ : لا يغيب عن علمه مِثْقالُ ذَرَّةٍ : مقدار أصغر نملة فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذلِكَ أي : من مثقال ذرة وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ فى اللوح المحفوظ ، أو فى علمه القديم ، وكنّى عنه بالكتاب لأن الكتاب يحصى ما فيه.

قال الغزالي ، فى عقيدة أهل السنة : وأنه تعالى عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرض إلى أعلى السماوات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، يعلم دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذر فى جو السماء ، ويعلم السر وأخفى ، ويطّلع على هواجس الضمائر ، وحركات الخواطر ، وخفيات السرائر ، بعلم قديم أزلى ، لم يزل موصوفا به فى أزل الأزل. هـ.

ثم علل إتيان الساعة بقوله : لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ، أُولئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لما اقترفوا من العصيان ، وما قصروا فيه من مدراج الإيمان ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ لما صبروا عليه من مناهج الإحسان. وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ بالإبطال وتعويق الناس عنها ، أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ أي : لهم عذاب من أقبح العذاب مؤلم. ورفع «أليم» مكى وحفص ويعقوب ، نعت لعذاب ، وغيرهم بالجر نعت لرجز.

قال قتادة :

الرجز : سوء العذاب «١».

الإشارة : بقدر ما يربو الإيمان فى القلب يعظم الإيمان بالبعث وما بعده ، حتى يكون نصب عين المؤمن ، لا يغيب عنه ساعة ، فإذا دخل مقام العيان ، استغرق فى شهود الذات ، فغاب عن الدارين ، ولم يبق له إلا وجود واحد ، يتلون بهيئة الدنيا والآخرة. وفى الحقيقة ما ثمّ إلا واحد أحد ، الأكوان ثابتة بإثباته ، ممحوة بأحدية ذاته.

كان اللّه ولا شيء معه ، وهو الآن كما كان ، ويكون فى المآل كما هو الآن. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر ضدهم ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٦]

وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦)

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٦١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧٤

قلت : (و يرى) : مرفوع ، استئناف ، أو منصوب ، عطف على (ليجزى). و(الحق) : مفعول ثان ليرى العلمية.

والمفعول الأول : (الذي أنزل) وهو ضمير فصل.

يقول الحق جل جلاله : وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ من الصحابة ، وممن شايعهم من علماء الأمة ومن ضاهاهم ، أو علماء أهل الكتاب الذين أسلموا ، كعبد اللّه بن سلام ، وكعب الأحبار ، أي : يعلمون الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ يعنى القرآن هُوَ الْحَقَّ ، لا يرتابون فى حقيّته لما انطوى عليه من الإعجاز ، وبموافقته للكتب السالفة ، على يد من تحققت أميته. أو : ليجزى المؤمنين ، وليعلم أولو العلم عند مجيء الساعة أنه الحق ، علما لا يزاد عليه فى الإيقان ، لكونه محل العيان ، كما علموه فى الدنيا من طريق البرهان. وَيَهْدِي إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ، وهو دين اللّه ، من التوحيد ، وما يتبعه من الاستقامة.

الإشارة : أول ما يرتفع الحجاب عن العبد بينه وبين كلام سيده ، فيسمع كلامه منه ، لكن من وراء رداء الكبرياء ، وهو رداء الحس والوهم ، فيجد حلاوة الكلام ويتمتع بتلاوته ، فيلزمه الخشوع والبكاء والرقة عد تلاوته.

قال جعفر الصادق : «لقد تجلى الحق تعالى فى كلامه ولكن لا تشعرون». ثم يرتفع الحجاب بينه وبين

الحق تعالى ، فيسمع كلامه بلا واسطة ولا حجاب ، فتغيب حلاوة الكلام فى حلاوة شهود المتكلم ، فينقلب البكاء سرورا ، والقبض بسطا. وعن هذا المعنى عبّر الصدّيق عند رؤيته قوما يبكون عند التلاوة ، فقال : «كذلك كنا ولكن قست القلوب» «١» فعبر عن حال التمكن والتصلب بالقسوة لأن القلب قبل تمكن صاحبه يكون سريع التأثر للواردات ، فإذا تمكن واشتد لم يتأثر بشيء. وصراط العزيز الحميد هو طريق السلوك إلى حضرة ملك الملوك. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر مقالة أخرى للكفرة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٧ الى ٩]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩)

---

(١) راجع التعليق على إشارة الآية ٥٨ من سورة مريم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧٥

قلت : (إذا) : العامل فيه محذوف ، دلّ عيه : لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. و(ممزّق) : مصدر ، أي : تجددون إذا مزقتم كل تمزيق ، و(جديد) : فعيل بمعنى فاعل ، عند البصريين. تقول : جدّ الثوب فهو جديد ، أو بمعنى مفعول ، كقتيل ، من جد النساج الثوب : قطعه. ولا يجوز فتح (إنكم) للأم فى خبره. و(أفترى) : الهمزة للاستفهام ، وحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من منكرى البعث : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ ، يعنون محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما نكّروه – مع أنه كان مشهورا علما فى قريش ، وكان إنباؤه بالبعث شائعا عندهم – تجاهلا به وبأمره. وباب التجاهل فى البلاغة معلوم ، دال على سحرها ، يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أي : يحدثكم بأعجوبة من الأعاجيب ، إنكم تبعثون وتنشئون خلقا جديدا ، بعد أن تكونوا رفاتا وترابا ، وتمزق أجسادكم بالبلى ، كل تمزيق ، وتفرقون كل تفريق ، أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أي : أهو مفتر على اللّه كذبا فيما ينسب إليه من ذلك؟ أَمْ بِهِ جِنَّةٌ : جنون توهمه ذلك ، وتلقيه على لسانه. واستدلت المعتزلة بالآية على أن بين الصدق والكذب واسطة ، وهو كل خبر لا يكون عن بصيرة بالمخبر عنه ، وأجيب : بأن الافتراء أخص من الكذب ، لاختصاص الافتراء بالتعمد ، والكذب

أعم. وكأنه قيل : أتعمد الكذب أو لم يتعمد بل به جنون.
قال تعالى : بَلِ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذابِ وَالضَّلالِ الْبَعِيدِ أي : ليس محمد من الافتراء والجنون فى شيء ، وهو منزه عنهما ، بل هؤلاء الكفرة ، المنكرون للبعث ، واقعون فى عذاب النار ، وفيما يؤديهم إليه من الضلال البعيد عن الحق ، بحيث لا يرجى لهم الخلاص منه ، وهم لا يشعرون بذلك ، وذلك أحق بالجنون. جعل وقوعهم فى العذاب رسيلا لوقوعهم فى الضلال ، مبالغة فى استحقاقهم له ، كأنهما كائنان فى وقت واحد لأن الضلال ، لمّا كان العذاب من لوازمه ، جعلا كأنهما مقترنان. ووصف الضلال بالبعيد من الإسناد المجازى لأنّ البعيد فى صفة الضالّ إذا بعد عن الجادة.
أَفَلَمْ يَرَوْا إِلى ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَما خَلْفَهُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفاً مِنَ السَّماءِ أي : أعموا فلم ينظروا إلى السماء والأرض ، وأنهما أينما كانوا ، وحيثما ساروا ، وجدوهما أمامهم وخلفهم ، محيطتان بهم ، لا يقدرون أن ينفذوا من أقطارهما ، وأن يخرجوا عما هم فيه ، من ملكوت اللّه ، ولم يخافوا أن يخسف اللّه بهم فى الأرض ، أو يسقط عليهم كِسَفاً قطعة ، أو قطعا من السماء بتكذيبهم الآيات ، وكفرهم بما جاء به الرسول ، كما فعل بقارون وأصحاب الأيكة.
وقرأ حمزة والكسائي «يخسف» ، و«يسقط» بالياء «١» لعود الضمير على (اللّه) فى قوله : أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ ، وقرأ حفص : «كسفا» بالتحريك ، جمعا. إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً إن فى النظر إلى السماء والأرض والتفكر فيهما ،

---

(١) وكذا قوله : (يشأ). وقرأ الباقون بنون العظمة فى الثلاثة. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٢).

وما يدلان عليه من كمال قدرته تعالى لدلالة ظاهرة على البعث والإنشاء من بعد التفريق ، لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ راجع بقلبه إلى ربه ، مطيع له تعالى ، إذ المنيب لا يخلو من النظر فى آيات اللّه ، فيعتبر ، ويعلم أن من قدر على إنشاء هذه الأجرام العظام ، قادر على إحياء الأموات وبعثها ، وحسابها وعقابها.
الإشارة : يقول شيوخ التربية : بقدر ما يمزق الظاهر بالتخريب والإهمال يحيى الباطن ويعمر بنور اللّه ، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن ، فيقع الإنكار عليهم ، ويقول الجهلة : هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم فى الظاهر كل ممزق ، يجدد الايمان والإحسان فى بواطنكم ، أفترى على اللّه كذبا أم به جنة؟ بل الذي لا يؤمنون بالنشأة الآخرة – وهى حياة الروح بمعرفة اللّه – فى عذاب الحجاب والضلال ، عن معرفة العيان بعيد ، ما داموا على ذلك الاعتقاد ، ثم يهددون بما يهدد به منكر والبعث.

واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان ، احتجاجا على ما منح محمد – عليه الصلاة والسلام – من الرسالة والوحى ، ردا لقولهم : أَفْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ، ودلالة على قدرته تعالى على البعث وغيره ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٠ الى ١١]

وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلاً يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١)

قلت : (يا جبال) : بدل من (فضلا) ، أو يقدر : وقلنا. و(الطير) : عطف على محل الجبال ، ومن رفعه فعلى لفظه.

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ آتَيْنا داوُدَ مِنَّا فَضْلًا أي : مزية خصّ بها على سائر الأنبياء ، وهو ما جمع له من النبوة ، والملك ، والصوت الحسن ، وإلانة الحديد ، وتعلم صنعة الزرد ، وغير ذلك مما خص به ، أو :

فضلا على سائر الناس بما ذكر ، وقلنا : يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ رجّعى معه التسبيح. ومعنى تسبيح الجبال معه :

أن اللّه تعالى يخلق فيها تسبيحا ، فيسمع منها كما يسمع من المسبّح ، معجزة لداود عليه السّلام ، فكان إذا تخلل الجبال وسبح جاوبته الجبال بالتسبيح ، نحو ما سبّح به. وهو من التأويب ، أي : الترجيع ، وقيل : من الإياب بمعنى الرجوع ، أي : ارجعي معه بالتسبيح. وَالطَّيْرَ أي : أوبى معه ، أو : وسخرنا له الطير تؤب معه. قال وهب : فكان داود إذا نادى بالنياحة على نفسه ، من أجل زلته ، أجابته الجبال بصداها ، وعكفت الطير عليه من فوقه ، فصدى الجبال الذي يسمعه الناس منها هو من ذلك اليوم «١».

---

(١) انظر تفسير البغوي (٦/ ٣٨٨).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٧٧

قال القشيري : يقال أوحى اللّه إلى داود عليه السّلام : كانت تلك الزلة مباركة عليك ، فقال : يا رب وكيف تكون الزلة مباركة؟ فقال : كنت تجيء بأقدار المطيعين ، والآن تجيء بانكسار المذنبين ، يا داود أنين المذنبين أحب إليّ من صراخ العابدين. هـ. مختصرا. وفى هذا اللفظ من قوله : يا جِبالُ أَوِّبِي

مَعَهُ من الفخامة ما لا يخفى ، حيث جعلت الجبال بمنزلة العقلاء الذين إذا أمرهم بالطاعة أطاعوا ، وإذا دعاهم أجابوا ، إشعارا بأنه ما من حيوان وجماد إلا وهو منقاد لقدرة اللّه تعالى ومشيئته. ولو قال : آتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير لم يكن فيه هذه الفخامة.

وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أي : جعلناه له لينا ، كالطين المعجون ، يصرفه بيده كيف يشاء ، من غير نار ولا ضرب بمطرقة ، قيل : سبب لينه له : أنه لما ملك بنى إسرائيل ، وكان من عادته أن يخرج متنكرا ، ويسأل كل من لقيه : ما يقول الناس فى داود؟ فيثنون خيرا ، فلقى ملكا فى صورة آدمي ، فسأله ، فقال : نعم الرجل ، لو لا خصلة فيه : يأكل ويطعم عياله من بيت المال ، فتنبه ، وسأل اللّه تعالى أن يسبب له سببا يغنيه عن بيت المال ، فألان له الحديد مثل الشمع ، وعلمه صنعة الدروع ، وهو أول من اتخذها. وكانت قبل ذلك صفائح «١».

ويقال : كان يبيع كل درع منها بأربعة آلاف ، فيأكل ويطعم عياله ، ويتصدق على الفقراء والمساكين.

وقيل :

كان يلين له ولمن اشتغل معه له ، قلت : ذكر ابن حجر فى شرح الهمزية أن نبينا صلى اللّه عليه وسلم كان إذا وطئ على صخرة أثر فيها قدمه ، وهذا أبلغ من إلانة الحديد لأن لين الحجارة لا يعرف بنار ، ولا بغيرها ، بخلاف الحديد. هـ. وقيل :

لأن لين الحديد فى يد داود عليه السّلام لما أولى من شدة القوة.

وأمرناه أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ أي : دروعا واسعة تامة ، من : السبوغ ، بمعنى الإطالة ، وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ لا تجعل المسامير دقاقا فيقلق ، ولا غلاظا فتنكسر الحلق ، أو تؤذى لابسها. والتقدير : التوسط فى الشيء ، والسرد : صنعة الدروع ، ومنه قيل لصانعه : السراد والزراد. وَاعْمَلُوا صالِحاً شكرا لما أسدى إليكم. والضمير لداود وأهله. والعمل الصالح : ما يصلح للقبول لإخلاصه واتقائه ، إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ فأجازيكم عليه.

الإشارة : الفضل الذي أوتيه داود عليه السّلام هو كشف الحجاب بينه وبين الكون ، فلما شهد المكون ، كانت الأكوان معه. «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت المكون كانت الأكوان معك». ولا يلزم من كونها معه فى المعنى ، بحيث تتعشق له وتهواه ، أي : تتقاد كلها له فى الحس ، بل ينقاد إليه منها ما يحتاج إليه ، حسبما تقتضيه الحكمة ، وتسبق به المشيئة ، فسوابق الهمم لا تخرق أسوار الأقدار. وقوله تعالى : وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ فى الظاهر : الحديد

---

(١) ذكر البغوي (٦/ ٣٨٨) وابن كثير (٣/ ٥٢٧).

الحسى ، وفى الباطن : القلوب الصلبة كالحديد ، فتلين لوعظه بالإيمان والمعرفة. وكذا فى حق كل عارف تلين لوعظه القلوب ، وتقشعر من كلامه الجلود. وهو أعظم نفعا من لين الحديد الحسى. ويقال له : أن اعمل سابغات ، أي : دروعا تامة ، يتحصن بها من الشيطان والهوى ، وهو ذكر اللّه ، يستعمله ويأمر به ، ذكرا متوسطا ، من غير إفراط ممل ، ولا تفريط مخل. فإذا انتعش الناس على يده كبر قدره عند ربه ، فيؤمر بالشكر ، وهو قوله : وَاعْمَلُوا صالِحاً إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر سليمان عليه السّلام ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٢ الى ١٣]

وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَتَماثِيلَ وَجِفانٍ كَالْجَوابِ وَقُدُورٍ راسِياتٍ اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ (١٣)

قلت : «الريح» : مفعول بمحذوف ، أي : وسخرنا له الريح ، ومن رفعه فمبتدأ تقدم خبره.

يقول الحق جل جلاله : وَسخرنا لِسُلَيْمانَ الرِّيحَ ، وهى الصبا ، غُدُوُّها شَهْرٌ وَرَواحُها شَهْرٌ أي : جريها بالغد مسيرة شهر ، إلى نصف النهار ، وجريها بالعشي كذلك. فتسير فى يوم واحد مسيرة شهرين. وكان يغدو من دمشق ، مكان داره ، فيقيل بإصطخر فارس ، وبينهما مسيرة شهر ، ويروح من إصطخر فيبيت بكابل ، وبينهما مسيرة شهر للراكب المسرع. وقيل : كان يتغذّى بالرىّ ، ويتعشى بسمرقند. وعن الحسن : لمّا عقر سليمان الخيل ، غضبا للّه تعالى ، أبدله اللّه خيرا منها الريح ، تجرى بأمره حيث شاء ، غدوها شهر ورواحها شهر. هـ «١».

قال ابن زيد : كان لسليمان مركب من خشب ، وكان فيه ألف ركن ، فى كل ركن ألف بيت معه ، فيه الجن والإنس ، تحت كل ركن ألف شيطان ، يرفعون ذلك المركب ، فإذا ارتفع أتت الريح الرخاء فتسير به وبهم. قلت : وقد تقدم أن العاصفة هى التي ترفعه ، والرخاء تسير به ، وهو أصح. ثم قال : فتقيل عند قوم ، وتمسى عند قوم ، وبينهما شهر ، فلا يدرى القوم إلا وقد أظلهم ، معه الجيوش.

---

(١) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٤٢٧) لعبد الرزاق ، وابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن الحسن.

ويروى أن سليمان سار من أرض العراق ، فقال بمدينة مرو ، وصلى العصر بمدينة بلخ ، تحمله الريح ، وتظله الطير ، ثم سار من بلخ متخللا بلاد الترك ، ثم سار به إلى أرض الصين ، ثم عطف يمنة على مطلع الشمس ، على ساحل البحر ، حتى أتى أرض فارس ، فنزلها أياما ، وغدا منها فقال بكسكر ، ثم راح إلى اليمن ، وكان مستقره بها بمدنية تدمر ، وقد كان أمر الشياطين قبل شخوصه من الشام إلى العراق ، فبنوها له بالصفاح ، والعمد ، والرخام الأبيض والأصفر. هـ.

قلت : وذكر أبو السعود فى سورة «ص» أنه غزا بلاد المغرب الأندلسى وطنجة وغيرهما ، واللّه تعالى أعلم.

ووجدت هذه الأبيات منقورة فى صخرة بأرض كسكر ، أنشأها بعض أصحاب سليمان عليه السّلام :

ونحن ولا حول سوي حول ربّنا نروح إلى الأوطان من أرض كسكر
إذ نحن رحنا كان ريث رواحنا مسيرة شهر والغدوّ لآخر
أناس أعزّ اللّه طوعا نفوسهم بنصر ابن داود النبىّ المطهّر
لهم فى معالى الدّين فضل ورفعة وإن نسبوا يوما فمن خير معشر
متى يركب الريح المطيعة أسرعت مبادرة عن شهرها لم تقصّر
تظلّهم طير صفوف عليهم متى رفرفت من فوقهم لم تنفّر «١»

قال القشيري : وفى القصة أنه لا حظ يوما ملكه ، فمال الريح ، فقال له : استو ، فقال له مادمت أنت مستويا بقلبك كنت مستويا لك ، فحيث ملت. هـ.

ثم قال : وَأَسَلْنا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ أي : معدن النحاس. والقطر : النحاس ، وهو الصفر ، ولكنه أذابه له ، وكان يسيل فى الشهر ثلاثة أيام ، كما يسيل الماء. وكان قبل سليمان لا يذوب. قال ابن عباس : كانت تسيل له باليمن عين من نحاس ، يصنع منها ما أحب. وقيل : القطر : النحاس والحديد ، وما جرى مجرى ذلك ، كان يسيل له منه عيون.

وقيل : ألانه له كما ألان الحديد لأبيه ، وإنما ينتفع الناس اليوم بما أجرى اللّه تعالى لسليمان ، كما قيل.

وَسخرنا له مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ ما يشاء بِإِذْنِ رَبِّهِ أي : بأمر ربه ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا أي : ومن يعدل منهم عن أمرنا الذي أمرنا به من طاعة سليمان نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ السَّعِيرِ :

عذاب الآخرة. وقيل : كان معه ملك بيده سوط من نار ، فمن زاغ عن طاعة سليمان ضربة بذلك ضربة أحرقته.

---

(١) انظر الأبيات فى : تفسير القرطبي (٦/ ٥٥٠٤ – ٥٥٠٥) والبحر المحيط (٧/ ٢٥٤).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨٠

يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ أي : مساجد ، أو مساكن وقصور ، والمحراب : مقدم كل مسجد ومجلس وبيت. وَتَماثِيلَ صور الملائكة والأنبياء ، على ما اعتادوا من العبادات ، ليراها الناس ، فيعبدوا نحو عبادتهم.

صنعوا له ذلك فى المساجد ، ليجتهد الناس فى العبادة. أو : صور السباع والطيور ، روى أنهم عملوا له أسدين فى أسفل كرسيه ، ونسرين فوقه ، فإذا أراد أن يصعد بسط الأسدان له ذراعيهما ، وإذا قعد أظله النسران بأجنحتهما. وكان التصوير مباحا. وَجِفانٍ وصحاف ، جمع : جفنة ، وهى القصعة ، كَالْجَوابِ جمع جابية ، وهى الحياض الكبار. قيل : كان يقعد على الجفنة ألف رجل ، يأكلون بين يديه ، وَقُدُورٍ راسِياتٍ ثابتات على الأثافى ، لا تنزل لعظمها ، ولا تعطل لدوام طبخها. وقيل : كان قوائمها من الجبال ، يصعد إليها بالسلالم ، وقيل : باقية باليمن.

وقلنا : اعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْراً أي : اعملوا بطاعة اللّه ، واجهدوا أنفسكم فى عبادته ، شكرا لما أولاكم من نعمه. قال ثابت : كان داود جزأ ساعات الليل والنهار على أهله ، فلم تكن تأتى ساعة من ساعات الليل والنهار إلا وإنسان من آل داود قائم يصلّى. هـ «١».

وقال سعيد بن المسيب : لما فرغ سليمان من بيت المقدس انغلقت أبوابه ، فعالجها ، فلم تنفتح ، حتى قال :

بصلوات آل داود إلا فتحت الأبواب ، ففتحت ، ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قراء بنى إسرائيل خمسة آلاف بالليل ، وخمسة آلاف بالنهار ، فلا تأتى ساعة من ليل ولا نهار إلا واللّه عز وجل يعبد فيها. هـ. وعن الفضيل :

(اعملوا آل داود) أي : ارحموا أهل البلاء ، وسلوا ربكم العافية.

و(شكرا) : مفعول له ، أو حال ، أي : شاكرين ، أو مصدر ، أي : اشكروا شكرا لأن «اعملوا» فيه معنى اشكروا ، من حيث إن العمل للنعم شكر ، أو : مفعول به ، أي : إنّا سخرنا لكم الجن يعملون لكم ما شئتم ، فاعملوا أنتم شكرا.

وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ ، يحتمل أن يكون من تمام الخطاب لداود عليه السّلام ، أو خطاب لنبينا صلى اللّه عليه وسلم. والشكور :

القائم بحق الشكر ، الباذل وسعه فيه ، قد شغل به بقلبه ولسانه وجوارحه فى أكثر أوقاته ، اعتقادا واعترافا وكدحا. وعن ابن عباس : هو من يشكر على أحواله كلها. وقيل : من شكر على الشكر ، ومن يرى عجزه عن الشكر. قال البيضاوي :

لأن توفيقه للشكر نعمة ، فتقتضى شكرا آخر ، لا إلى نهاية ، ولذلك قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر. هـ.

الإشارة : وسخرنا لسليمان ريح الهداية ، تهب بين يديه ، يهتدى به مسيرة شهر وأكثر ، وأسلنا لوعظه وتذكيره العيون الجامدة ، فقطرت بالدموع خشوعا وخضوعا. وكل من أقبل على اللّه بكليته سخرت له الكائنات ، جنها وإنسها ، يتصرف بهمته فيها. فحينئذ يقال له ما قيل لآل داود : اعملوا آل داود شكرا. قال الجنيد : الشكر : بذل المجهود بين يدى المعبود. وقال أيضا : الشكر ألا يعصى اللّه بنعمه.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٣٠) لابن أبى شيبة ، وأحمد ، فى الزهد ، وابن أبى حاتم ، والبيهقي فى الشعب ، عن ثابت البناني.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨١

والشكر على ثلاثة أوجه : شكر بالقلب ، وشكر باللسان ، وشكر بسائر الأركان. فشكر القلب : أن يعتقد أن النعم كلها من اللّه ، وشكر اللسان : الثناء على اللّه وكثرة المدح له ، وشكر الجوارح : أن يعمل العمل الصالح. وسئل أبو حازم : ما شكر العينين؟ قال : إذا رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإذا رأيت بهما شرا سترته ، قيل : فما شكر الأذنين؟

قال : إذا سمعت بهما خيرا وعيته ، وإذا سمعت بهما شرا دفنته ، قيل : فما شكر اليدين؟ قال : ألا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع حقا هو للّه فيهما ، قيل : فما شكر البطن؟ قال : أن يكون أسفله صبرا ، وأعلاه علما ، قيل : فما شكر الفرج؟

قال : كما قال اللّه تعالى : وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ الآية «١» ، قيل : فما شكر الرجلين؟ قال : إن رأيت شيئا غبطته استعملتهما ، وإن رأيت شيئا مقته كففتهما. هـ.

والناس فى الشكر درجات : عوام ، وخواص ، وخواص الخواص. فدرجة العوام : الشكر على النّعم ، ودرجة الخواص : الشكر على النّعم والنقم ، وعلى كل حال ، ودرجة خواص الخواص : أن يغيب عن النعم بمشاهدة المنعم.

قال رجل لإبراهيم بن أدهم : إن الفقراء إذا أعطوا شكروا ، وإذا منعوا صبروا ، فقال : هذه أخلاق الكلاب عندنا ، ولكن الفقراء إذا منعوا شكروا ، وإذا أعطوا آثروا. هـ.

وهذان الآخران يصدق عليهما قوله تعالى : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ ، وخصه القشيري بالقسم

الثالث ، فقال :

فكان الشاكر يشكر على البذل ، والشكور على المنع ، فكيف بالبذل؟ ثم قال : ويقال فى قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ :

قليل من يأخذ النعمة منى ، فلا يحملها على الأسباب ، فيشكر الوسائط ولا يشكرنى. وفى الحكم : «من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها ، ومن شكرها فقد قيدها بعقالها». فالشكر قيد الموجود ، وصيد المفقود. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر موت سليمان عليه السّلام ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ١٤]

فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : فَلَمَّا قَضَيْنا عَلَيْهِ على سليمان الْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ أي : الجن وآل داود عَلى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ أي : الأرضة ، وهى دويبة تأكل الخشب ، ويقال : لها ، سرفة والقادح. والأرض هنا مصدر : أرضت الخشبة ، بالبناء للمفعول ، أرضا : أكلتها الأرضة. فأضيفت إلى فعلها وهو الأرض ، أي : الأكل.

---

(١) الآية ٥ من سورة المؤمنون.

تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، أي : عصاه ، سميت منسأة لأنها تنسى ، أي : تطرح ويرمى بها. وفيها لغتان الهمز وعدمه ، فقرأ نافع وأبو عمرو بترك الهمز ، وعليه قول الشاعر :

إذا دببت على المنساة من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل

وقرأ غيرهما بالهمز ، وهو أشهر.

فَلَمَّا خَرَّ سقط سليمان تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أي : تحققت وعلمت علما يقينا ، بعد التباس الأمر على عامتهم وضعفتهم ، أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ ما لَبِثُوا بعد موت سليمان فِي الْعَذابِ الْمُهِينِ فى العمل الشاق له ، لظنهم حياته ، فلو كانوا يعلمون الغيب كما زعموا لعلموا موته.

وذلك أن داود عليه السّلام أسس بيت المقدس ، فى موضع فسطاط موسى عليه السّلام ، فمات قبل أن يتمه ، فوصّى به إلى سليمان ، فأمر الشياطين بإتمامه. فلما بقي من عمره سنه ، سأل اللّه تعالى أن

يعمّى عليهم موته حتى يفرغوا ، ولتبطل دعواهم علم الغيب. وكان عمر سليمان ثلاثا وخمسين سنة. وملك وهو ابن ثلاث عشرة سنة. فبقى فى ملكه أربعين سنة ، وابتدأ بناء بيت المقدس لأربع مضين من ملكه. قال الثعلبي : فبنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر ، وعمّره بأساطين المها الصافي ، وسقفه بأنواع الجواهر ، وفضض سقوفه وحيطانه باللئالئ ، وسائر أنواع الجواهر ، وبسط أرضه بألواح الفيروزج ، فلم يكن فى الأرض أبهى ولا أنور من ذلك المسجد.

كان يضيء فى الظلمة كالقمر ليلة البدر «١». ومن أعاجيب ما اتخذ فى بيت القدس ، أن بنى بيتا وطيّن حائطه بالخضرة ، وصقله ، فإذا دخله الورع البار استبان فيه خياله أبيض ، وإذا دخله الفاجر استبان فيه خياله أسود ، فارتدع كثير من الناس عن الفجور.

قال صلى اللّه عليه وسلم : «لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثا ، فأعطاه اثنتين ، وأن أرجو أنى يكون قد أعطاه الثالثة ، سأله حكما يصادف حكمه ، فأعطاه إياه ، وسأله ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، فأعطاه إياه ، وسأله ألا يأتى أحد هذا البيت يصلى فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، وأنا أرجو أن يكون قد أعطاه ذلك» «٢» هـ.

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان عليه السّلام حتى خرّ به بخت نصر ، وأخذ ما كان فيه من الذهب والفضة واليواقيت ، وحمله إلى دار مملكته من العراق.

ثم قال «٣» : قال المفسرون : كان سليمان ينفرد فى بيت المقدس السنة والسنتين ، والشهر والشهرين ، يدخل فيه طعامه وشرابه ، فدخله فى المرة التي مات فيها. وكان بدء ذلك أنه لم يكن يوم يصبح فيه إلا نبتت فى بيت

---

(١) انظر تفسير البغوي (٥/ ٣٩٠). [.....]

(٢) أخرجه ابن ماجه فى (الإقامة ، باب ما جاء فى الصلاة فى مسجد المقدس ١/ ٤٥٢ ، ح ١٤٠٨) من حديث عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي اللّه عنه.

(٣) أي الثعلبي.

المقدس شجرة ، فيسألها : ما اسمك؟ فتقول الشجرة : اسمى كذا ، فيأمر بها فنقطع ، فإن كانت لغرس غرسها ، وإن كانت لدواء كتبت. فبينما هو يصلى ذات يوم إذ رأى شجرة بين يديه ، فقال لها : ما اسمك؟ قالت : الخروبة ، قال لها : ولأى شيء نبتّ؟ قالت : لخراب هذا المسجد ، فقال : ما كان

اللّه ليخربه وأنا حيّ ، أنت التي على وجهك هلاكى ، وهلاك بيت المقدس ، فنزعها وغرسها فى حائط ، ثم قال : اللهم أعم عن الجن موتى ، حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب. وكانت الجن تخبر الإنس أنهم يعلمون أشياء من علم الغيب ، ثم دخل المحراب ، وقام يصلى على عصاه ، فمات «١».

وقيل : إن سليمان قال لأصحابه ذات يوم : قد آتاني اللّه ما ترون ، وما مرّ عليّ يوم فى ملكى بحيث صفا لى من الكدر ، وقد أحببت أن يكون لى يوم واحد يصفو لى من الكدر ، فدخل قصره من الغد ، وأمر بغلق أبوابه ، ومنع الناس من الدخول عليه ، ورفع الأخبار إليه. ثم اتكأ على عصاه ينظر فى ممالكه ، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه ، عليه ثياب بيض ، قد خرج عليه من جوانب قصره ، فقال : السلام عليك يا سليمان ، فقال : عليك السلام ، كيف دخلت قصرى؟ فقال : أنا الذي لا يحجبنى حاجب ، ولا يدفعنى بواب ، ولا أهاب الملوك ، ولا أقبل الرشا ، وما كنت لأدخل هذا القصر من غير إذن. فقال سليمان : فمن أذن لك فى دخوله؟ قال : ربه ، فارتعد سليمان ، وعلم أنه ملك الموت ، فقال : يا ملك الموت هذا اليوم الذي أردت أن يصفو لى ، قال : يا سليمان ذلك اليوم لم يخلق فى أيام الدنيا ، فقبض روحه وهو متكىء على عصاه. هـ.

وفى رواية : أنه دعا الشياطين ، فبنوا له صرحا من قوارير ، ليس له باب ، فقام يصلى ، واتكأ على عصاه ، فدخل عليه ملك الموت فقبض روحه «٢». واللّه تعالى أعلم أىّ ذلك كان. وبقي سليمان ميتا ، وهو قائم على عصاه سنة ، حتى أكلت الأرضة عصاه. ولم يعلموا منذ كم مات ، فوضعوا الأرضة على العصا ، فأكلت منها يوما وليلة ، ثم حسبوا على ذلك النحو ، فوجدوه قد مات منذ سنة. سبحان الحي الذي لا يموت ، ولا ينقضى ملكه.

الإشارة : كل دولة فى الدنيا تحول ، وكل عز فيها عن قريب يزول ، فالعاقل من صرف دولته فى طاعته مولاه ، وبذل جهده فى محبته ورضاه ، فإن كانت قسمته فى الأغنياء كان من الشاكرين ، وإن كانت فى الفقراء كان من الصابرين ، والفقير الصابر أحظى من الغنى الشاكر ، ولذلك ورد أن سليمان عليه السّلام آخر من يدخل الجنة من

---

(١) انظر : تفسير الطبري (٢٢/ ٧٥) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٢٩).

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٧٥ – ٧٦) عن ابن زيد.

اللّه عليهم أجمعين. والغنى الشاكر هو الذي يعطى ولا يبالى ، ويتواضع للكبير والصغير ، والوجيه والحقير ، والفقير الصابر هو الذي يغتبط بفقره ، ويكتمه عن غيره. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر حال من لم يشكر النعم ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٥ الى ١٧]

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَهَلْ نُجازِي إِلاَّ الْكَفُورَ (١٧)

قلت : (لسبأ) فيه الصرف ، بتأويل الحي ، وعدمه ، بتأويل القبيلة. و(مسكنهم) ، من قرأ بالإفراد وفتح الكاف على القياس فى الاسم والمصدر ، كمدخل ، ومن كسره فلغة ، والسماع فى المصدر كمسجد. و(جنتان) : بدل من (آية) أو : خبر عن مضمر ، أي : هى جنتان. و(أكل خمط) «١» ، فمن أضافه فإضافة الشيء إلى جنسه ، كثوب خز ، ومن نوّنه قطعه عن الإضافة ، وجعله عطف بيان. أو صفة ، بتأويل خمط ببشيع.

يقول الحق جل جلاله : لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ ، سئل صلى اللّه عليه وسلم أرجلا كان أو امرأة ، أو أرضا أو جبلا أو واديا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «هو رجل من العرب ، ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة ، وتشاءم أربعة : فالذين تيامنوا كثرة ، فكندة ، والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وأنمار ، وحمير ، فقال رجل : من أنمار يا رسول اللّه؟ قال : منهم خثعم وبجيلة. والذي تشاءموا : عاملة ، وجذام ، ولخم ، وغسان» «٢».

قلت : وسبأ هو ابن يشخب بن يعرب بن قحطان. واختلف فى قحطان ، فقيل : هو ابن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح. وقيل : هو أخو هود عليه السّلام. وقيل : هو هود ، بنفسه ، وإن هودا هو ابن عبد اللّه بن رباح ، لا ابن عابر ، على الأصح. فهو على هذا القول ابن أرم بن سام. وقيل : قحطان من ولد إسماعيل ، فهو ابن أيمن بن

---

(١) قرأ نافع ، وابن كثير : «أكل» بسكون الكاف ، وبالتنوين ، وقرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر : بضم الكاف مع التنوين. وقرأ أبو عمرو : ويعقوب بضم الكاف من غير تنوين. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٥).

(٢) أخرجه أبو داود فى (الحروف والقراءات ٤/ ٢٨٨ ح ٣٩٨٨) مختصرا ، والترمذي فى (التفسير ، باب ومن سورة سبأ ٥/ ٣٣٦ - ٣٣٧ ، ح ٣٢٢٢) ، وقال : «حديث حسن غريب» والحاكم (٢/ ٢٢٤) عن فروة بن مسيك المرادي.

قيذر بن إسماعيل. وقيل : هو ابن الهميسع ابن أيمن. وبأيمن سميت اليمن ، وقيل : لأنها عن يمين الكعبة. هذا والعرب كلها يجمعها أصلان : عدنان وقحطان ، فلا عربى فى الأرض إلا وهو ينتهى إلى أحدهما ، فيقال :

عدنانى أو قحطانى.

ومن جعل العرب كلها من ولد إسماعيل مرّ على أن قحطان من ذرية إسماعيل ، كما تقدم ، واختلف فى خزاعة ، فقيل : قحطانية ، وقيل : عدنانية ، وأن جدهم عمرو بن لحى ، وأما الأوس والخزرج فهما من ذرية سبأ ، نزلت يثرب ، بعد سيل العرم ، كما يأتى.

قال تعالى : لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ «١» أي : فى بلدهم ، أو أرضهم ، التي كانوا مقيمين فيها باليمن ، آيَةٌ دالة على وحدانيته تعالى ، وباهر قدرته ، وإحسانه ، ووجوب شكر نعمه ، وهى : جَنَّتانِ أي : جماعة من البساتين ، عَنْ يَمِينٍ واديهم ، وَشِمالٍ وعن شماله. وكل واحدة من الجماعتين فى تقاربها وتصافها كأنها جنة واحدة ، كما يكون بساتين البلاد العامرة. قيل : كان الناس يتعاطون ذلك على جنبتى الوادي ، مسيرة أربعين يوما ، وكلها تسقى من ذلك الوادي لارتفاع سده. أو : أراد بستانين ، لكل رجل بستان عن يمين داره ، وبستان عن شماله. ومعنى كونهما آية : أن أهلها لمّا أعرضوا عن شكر النعم سلبهم اللّه النعمة ، ليعتبروا ويتعظوا ، فلا يعودوا لما كانوا عليه من الكفر وغمط النعم ، فلما أثمرت البساتين قلنا لهم – على لسان الرسل المبعوثين إليهم ، أو بلسان الحال ، أو هم أحقاء بأن يقال لهم ذلك : كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بالإيمان والعمل الصالح ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ أي : هذه البلدة التي فيها رزقكم بلدة طيبة ، وَرَبٌّ غَفُورٌ أي : وربكم الذي رزقكم وطلب شكركم ربّ غفور لمن شكره.

قال ابن عباس : كانت سبأ على ثلاثة فراسخ من صنعاء ، وكانت أخصب البلاد ، فتخرج المرأة على رأسها المكتل ، وتسير بين تلك الشجر ، فيمتلئ المكتل مما يتساقط فيه من الشجر «٢» ولقد كان الرجل يخرج لزيارة أقاربه ، وعلى رأسه مكتل ، أو قفة ، أو طبق فارغ ، فلا يصل إلى حيث يريد إلا والطبق قد امتلأ فاكهة ، مما تسقطه الرياح ، دون أن يمد يده إلى شيء من ثمرها. ومن طيبها : أنها لم تر فى بلدهم بعوضة قط ، ولا ذباب ، ولا برغوث ، ولا عقرب ، ولا حية. وإذا جاءهم الركب فى ثيابهم القمل والدواب ماتت الدواب والقمل لطيب هواها.

---

(١) قرأ حمزة ، وحفص : (مسكنهم) بسكون السين وفتح الكاف ، بلا ألف على الإفراد. وقرأ الكسائي بالتوحيد وكسر الكاف. وقرأ الباقون «مساكنهم» بفتح السين وألف وكسر الكاف على

الجمع. وقد سار الشيخ المفسر على قراءة الجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٤).
(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٧٧) عن قتادة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨٦
فَأَعْرَضُوا عن الشكر ، بتكذيب أنبيائهم ، وكفر نعمة اللّه عليهم. وقالوا : ما نعرف للّه علينا من نعمة ، عائذا باللّه.
قال وهب : بعث اللّه إلى سبأ ثلاثة عشر نبيا ، يدعونهم إلى اللّه تعالى ، فكذّبوهم «١» ، فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ أي :
سيل الأمر العرم ، أي : الصعب. من : عرم الرجل فهو عارم ، وعرم : إذا شرس خلقه وصعب ، أي : أرسلنا عليهم سيلا شديدا ، مزّق سدهم ، وغرق بساتينهم. قيل : جمع عرمة ، وهى السد الذي يمسك الماء إلى وقت حاجته.
قال ابن عباس رضي اللّه عنه : كان هذا السد يسقى جنتها ، وبنته بلقيس لأنها لمّا ملكت جعل قومها يقتتلون على ماء مواشيهم ، فنهتهم ، فأبوا ، فنزلت عن ملكها ، فلما كثر الشرّ بينهم أرادوها أن ترجع إلى ملكها ، فأبت ، فقالوا : لترجعى أو لنقتلنك ، فجاءت ، وأمرت بواديهم فسد أعلاه بالعرم ، وهو المسنّاة – بلغة حمير – فسدت ما بين الجبلين بالصخر والنار ، وجعلت له أبوابا ثلاثة ، بعضها فوق بعض ، وبنت من دونه بركة عظيمة ، وجعلت فيها اثنى عشر مخرجا ، على عدة أنهارهم. فلما جاء المطر اجتمع ماء الصخر وأودية اليمن ، فاحتبس السيل من وراء السدّ ، ففتحت الباب الأعلى ، وجرى ماؤه فى البركة ، وألقت البقر فيها ، فخرج بعض البقر أسرع من بعض ، فلم تزل تضيق تلك الأنهار ، وترسل البقر فى الماء ، حتى خرجت جميعا معا ، فكانت تقسمه بينهم على ذلك ، حتى كان من شأنها وشأن سليمان ما كان. فكانوا يسقون من الباب الأعلى ، ثم من الثاني ، ثم من الأسفل ، فلا ينفد حتى يثوب الماء من السنة المقبلة. فلما كفروا وطغوا ، سلط اللّه عليهم جرذا ، يسمى الخلد – وهو الفأر – فنقبه من أسفله ، فغرّق الماء جنتهم ، وخرّب أرضهم. هـ «٢».
قال وهب : وكانوا يزعمون أنهم يجدون فى علمهم وكهانتهم أنه يخرب سدهم فأرة ، فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا عندها هرا ، فلما حان ما أراد اللّه بهم ، أقبلت فأرة حمراء ، إلى بعض تلك الهرر ، فساورتها – أي : حاربتها ، حتى استأخرت عنها – أي : عن تلك الفرجة – الهرة ، فدخلت فى الفرجة التي كانت عندها ، ونقبت السد ، حتى أوهنته للسيل ، وهم لا يدرون ، فلما جاء السيل دخل فى تلك الخلل ، حتى بلغ السد ، فخربه ، وفاض على أموالهم ، فغرقتها ، ودفن بيوتهم ، ومزقوا

، حتى صاروا مثلا عند العرب ، فقالوا : تفرقوا أيادى سبأ. هـ «٣».

وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ المذكورتين جَنَّتَيْنِ أخريين. وتسمية المبدلتين جنتين للمشاكلة وازدواج الكلام ، كقوله : وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها «٤». ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ الأكل : الثمر المأكول ، يخفف ويثقل. والخمط ، قال ابن عباس : شجر الأراك «٥» ، وقال أبو عبيد : كل شجر مؤذ مشوّك. وقال الزجاج : كل شجر مر. هـ. وفى القاموس :

---

(١) أخرجه الطبري (٢٢/ ٧٨).

(٢) ذكره الطبري (٢٢/ ٧٩) والبغوي (٦/ ٣٩٤).

(٣) أخرجه الطبري (٢٢/ ٨٠) بنحوه ، عن وهب.

(٤) الآية ٤٠ من سورة الشورى.

(٥) أخرجه الطبري (٢٢/ ٨١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨٧

الخمط : الحامض المر من كل شيء ، وكل نبت أخذ طعما من مرارة وحموضة ، وشجر كالسدر ، وشجر قاتل ، أو كل شجر لا شوك له. هـ. وقرأ البصريان بالإضافة ، من إضافة الشيء إلى جنسه ، كثوب خز لأن المراد بالأكل المأكول ، أي : ذواتى ثمر شجر بشيع. والباقون : بالتنوين ، عطف بيان ، أو صفة ، بتأويل خمط ببشيع ، أي : مأكول بشيع. وَأَثْلٍ هو شجر يشبه الطرفاء ، أعظم منه ، وأجود عودا. وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. والحاصل أن اللّه تعالى أهلك أشجارهم المثمرة ، وأنبت مكانها الطرفاء والسدر. وإنما قال : السدر ، لأنه أكرم ما بدلوا به لأنه يكون فى الجنان.

ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا

أي : جزيناهم ذلك بكفرهم ، فذلك مفعول مطلق بجزينا ، وهل يجازى «١» هذا الجزاء الكلى إِلَّا الْكَفُورَ أي : لا يجازى بمثل هذا الجزاء إلا من كفر النعمة ولم يشكرها ، أو : كفر باللّه ، أو هل يعاقب لأن الجزاء وإن كان عامّا يستعمل فى معنى المعاقبة ، [وفى معنى الإثابة] «٢» لكن المراد الخاص ، وهو المعاقبة. قال الواحدي : وذلك لأن المؤمن يكفر عنه سيئاته ، والكافر يجازى بكل سوء عمله. قلت : بل الظاهر المجازاة الدنيوية بسلب النعم ، ولا تسلب إلا للكفور ، دون الشكور. قاله فى الحاشية.

وعن الضحاك : كانوا فى الفترة التي بين عيسى ومحمد – عليهما السلام. هـ. قلت : ولعلهم استمروا

من زمن سليمان إلى أن جاوزوا زمن عيسى عليه السّلام.
الإشارة : لكل مريد وعارف جنتان عن يمين وشمال ، يقطف من ثمارهما ما يشاء جنة العبودية ، وجنة الربوبية ، جنة العبودية للقيام بآداب الشريعة ، وجنة الربوبية للقيام بشهود الحقيقة ، فيتفنن فى جنة العبودية بعلوم الحكمة ، ويتفنن فى جنة الربوبية بعلوم القدرة ، وهى أسرار الذات وأنوار الصفات. كلوا من رزق ربكم حلاوة المعاملة فى جنة العبودية ، وحلاوة المشاهدة فى جنة الربوبية بلدة طيبة هى جنة الربوبية إذ لا أطيب من شهود الحبيب ، ورب غفور لتقصير القيام بآداب العبودية إذ لا يقدر أحد أن يحصيها ، ولا جزءا منها. فأعرض أهل الغفلة عن القيام بحقهما ، ولم يعرفوهما ، فأرسلنا على قلوبهم سيل العرم ، وهو سيل الخواطر والوساوس ، وخوض القلب فى حس الأكوان ، فبدلناهم بجنتيهم جنتين مرارة الحرص والتعب ، والهم والشغب. ذلك جزيناهم بكفرهم بطريق الخصوص من أهل التربية ، وهل يجازى إلا الكفور.

---

(١) قرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص ، ويعقوب (و هل نجازى) بنون العظمة وكسر الزاى ، ونصب «الكفور». وقرأ الباقون (يجازى) بالياء المضمومة ، وفتح الزاى ، ورفع الكفور. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٥). [.....]
(٢) ما بين المعقوفتين زيادة ليست فى الأصول. وأثبته لاقتضاء السياق له.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨٨
قال القشيري : وَبَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ .. الآية ، كذلك من الناس من يكون فى رغد من الحال ، واتصال من التوفيق ، وطيب من القلب ، ومساعدة من الوقت ، فيرتكب زلّة ، أو يتبع شهوة ، ولا يعرف قدر ما يفوته فيفتر عليه الحال ، فلا وقت ولا حال ، ولا قرب ولا وصال ، يظلم عليه النهار ، بعد أن كانت لياليه مضيئة. وأنشدوا :
ما زلت أختال فى زمانى حتى أمنت الزمان مكره
طال علينا الصدود حتى لم يبق مما شهدت ذرّه «١»
ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا .. الآية : ما عوقبوا إلا بما استوجبوا ، وما سقوا إلّا ما أفيضوا ، ولا وقعوا إلّا فى الوهدة التي حفروا ، وما قتلوا إلا بالسيف الذي صنعوا. هـ.
ثم ذكر سبب تمزيقهم ، فقال :
[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ١٨ الى ١٩]

وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها قُرىً ظاهِرَةً وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ (١٨) فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)

يقول الحق جل جلاله : وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ أي : بين سبأ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بارَكْنا فِيها بالتوسعة على أهلها بالنعم والمياه ، وهى قرى الشام ، قُرىً ظاهِرَةً متواصلة يرى بعضها من بعض لتقاربها ، فهى ظاهرة لأعين الناظرين ، أو : ظاهرة للسّابلة ، لم تبعد عن مسالكهم حتى تخفى عليهم ، وهى أربعة آلاف وسبعمائة قرية متصلة ، من سبأ إلى الشام ، وَقَدَّرْنا فِيهَا السَّيْرَ أي : جعلنا هذه القرى على مقدار معلوم ، يقيل المسافر فى قرية ، ويروح إلى أخرى ، إلى أن يبلغ الشام. وقلنا لهم : سِيرُوا فِيها ، ولا قول هناك ، ولكنهم لمّا تمكنوا من السير ، ويسّرت لهم أسبابه ، فكأنهم أمروا بذلك ، فقيل لهم : سيروا فى تلك القرى لَيالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ أي : سيروا فيها إن شئتم بالليل ، وإن شئتم بالنهار ، فإن الأمن فيها لا يختلف باختلاف الأوقات ، أو : سيروا فيها آمنين لا تخافوا عدوا ، ولا جوعا ، ولا عطشا ، وإن تطاولت مدة سيركم ، وامتدت أياما ولياليا. فبطروا النعمة ، وسئموا العافية ، وطلبوا الكدر والتعب.

---

(١) الأبيات بنحوها فى لطائف الإشارات (٣/ ١٨١) ، وجاءت فى شرح أسماء اللّه الحسنى/ ١٧٣ مسبوقة ببيت ، هو :

يا سائلى كيف كنت بعده؟ لقيت ما ساءنى وسره

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٨٩

فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا قالوا : يا ليتها كانت بعيدة ، نسير على نجائبنا ، ونتخذ الزاد ، ونختص بالريح فى تجاراتنا ، أرادوا أن يتطاولوا على الفقراء بالركوب على الرواحل ، ويختصوا بالأرباح. وقرأ يعقوب «ربّنا» بالرفع «باعد» بفتح العين ، فربنا : مبتدأ ، والجملة : خبر ، على أنه شكوى منهم ببعد سفرهم ، إفراطا فى الترفيه وعدم الاعتداد بالنعمة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وهشام بشد العين ، من «بعّد» المضعف. والباقون بالألف والتخفيف ، من : باعد ، بمعنى «بعد» المشددة. وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ بما قالوا ، وما طلبوا ، ففرّق اللّه شملهم ، كما قال تعالى :

فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ يتحدث الناس بهم ، ويتعجبون من أحوالهم ، ويضرب بهم الأمثال ، يقال : تفرقوا أيادى سبأ ، وأيدى سبأ ، يقال بالوجهين. وفى الصحاح : ذهبوا أيادى سبأ ، أي : متفرقين ، فهو من المركّب تركيب مزج.

وَمَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ أي : فرقناهم كل تفريق ، فتيامن منهم ست قبائل ، وتشاءمت أربعة ، حسبما تقدم فى الحديث. قال الشعبي : أما غسان فلحقوا بالشام ، وأما أنمار فلحقوا بيثرب ، وأما خزاعة فلحقوا بتهامة ، والأزد بنعمان. هـ. قلت : وفيه مخالفة لظاهر الحديث ، فإن أنمار جد خثعم وبجيلة ، ولم يكونوا فى المدينة.

والذي هو المشهور أن الأوس والخزرج هما اللذان قدّما المدينة ، فوجدوا فيها طائفة من بنى إسرائيل ، بعد قتلهم للعماليق. وسبب نزولهم بها : أن حبرين منهم مرّا بيثرب مع تبع ، فقالا له : نجد فى علمنا أن هذه المدينة مهاجر نبى ، يخرج فى آخر الزمان ، يكون سنه كذا وكذا ، فاستوطناها ، يترصّدان خروجه صلى اللّه عليه وسلم ، فمن نسلهما بقيت اليهود فى المدينة ، والأوس والخزرج هما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأسد بن الغوث بن بنت مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ. وولد مازن بن الأسد هم غسان ، سموا بماء اليمن ، شربوا منه. ويقال : غسان : ماء بالشمال شربوا منه ، نسبوا إليه. قال حسان :

أما سألت فإنا معشر نجب الأسد نسبتنا والماء غسان

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ عن المعاصي شَكُورٍ للنعم ، أو : لكل مؤمن لأن الإيمان نصفان نصفه صبر ، ونصفه شكر.

الإشارة : وجعلنا بين السائرين وبين منازل الحضرة المقدسة منازل ظاهرة ، ينزلوها ، ويرحلون عنها ، آمنين من الرجوع ، إن صدقوا فى الطلب ، وهى منازل كثيرة ، وأهمها اثنا عشر مقاما : التوبة ، والخوف ، والرجاء ، والزهد ، والصبر ، والشكر ، والتوكل ، والرضا ، والتسليم ، والمراقبة ، والمشاهدة. ومنازل الحضرة هى الفناء ، والبقاء ، وبقاء البقاء ، والترقي فى معاريج الأسرار والكشوفات ، أبدا سرمدا. يقال للسائرين : سيروا فيها ، وأقيموا فى كل منزل منها ، ليالى وأياما ، حتى يتحقق به نازله ، ثم يرحل عنه إلى ما بعده. ثم إن قوما سئموا من السير وادعوا القوة ، فقالوا :

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٠

ربّنا باعد بين أسفارنا حتى يظهر عزمنا وقوتنا ، وظلموا أنفسهم بذلك ، ففرقناهم عنا كل تفريق ، وعوّقناهم عن السير كل تعويق ، ليكون ذلك آية وعبرة لمن بعدهم ، فلا يخرجون عن مقام الاستضعاف والمسكنة ، والانكسار والذلة «أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى».

وسبب الحرمان هو إبليس ، كما قال تعالى :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٠ الى ٢١]

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ صَدَّقَ»

عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، الضمير فى «عليهم» لكفار سبأ وغيرهم.

وكأن إبليس أضمر فى نفسه حين أقسم : لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ «٢» أنه يسلط عليهم ، وظن أنه يتمكن منهم ، فلما أغواهم وكفروا صدق ظنه فيهم. فمن قرأ بالتخفيف ف «ظنه» : ظرف ، أي : صدق فى ظنه. ومن قرأ بالتشديد فظنه مفعول به ، أي : وجد ظنه صادقا عليهم حين كفروا فَاتَّبَعُوهُ أي : أهل سبأ ومن دان دينهم ، إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، قللهم بالإضافة إلى الكفار ، قال تعالى : وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِينَ «٣» وفى الحديث : «ما أنتم فى أهل الشرك إلا كشعرة بيضاء فى جلد ثور أسود» «٤».

وَما كانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ أي : ما كان لإبليس على من صدق ظنه عليهم من تسلط واستيلاء بالوسوسة ، إِلَّا لِنَعْلَمَ موجودا ما علمناه معدوما مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ أي : إلا ليتعلق علمنا بذلك تعلقا تنجيزيا ، يترتب عليه الجزاء ، أو : ليتميز المؤمن من الشاك ، أو : ليؤمن من قدّر إيمانه ، ويشك من قدر ضلاله. وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ محافظ رقيب ، وفعيل ومفاعل أخوان.

الإشارة : كل من لم يصل إلى حضرة العيان صدق عليه بعض ظن الشيطان لأنه لما رأى بشرية آدم مجوفة ، ظن أنه يجرى معه مجرى الدم ، فكل من لم يسد مجاريه بذكر اللّه ، حتى يستولى الذكر على بشريته ، فيصير قطعة من نور ، فلا بد أن يدخل معه بعض وساوسه ، ولا يزال يتسلط على قلب ابن آدم ، حتى يدخل حضرة

---

(١) قرأ عاصم ، وحمزة ، والكسائي «صدّق» بتشديد الدال. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/ ٣٨٦).

(٢) من الآية ٨٢ من سورة ص.

(٣) من الآية ١٧ من سورة الأعراف.

(٤) أخرجه مطولا البخاري فى (الرقاق ، باب الحشر ، ح ٦٥٢٨) ومسلم فى (الإيمان ، باب كون هذه الأمة نصف أهل الجنة ١/ ٢٠٠ ، ح ٢٢١) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

القدس ، فحينئذ يحرس منه ، لقوله تعالى : إِنَّ عِبادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ «١». وعباده الحقيقيون

هم الذين تحرروا مما سواه ، فلم يبق لهم فى هذا العالم علقة ، وهم المرادون بقوله تعالى : إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وما سلّطه عليهم إلا ليتميز الخواص من العوام ، فلو لا ميادين النفوس ، ومجاهدة إبليس ، ما تحقق سير السائرين ، أي : وما كان له عليهم من تسلط إلا لنعلم علم ظهور من يؤمن بالخصلة الآخرة ، وهى الشهود ، ممن هو منها فى شك ، وَرَبُّكَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ يحفظ قلوب أوليائه من استيلاء غيره عليها. وباللّه التوفيق.

ولمّا كان تسلط إبليس جله من الشرك ، الذي زيّنه لهم ، رده بقوله :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٢ الى ٢٣]

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَما لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣)

قلت : حذف مفعولى زعم ، أي : زعمتموهم آلهة تعبدونهم من دون اللّه ، بدلالة السياق عليهما.

يقول الحق جل جلاله : قُلِ لهم ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : زعمتموهم آلهة ، فعبدتموهم من دون اللّه ، من الأصنام والملائكة ، وسميتموهم باسمه ، فالتجئوا إليهم فيما يعروكم ، كما تلتجئون إليه فى اقتحام الشدائد الكبرى. وانتظروا استجابتهم لدعائكم كما تنتظرون استجابته. وهذا تعجيز وإقامة حجة على بطلان عبادتها. ويروى أنها نزلت عند الجوع الذي أصاب قريشا. ثم ذكر عجزهم فقال : لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ من خير أو شر ، ونفع أو ضر فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ، وَما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ أي : وما لهم فى هذين العالمين العلوي والسفلى ، من شرك فى الخلق ، ولا فى الملك ، وَما لَهُ تعالى مِنْهُمْ من آلهتهم مِنْ ظَهِيرٍ معين يعنيه على تدبير خلقه. يريد أنه على هذه الصفة من العجز ، فكيف يصحّ أن يدعوا كما يدعى تعالى ، أو يرجوا كما يرجى سبحانه؟

ثم أبطل قولهم : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ «٢» بقوله : وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ تعالى فى الشفاعة ، ممن له جاه عنده ، كالأنبياء ، والملائكة ، والأولياء ، والعلماء الأتقياء ، وغيرهم ممن له مزية عند اللّه. وقرأ

---

(١) الآية ٤٢ من سورة الحجر.

(٢) من الآية ١٨ من سورة يونس.

أبو عمرو «١» والأخوان بالبناء للمفعول ، أي : إلا من وقع الإذن للشفيع لأجله. ثم ردّ على من زعم من الكفار أن الملائكة تشفع ، قطعا لمكانها من اللّه ، فقال : حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ ، فحتى : غاية لمحذوف ، أي : وكيف تشفع قبل الإذن ، وهى فى غاية الخوف والهيبة من اللّه ، إذا سمعوا الوحى صعقوا ، حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ أي : كشف الفزع عن قلوبهم قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ من الوحى؟

قالُوا الْحَقَّ ، فمن كان هذا وصفه لا يجترىء على الشفاعة إلا بإذن خاص. قال الكواشي : إنه يفزع عن قلوبهم حين سمعوا كلام اللّه لجبريل بالوحى ، قال صلى اللّه عليه وسلم : (إذا أراد اللّه تعالى أن يوحى بالأمر لأهل السماء أخذت السموات منه رجفة – أو قال : رعدة شديدة – خوفا من ذلك ، فإذا سمع أهل السموات صعقوا ، وخروّا سجدا ، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ، فيكلمه من وحيه بما أراد ، ثم يمرّ على سماء سماء ، إلى أن ينزل بالوحى ، فإذا مرّ على الملائكة سألوه ، ثم قالوا : ماذا قال ربكم؟ فيقول جبريل : قال الحقّ «٢». نصب المفعول بقالوا ، وجمع الضمير تعظيما للّه تعالى.

ثم قال : وفى الحديث : «إذا تكلم اللّه بالوحى سمع أهل السماء صلصلة ، كجر السلسلة على الصفا ، فيصعقون ، حتى يأتيهم جبريل ، فيفزع عن قلوبهم ، – أي : يكشف – وبخبرهم الخبر ، ثم قال «٣» : وقيل المعنى : أنه لا يشفع أحد إلا بعد الإذن ، ولا يشعر به إلا المقربون لما غشى عليهم من هول ذلك اليوم ، فإذا ذهب الفزع عن قلوبهم ، قالوا : ماذا قال ربكم فى الشفاعة؟ قالوا الحق ، أي : أذن فيها. هـ. ومثل هذا لابن عطية ، وتبعه ابن جزى ، قال :

الضمير فى «قلوبهم» ، وفى «قالوا» للملائكة. فإن قيل : كيف ذلك ، ولم يتقدم لهم ذكر؟ فالجواب : أنه قد وقعت إليهم إشارة بقوله : وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ لأن بعض العرب كانوا يعبدون الملائكة ، ويقولون :

هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه ، فذكر الشفاعة يقتضى ذكر الشافعين ، فعاد الضمير على الشفعاء ، الذين دلّ عليهم ذكر الشفاعة. هـ.

وقرأ يعقوب وابن عامر «فزع» بفتح الفاء بالبناء للفاعل. والتضعيف للسلب والإزالة ، أي : سلب الفزع وأزاله عن قلوبهم ، مثل : قردت البعير : إذا أزلت قراده ، ومن بناه للمفعول فالجار نائب. وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أي :

المتعالي عن سمة الحدوث ، وإدراك العقول ، الكبير الشأن ، فلا يقدر أحد على شفاعة بلا إذنه.

---

(١) فى الأصول [ابن عمرو].

(٢) أخرجه الطبري (٢٢/ ٩١) والبغوي فى التفسير (٦/ ٣٩٨) والبيهقي فى الأسماء والصفات (١/

٣٢٦) وابن أبى عاصم فى السنّة (١/ ٢٢٧) من حديث النواس بن سمعان.
(٣) أي : الكواشي.

(٤٩٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٣
الإشارة : كل من آثر شيئا أو أحبه سوى اللّه ، أو خافه ، يقال له : ادعوا الذين زعمتم أنهم ينفعونكم أو يضرونكم ، من دون اللّه ، لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ ... الآية. وأما محبة الأنبياء والأولياء والعلماء الأتقياء فهى محبة اللّه ، لأنهم يوصلون إليه ، فلم يحبهم أحد إلا لأجل اللّه ، فتنفع شفاعتهم بإذن اللّه. وقوله : حَتَّى إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ .. إلخ ، قال الورتجبي : وصف سبحانه أهل الوجد ، من الملائكة المقربين ، وذلك من صولة الخطاب ، فإذا سمعوا كلام الحق ، من نفس العظمة ، وقعوا فى بحار هيبته وإجلاله ، حتى فنوا تحت سلطان كبريائه ، ولم يعرفوا معنى الخطاب فى أول وارد السلطنة. فإذا فاقوا سألوا معنى الخطاب من جبريل عليه السّلام ، فهو من أهل الصحو والتمكين فى المعرفة. هـ.
ثم تتم قوله : لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ أي : لا من رزق ولا غيره ، فقال :
[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٤ الى ٢٧]
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكاءَ كَلاَّ بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧)
يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أي : بأسباب سماوية وأرضية؟ قُلِ اللَّهُ وحده. أمره أن يقرّرهم ، ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم ، أي : يرزقكم اللّه لا غيره ، وذلك للإشعار بأنهم مقرّون به بقلوبهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به ، لأنهم إن تفوّهوا بأن اللّه رازقهم لزمهم أن يقال لهم : فما لكم لا تعبدون من يرزقكم ، وتؤثرون عليه من لا يقدر على شى ء؟ ثم أمره أن يقول لهم بعد الإلزام والإحجاج : وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ أي : ما نحن وأنتم على حالة واحدة ، بلى على حالين متضادين ، وأحدنا مهتد ، وهو من اتضحت حجته ، والآخر ضال ، وهو من قامت عليه الحجة. ومعناه : أن أحد الفريقين من الموحدين ومن المشركين لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال.
وهذا من كلام المنصف ، الذي كل من سمعه ، من موال ومعاند ، قال لمن خوطب به : قد أنصفك صاحبك. وفى ذكره بعد تقديم ما قدّم من التقرير : دلالة واضحة على من هو من الفريقين على الهدى

، ومن هو فى الضلال المبين ، ولكن التعريض أوصل بالمجادل إلى الغرض ، ونحوه قولك لمن تحقق كذبه : إن أحدنا لكاذب ، ويحتمل أن يكون من تجاهل العارف.

(٤/٤٩٣)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٤

قال الكواشي : وهذا من المعاريض ، وقد ثبت أن من اتبع محمدا على الهدى ، ومن لم يتبعه على الضلال. هـ ويحتمل أن يكون من اللف والنشر المرتب. وفيه ضعف. وخولف بين حرفى الجار ، الداخلين على الهدى والضلال لأن صاحب الهدى كأنه مستعل على فرس جواد ، يركضه حيث شاء ، والضال كأنه منغمس فى ظلام ، لا يدرى أين يتوجّه.

قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنا وَلا نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ أي : ليس القصد بدعائى إياكم خوفا من ضرر كفركم ، وإنما القصد بما أدعوكم إليه الخير لكم ، فلا يسأل أحد عن عمل الآخر ، وإنما يسأل كل واحد عن عمله. وهذا أيضا أدخل فى الإنصاف ، حيث أسند الإجرام إلى أنفسهم ، وهو محظور ، والعمل إلى المخاطبين ، وهو مأمور به مشكور.

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا يوم القيامة ، ثُمَّ يَفْتَحُ أي : يحكم بَيْنَنا بِالْحَقِّ بلا جور ولا ميل ، فيدخل المحقّين الجنة ، والمبطلين النار ، وَهُوَ الْفَتَّاحُ الحاكم الْعَلِيمُ بما ينبغى أن يحكم به.

قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ أي : ألحقتموهم بِهِ شُرَكاءَ فى العبادة معه ، بأى صفة ألحقتموهم به شركاء فى استحقاق العبادة ، وهم أعجز شىء. قال القشيري : كانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك لانهماكهم فى ضلالهم ، مع تحققهم بأنها جمادات لا تفقه ولا تعقل ، ولا تسمع ولا تبصر ، ولا شبهة لهم غير تقليد أسلافهم. هـ. ومعنى قوله : (أرونى) مع كونه يراهم : أن يريهم الخطأ العظيم فى إلحاق الشركاء باللّه ، وأن يطلعهم على [حالة] «١» الإشراك به ، ولذلك زجرهم بقوله : كَلَّا أي : ارتدعوا عن هذه المقالة الشنعاء ، وتنبهوا عن ضلالكم. بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ أي : الغالب القاهر ، فلا يشاركه أحد ، و«هو» : ضمير الشأن ، الْحَكِيمُ فى تدبيره وصنعه. والمعنى : بل الوحدانية للّه وحده لأن الكلام إنما وقع فى الشركة ، ولا نزاع فى إثبات اللّه ووجوده ، وإنما النزاع فى وحدانية. أي : بل هو اللّه وحده العزيز الحكيم.

الإشارة : أرزاق الأرواح والأشباح بيد اللّه ، فأهل القلوب من أهل التجريد اشتغلوا بطلب أرزاق الأرواح ، وغابوا عن طلب أرزاق الأشباح ، مع كونهم مفتقرين إليه ، أي : غابوا عن أسبابه. وأهل الظاهر اشتغلوا بطلب أرزاق الأشباح ، وغابوا عن التوجه إلى أرزاق الأرواح ، مع كونهم أحوج الناس إليه. وكل فريق يرجح ما هو فيه ، فأهل الأسباب يعترضون على أهل التجريد ، ويرجحون تعاطى الأسباب ، وأهل

التجريد يرجحون مقام التجريد ، فيقولون لهم : وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين. قل : لا تسألون عما أجرمنا ، بزعمكم ، من ترك الأسباب ، ولا نسأل

---

(١) فى الأصول [إحالة] والمثبت هو الذي فى تفسير النسفي.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٥

عما تعملون. وسيجمع اللّه بيننا ، ويحكم بما هو الحق ، فإن كنتم تعتمدون على الأسباب ، وتركنون إليها ، فهو شرك ، أرونى الذين ألحقتم به شركاء ، كلا ، بل هو اللّه العزيز الحكيم ، يعز أولياءه ، المتوجهين إليه ، الحكيم فى إسقاط من أعرض عنه إلى غيره.

قال القشيري : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ، أخبر سبحانه أنه يجمع بين عباده ، ثم يعاملهم فى حال اجتماعهم ، بغير ما يعاملهم فى حال افتراقهم ، وللاجتماع أثر كبير فى الشريعة ، وللصلاة فى الجماعة أثر مخصوص. ثم قال :

وللشيوخ فى الاجتماع زوائد ، ويستروحون إلى هذه الآية : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ ... هـ.

ولمّا ذكر ما منّ به على داود وسليمان ، وذكر وبال من لم يشكر النعم ، ذكر ما منّ به على نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم من عموم الرسالة والدعوة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٢٨ الى ٣٠]

وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠)

قلت : «كافة» : حال من «الناس» ، على قول الفارسي وابن جنى وابن كيسان ، واختاره ابن مالك.

وقال الأكثر :

إنه حال من الكاف ، والتاء للمبالغة ، وما قاله ابن مالك أحسن. انظر الأزهرى.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ أي : جميعا ، إنسهم وجنّهم ، عربيهم وعجميهم ، أحمرهم وأسودهم. وقدّم الحال للاهتمام. قال صلى اللّه عليه وسلم : «أعطيت خمسا لم يعطهنّ أحد قبلى بعثت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحّل لأحد قبلى ، ونصرت بالرّعب مسيرة شهر ، وأعطت الشفاعة ، فادخرتها لأمتى يوم القيامة ، وهى إن شاء اللّه نائلة من لا يشرك باللّه شيئا» «١».

أو : وما أرسلناك إلا رسالة عامة لهم ، محيطة بهم لأنها إذا عمتهم فقد [كفتهم] «٢» أن يخرج منها

أحد.

وقال الزجاج : معنى الكافة فى اللغة : الإحاطة ، والمعنى : أرسلناك جامعا للناس فى الإنذار والإبلاغ ، على أنه حال

---

(١) أخرجه البخاري فى (التيمم ، باب ١ ح ٣٣٥) ومسلم فى (فاتحة كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/ ٣٧٠ ، ح ٥٢١) من حديث جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول [كفهم] والمثبت من تفسير أبى السعود. [.....]

من الكاف ، والتاء للمبالغة ، كالراوية والعلّامة. حال كونك بَشِيراً بالفضل العظيم لمن أقر ، وَنَذِيراً بالعذاب لمن أصرّ ، وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ أي : الكفرة ، لا يَعْلَمُونَ ذلك ، فيحملهم جهلهم على مخالفتك.

وَيَقُولُونَ من فرط جلهم : مَتى هذَا الْوَعْدُ أي : القيامة ، المشار إليها بقوله : قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا «١» ، أو : الوعد بالعذاب الذي أنذرت به. وأطلق الوعد على الموعود به لأنه من متعلقاته ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فى إتيانه؟ قُلْ لَكُمْ مِيعادُ يَوْمٍ ، «الميعاد» : ظرف الوعد ، من مكان ، أو زمان. وهو – هنا – الزمان ، بدليل من قرأ «ميعاد يوم» ، فأبدل منه «اليوم». وأما الإضافة فإضافة تبيين ، كما تقول : بعير سائبة ، أي : قد وقت لعذابكم يوما لا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ ساعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ أي : لا يمكنكم التأخر عنه بالإمهال ، ولا التقدم عليه بالاستعجال. ووجه انطباق هذا الجواب على سؤالهم : أنهم سألوا عن ذلك ، وهم منكرون به ، تعنتا لا استرشادا ، فجاء الجواب على طريق التهديد مطابقا للسؤال ، على وجه الإنكار والتعنت ، وأنهم مرصدون له ، يفاجئهم ، فلا يستطيعون تأخرا ، ولا تقدما عليه.

الإشارة : الداعون إلى اللّه على فرقتين : فرقة تدعو إلى معرفة أحكام اللّه ، وهم العلماء ، وفرقة تدعو إلى معرفة ذات اللّه بالعيان ، وهم الأولياء العارفون باللّه ، فالأولون دعوتهم خاصة بمن فى مذهبهم ، والآخرون دعوتهم عامة إذ معرفة اللّه تعالى الذوقية لم يقع فيها اختلاف مذاهب ، فأهل المشرق والمغرب كلهم متفقون عليها ، فشيخ واحد يربى جميع أهل المذاهب ، إن خضعوا له ، وفى ذلك يقول صاحب المباحث :

مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على ائتلاف

وقال الشاعر :

عبارتنا شتى وحسنك واحد وكلّ إلى ذاك الجمال يشير

ويقول من استبعد الفتح : متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ قل : لكم ميعاد يوم عيّنه للفتح ، لا يتقدم ولا يتأخر.

فالأدب : الخدمة وعدم الاستعجال.

---

(١) الآية ٢٦ من السورة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٧

ثم ذكر ما يلقون فى ذلك الميعاد على كفرهم ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣١ الى ٣٣]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣)

قلت : أتى بالعاطف فى قوله : (و قال) الأخيرة ، وترك فى الأولى لأن قول الرؤساء جواب لقول المستضعفين ، فحسن ترك العاطف ، ثم جيء بكلام آخر للمستضعفين ، فعطفه على كلامهم الأول.

و(مكر الليل) :

الإضافة على معنى «فى» ، وإضافة المكر إلى الليل على الاتساع ، بإجراء الثاني مجرى المفعول به ، وإضافة المكر إليه ، أو : جعل الليل والنهار ماكرين بهم مجازا.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، كأبى جهل وأضرابه : لَنْ نُؤْمِنَ بِهذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ أي : ما نزل قبل القرآن ، من كتب اللّه تعالى ، الدالة على البعث. وقيل : إن كفار قريش سألوا أهل الكتب عن الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فأخبروهم أنهم يجدون نعته فى كتبهم ، فغضبوا ، وقالوا ذلك. وقيل : (الذين بين يديه) :

القيامة والجنة والنار ، فكأنهم جحدوا أن يكون القرآن من عند اللّه ، وأن يكون ما دلّ عليه من الإعادة للجزاء حقيقة.

وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو من تصح منه الرؤية ، إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ محبوسون عِنْدَ رَبِّهِمْ فى موقف الحساب يَرْجِعُ يردّ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ الْقَوْلَ فى الجدال والمحاورة. أخبر عن عاقبتهم ومآلهم فى الآخرة ، فقال لرسوله صلى اللّه عليه وسلم ، أو للمخاطب : ولو ترى فى الآخرة موقفهم ، وهم يتجاذبون أطراف المحاورة ، ويتراجعونها بينهم ، لرأيت أمرا فظيعا ، فحذف الجواب لأن العبارة لا تفى به. ثم بيّن بعض محاورتهم بقوله :

(٤٩٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٨

يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أي : الأتباع السفلة لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أي : الرؤساء المقدّمين : لَوْ لا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ لو لا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لكنا مؤمنين باللّه ورسوله.

قالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْناكُمْ : رددناكم عَنِ الْهُدى بَعْدَ إِذْ جاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ أي : بل أنتم صددتم باختباركم ، ولم نقهركم على الكفر. أنكروا أنهم كانوا صادّين لهم عن الإيمان ، وأثبتوا أنهم هم الذين صدّوا أنفسهم ، حيث أعرضوا عن الهدى ، وآثروا التقليد عليه. وإنما وقعت «إذ» مضافا إليها ، وإن كانت «إذ» و«إذا» من الظروف اللازمة للظرفية لأنه قد اتّسع فى الزمان ما لم يتّسع فى غيره.

وَقالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أي : بل مكركم بنا بالليل والنهار هو الذي صدنا عن الهدى. أو : مكر بنا الليل والنهار ، وطول السلامة ، حتى ظننا أنكم على حق فقلدناكم. إِذْ تَأْمُرُونَنا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْداداً : أشباها ، نعبدها معه. والحاصل : أن المستكبرين لمّا أنكروا أن يكونوا هم السبب فى كفر المستضعفين ، وأثبتوا أن ذلك بسبب اختيارهم ، كرّ عليهم المستضعفون بقولهم : بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ، فأبطلوا إضرابهم بإضرابهم ، كأنهم قالوا : ما كان الإجرام من جهتنا ، بل من جهة مكركم بنا دائما ، ليلا ونهارا ، وحملكم إيّانا على الشرك واتخاذ الأنداد.

ثم حصل الندم حيث لم ينفع ، كما قال تعالى : وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ أي : أضمر الندم كلا الفريقين ، وأخفاه عن رفيقه ، مخافة التعيير ، لمّا رأوا العذاب ، وتحققوا لحوقه بهم ، فندم المستكبرون على إضلالهم وضلالهم ، والمستضعفون على ضلالهم واتباعهم. وقيل : معنى أسروا : أظهروا ، فهو من الأضداد. وَجَعَلْنَا الْأَغْلالَ فِي أَعْناقِ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : فى أعناقهم. فأظهر فى محل الإضمار للدلالة على ما استوجبوا به الأغلال ، وهو كفرهم. هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ أي : لا يفعل بهم إلا ما استوجبته أعمالهم الخبيثة فى الدنيا.

الإشارة : كل من له رئاسة وجاه ، عالما كان أو جاهلا ، وصدّ الناس عن طريق التربية على يد المشايخ

، يقع له هذا الخصام ، مع من صدّهم من ضعفاء الناس ، حيث يرتفع المقربون ، ويسقط الغافلون من تلك المراتب ، فيقع الندم والتحسر ، ويتبرأ الرؤساء من المرءوسين من عامة أهل اليمين. قال القشيري : وهكذا أصحاب الزلات ، الأخلاء فى الفساد – أي : يتبرأ بعضهم من بعض – وكذلك الجوارح والأعضاء ، يشهد بعضها على بعض ، اليد تقول للجملة : أخذت ، العين تقول : أبصرت ، والاختلاف فى الجملة عقوبة. ومن عمل بالمعاصي أخرج اللّه عليه من كان أطوع له ، ولكنهم لا يعلمون ذلك. ولو علموا لاعتذروا ، ولو اعتذروا لتابوا وتوقفوا ، ولكن ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا. هـ.

(٤٩٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٤٩٩

ثم سلّى رسوله ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣٤ الى ٣٦]

وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (٣٤) وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٦)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَرْسَلْنا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ رسول إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها : متنعّموها ، ورؤساؤها : إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ ، فهذه تسليه لرسول صلى اللّه عليه وسلم مما لقى من رؤساء قومه من التكذيب ، والكفر بما جاء به ، وأنه لم يرسل قطّ إلى أهل قرية من نذير إلا قالوا له مثل ما قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل مكة. وتخصيص المتنعمين بالتكذيب لأن الداعي إلى التكبر ، وعدم الخضوع للغير هو الانهماك فى الشهوات ، والاستهانة بمن لم يحظ بها ، جهلا ، ولذلك افتخروا بالأموال الفانية ، كما قال تعالى :

وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ، رأوا – من فرط جهلهم – أنهم أكرم على اللّه من أن يعذّبهم. نظروا إلى أحوالهم فى الدنيا ، وظنوا أنهم لو لم يكرموا على اللّه لما رزقهم ذلك. ولو لا أن المؤمنين هانوا عليه لما حرمهم ذلك ، فأبطل اللّه رأيهم الفاسد بقوله : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ وَيَقْدِرُ أي : يضيقه على من يشاء ، فإن الرزق بيد اللّه ، يقسمه كيف يشاء. فربما وسّع على العاصي ، استدراجا ، وضيّق على المطيع ، تمحيصا وتطهيرا ، فيوسع على المطيع ، ويضيق على العاصي ، وربما وسّع عليهما على حسب مشيئته ، فلا يقاس عليهما أمر الثواب ، ولو كان ذلك لكرامة وهوان يوجبانه لم يكن بمشيئته. وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة عند اللّه. وقد تكون للاستدراج ، وصاحبها لا يشعر.

الإشارة : ما حاز الخصوصية وتبع أهلها إلا ضعفاء المال والجاه ، الذين هم أتباع الرسل ، فهم الذين حطّوا رؤوسهم ، وباعوا نفوسهم وأموالهم للّه ، وبذلوها لمن يعرّفهم به ، فعوّضهم جنة المعارف ، يتبوءون منها حيث شاءوا ، وأما من له جاه أو مال فقلّ من يحط رأسه منهم ، إلا من سبقت له العناية الكبرى. قال القشيري : بعد كلام : ولكنها أقسام سبقت ، وأحكام حقت ، ثم اللّه غالب على أمره. وَقالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَأَوْلاداً ، وليس هدا بكثرة الأموال والأولاد ، وإنما هى ببصائر مفتوحة لقوم ، ومسدودة لقوم هـ.

(٤٩٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٠

ثم قال تعالى :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٣٧ الى ٣٨]

وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ بِما عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ (٣٨)

قلت : جمع التكسير يذكّر ويؤنث للعقلاء وغيرهم ، ولذلك قال : «بالتي». و(زلفى) : مفعول مطلق ، أي : وما جماعة أموالكم ولا جماعة أولادكم ، و(إلا من آمن) : مستثنى من الكاف فى «تقربكم» ، متصل ، وقيل : منقطع.

و(من) : شرط ، جوابه : (فأولئك). وعلى الاتصال ف «من» منصوبة بتقرب.

يقول الحق جل جلاله : وَما أَمْوالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى أي : قربة ، إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صالِحاً ، يعنى أن الأموال لا تقرب أحدا إلا المؤمن الصالح ، الذي ينفقها فى سبيل اللّه.

والأولاد لا تقرب أحدا من اللّه إلا من علّمهم الخير ، وفقّههم فى الدين ، وأرشدهم للصلاح والطاعة ، فإنّ عملهم يجرى عليه بعد موته لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم بثه فى صدور الرجال ، وولد صالح يدعو له بعد موته» «١».

فَأُولئِكَ لَهُمْ جَزاءُ الضِّعْفِ أي : تضاعف لهم حسناتهم ، الواحدة عشرا إلى سبعمائة ، على قدر النية والإخلاص. وهو من إضافة المصدر إلى المفعول. والأصل : يجازون الضعف ، ثم جزاء الضعف ، ثم أضيف. وقرأ يعقوب بالنصب على التمييز ، أي : فأولئك لهم الضعف لأعمالهم جزاء بِما عَمِلُوا أي : بأعمالهم وَهُمْ فِي الْغُرُفاتِ آمِنُونَ أي : فى غرفات الجنان آمنون من كل هائل وشاغل. وقرأ حمزة : «فى الغرفة» إرادة الجنس.

وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا فى إبطالها ، بالرد والطعن مُعاجِزِينَ : مغالبين لأنبيائنا ، أو : سابقين ، ظانين أنهم يفوتوننا ، أُولئِكَ فِي الْعَذابِ مُحْضَرُونَ يحضرونه فيحيط بهم.

الإشارة : الأموال والأولاد لا تقرب العبد ولا تبعده ، إنما يقربه سابق العناية ، ويبعده سابق الشقاء ، فمن سبقته العناية قربته أمواله ، بإنفاق المال فى سبيل اللّه ، وإرشاد الأولاد إلى طاعة اللّه ، ومن سبق له الشقاء صرف أمواله

---

(١) أخرجه ، بنحوه ، مسلم فى (الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ، ٣/ ١٢٥٥ ح ١٦٣١) من حديث ابى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠١

فى الهوى ، وأولاده فى جمع الدنيا. قال القشيري : لا تستحقّ الزّلفى عند اللّه بالمال ، ولا بالأولاد ، ولكن بالأعمال الصالحة الخالصة ، والأحوال الصافية ، والأنفس الزاكية ، بل بالعناية السابقة ، والهداية اللاحقة ، والرعاية الصادقة.

هـ. وقال فى قوله : وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آياتِنا مُعاجِزِينَ : هم الذين لا يحترمون الأولياء ، ولا يراعون حقّ اللّه فى السّر ، فهم فى عذاب الاعتراض على أولياء اللّه ، وعذاب الوقوع بشؤم ذلك فى ارتكاب محارم اللّه ، ثم فى عذاب السقوط من عين اللّه تعالى. هـ.

ثم حضّ على الصدقة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٣٩]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، إنما كرره تزهيدا فى المال ، وحضا على إنفاقه فى سبيل اللّه. ولذلك عقبه بقوله : وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ، إما عاجلا فى الدنيا إذا شاء ، أو آجلا فى الآخرة ، ما لم يكن إسرافا ، كنزهة لهو ، أو فى بنيان ، أو معصية. وذكر الكواشي هنا أحاديث منها : «كلّ معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله صدقه ، وما وقى به الرجل عرضه كتبت له بها صدقة – وهو ما أعطى لشاعر ، أو لذى اللسان المتّقى – وما أنفق المؤمن صدقة فعلى اللّه خلفها ضامنا ، إلا ما كان من نفقة فى بنيان أو معصية» «١».

قلت : يقيد النفقة فى البنيان بما زاد على الحاجة والضرورة ، وإلا فهو مأمور به ، فيؤجر عليه. واللّه

تعالى أعلم.

وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ المطعمين لأن كل من رزق غيره من سلطان ، أو سيّد ، أو زوج ، أو غيره ، فهو من رزق اللّه ، أجراه على يد هؤلاء ، وهو خالق الرزق ، والأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق. وعن بعضهم قال :

الحمد للّه الذي أوجده ، وجعلنى ممن يشتهى ، فكم من مشته لا يجد ، وواجد لا يشتهى!.

الإشارة : فى الآية إشارة إلى منقبة السخاء ، وإطلاق اليد بالعطاء ، وهو من علامة اليقين ، وخروج الدنيا من القلب. وذكر الترمذي الحكيم حديثا طويلا عن الزبير رضي اللّه عنه رأيت أن أذكره لكثرة فوائد مع مناسبة لهذا المعنى.

قال : جئت حتى جلست بين يدى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخذ بطرف عمامتى من ورائي ، ثم قال : «يا زبير إنى رسول اللّه إليك خاصة ، وإلى الناس عامة. أتدرون ما قال ربكم؟ قلت : اللّه ورسوله أعلم. قال. قال ربكم حين استوى على

---

(١) رواه الدار قطنى فى سننه (٣/ ٢٨) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٠) من حديث جابر رضي اللّه عنه. وصححه الحاكم ، وتعقبه الذهبي.

عرشه ونظر إلى خلقه : عبادى أنتم خلقى وأنا ربكم ، أرزاقكم بيدي ، فلا تتعبوا فيما تكفلت لكم به ، فاطلبوا منى أرزاقكم ، وإلىّ فارفعوا حوائجكم ، انصبوا إلىّ أنفسكم أصبّ عليكم أرزاقكم. أتدرون ما قال ربكم؟ قال اللّه تبارك وتعالى : يا ابن آدم أنفق أنفق عليك ، وأوسع أوسع عليك ، ولا تضيق فأضيق عليك ، ولا تصرّ فأصرّ عليك ، ولا تخزن فأخزن عليك ، إن باب الرزق مفتوح من فوق سبع سموات ، متواصل إلى العرش ، لا يغلق ليلا ولا نهارا ، ينزل اللّه منه الرزق ، على كل امرئ بقدر نيته ، وعطيته ، وصدقته ، ونفقته ، من أكثر أكثر عليه ، ومن أقل أقل عليه ، ومن أمسك أمسك عليه. يا زبير فكل وأطعم ، ولا توك فيوك عليك «١» ، ولا تحص فيحص عليك ، ولا تقتّر فيقتر عليك ، ولا تعسر فيعسر عليك. يا زبير ، إن اللّه يحب الإنفاق ، ويبغض الإقتار ، وإن السخاء من اليقين ، والبخل من الشك ، فلا يدخل النار من أيقن ، ولا يدخل الجنة من شك. يا زبير إن اللّه يحب السخاوة ، ولو بفلق تمرة ، والشجاعة ، ولو بقتل عقرب أو حية. يا زبير إن اللّه يحب الصبر عند زلزلة الزلازل ، واليقين النافذ عند مجيء الشهوات ، والعقل الكامل عند نزول الشبهات. والورع الصادق عند الحرام

والخبيثات. يا زبير عظّم الإخوان ، وأجلّ الأبرار ، ووقر الأخيار ، وصل الجار ، ولا تماش الفجار ، تدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب ، هذه وصية اللّه إلىّ ، ووصيتي إليك».

ثم ذكر توبيخه على الشرك ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٠ الى ٤٢]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قالُوا سُبْحانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (٤٢)

يقول الحق جل جلاله : وَاذكر يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ «٢» جَمِيعاً ، العابدين والمعبودين ، ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كانُوا يَعْبُدُونَ؟ هو خطاب للملائكة ، وتقريع للكفرة ، وارد على المثل السائر من قول العامة : الخطاب للسارية وافهمى يا جارية. ونحوه قوله : .. أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي .. الآية «٣». وتخصيص

---

(١) أي : لا تدخر وتشد ما عندك ، وتمنع ما فى يديك ، فتنقطع مادة الرزق عنك. والوكاء : الخيط الذي تشد به الصرّة والكيس وغيرهما. انظر النهاية فى غريب الحديث (وكاء ، ٥/ ٢٢٢ – ٢٢٣).

(٢) قرأ حفص ، ويعقوب : «يحشرهم» بالياء ، وقرأ الباقون «نحشرهم» و«نقول» بالنون. وقد أثبت المفسر قراءة النون. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٣٨٨).

(٣) من الآية ١١٦ من سورة المائدة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٣

الملائكة لأنهم أشرف شركائهم ، والصالحون للخطاب منهم. قالُوا سُبْحانَكَ تنزيها لك أن يعبد معك غيرك. أَنْتَ وَلِيُّنا مِنْ دُونِهِمْ أنت الذي نواليه من دونهم ، لا موالاة بيننا وبينهم. والموالاة خلاف المعاداة ، وهى مفاعلة من الولي ، وهو القرب. والولىّ يقع على الموالي والموالي جميعا. فبينوا بإثبات موالاة اللّه تعالى ومعاداة الكفار : براءتهم من الرضا بعبادتهم لهم فإنّ من كان على هذه الصفة ، كانت حاله منافية لذلك.

ثم قالوا : بَلْ كانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أي : الشياطين ، حيث أطاعوهم فى عبادة غير اللّه ، أو : كانوا يدخلون فى أجواف الأصنام ، إذا عبدت ، فيعبدون بعبادتها ، أو : صوّرت لهم الشياطين صور قوم من الجن ، وقالوا : هذه صور الملائكة فاعبدوها. أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ أي : أكثر الإنس ، أو : الكفار ،

بِهِمْ بالجن مُؤْمِنُونَ مصدقون لهم فيما يأمرونهم به. والأكثر هنا بمعنى الكل.

قال تعالى : فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرًّا لأن الأمر فى ذلك اليوم إليه وحده ، لا يملك أحد فيه منفعة ولا مضرة لأحد لأن الدار دار ثواب وعقاب ، والمثيب والمعاقب هو اللّه ، فكانت حالها خلاف حال الدنيا ، التي هى دار تكليف ، والناس فيها مخلىّ بينهم ، يتضارون ، ويتنافعون ، وأما يوم القيامة فلا فعل لأحد قط.

ثم ذكر معاقبة الظالمين بقوله : وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا بوضع العبادة فى غير موضعها : ذُوقُوا عَذابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ فى الدنيا.

الإشارة : ما أحببت شيئا إلا وكنت له عبدا ، ولا يحب أن تكون لغيره عبدا ، فإذا تحققت الحقائق ، التحق كل عابد بمعبوده ، وكل حبيب بمحبوبه ، فيرتفع الحق بأهله ، ويهوى الباطل بأهله. وكل ما سوى اللّه باطل ، فارفع همتك أيها العبد عن هذه الدار وما فيها ، وتعلق بالباقي ، دون الفاني ، ولا تتعلق بشيء سوى المتكبر المتعالي.

قال القشيري : قوله تعالى : فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ .. إلخ ، الإشارة فى هذا : أنّ من علّق قلبه بالأغيار ، وظنّ صلاح حاله فى الاختيار ، والاستعانة بالأمثال والأشكال ، نزع اللّه الرحمة من قلوبهم ، وتركهم ، وتشوش أحوالهم ، فلا لهم من الأشكال والأمثال معونة ، ولا لهم فى عقولهم استبصار ، ولا إلى اللّه رجوع ، فإن رجعوا لا يرحمهم ولا يحبهم ، ويقول : ذوقوا وبال ما به استوجبتم هذه العقوبة.

هـ. قلت : قوله : «فإن رجعوا لا يرحمهم» يعنى أنهم فزعوا أولا إلى المخلوق ، فلما لم ينجح مسعاهم ، رجعوا إلى اللّه ، فلم ينفعهم ، ولو تابوا فى المستقبل لقبل توبتهم.

وقال أيضا : ومن تشديد العقوبة الافتضاح فى السؤال. وفى بعض الأخبار : أن عبيدا يسألهم الحق غدا ، فيقع عليهم من الخجل ما يقولون : يا ربنا لو عذبتنا بما شئت من ألوان العقوبة ، ولا تعذبنا بهذا السؤال. هـ. وباللّه التوفيق.

(٥٠٣/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٤

ثم ذكر حال أهل الغفلة ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٣ الى ٤٥]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ وَقالُوا ما هذا إِلاَّ إِفْكٌ مُفْتَرىً وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (٤٣) وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ (٤٤) وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ

فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا أي : إذا قرئت عليهم آيات القرآن ، بَيِّناتٍ : واضحات ، قالُوا أي : المشركون : ما هذا؟ يعنون محمدا صلى اللّه عليه وسلم إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ : يصرفكم عَمَّا كانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ من الأصنام. وَقالُوا ما هذا أي : القرآن إِلَّا إِفْكٌ : كذب مُفْتَرىً بإضافته إلى اللّه تعالى. وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : وقالوا. والعدول عنه دليل على إنكار عظيم ، وغضب شديد ، حيث سجّل عليهم بالكفر والجحد ، لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ أي : للقرآن ، أو لأمر النبوة كله ، لما عجزوا عن معارضته ، قالوا : إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أي : ما هذا إلا سحر ظاهر سحريته. وإنكارهم أولا باعتبار معناه ، وثانيا باعتبار لفظه وإعجازه ، ولذلك سموه سحرا.

قال تعالى : وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها أي : ما أعطينا مشركى مكة كتبا يدرسونها ، فيها برهان على صحة الشرك. وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ أي : ولا أرسلنا إليهم نذيرا ينذرهم بالعقاب إن لم يشركوا ، ويدعوهم إليه ، إذ لا وجه له ، فمن أين وقع لهم هذه الشبهة؟ وهذا فى غاية التجهيل لهم ، والتسفيه لرأيهم.

ثم هددهم بقوله : وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أي : وكذّب الذين تقدموا من الأمم الماضية ، والقرون الخالية ، الرسل ، كما كذّب هؤلاء. وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ أي : وما بلغ أهل مكة عشر ما أوتى الأولون ، من طول الأعمار ، وقوة الأجرام ، وكثرة الأموال والأولاد ، وتوالى النعم ، والظهور فى البلاد. والمعشار : مفعال ، من : العشر ، ولم يأت هذا البناء إلا فى العشرة والأربعة. قالوا : معشار ومرباع. وقال فى القوت : المعشار : عشر العشر.

فَكَذَّبُوا رُسُلِي أي : فكذبت تلك الأمم رسلى ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ أي : فانظر كيف كان إنكارى عليهم

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٥

بالهلاك والتدمير. فالنكير : مصدر ، كالإنكار معنى ، وكالنذير وزنا. و(كيف) للتعظيم ، لا لمجرد الاستفهام ، أي :

فحين كذبوا رسلى جاءهم إنكارى بالتدمير والاستئصال ، ولم تغن عنهم تلك الأموال والأولاد ، وما كانوا مستظهرين به من الرئاسة والجاه ، فليحذر هؤلاء أن يحل بهم مثل [ما حل] «١» بأولئك لمشاركتهم لهم فى الكفر والعدوان.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنّة ماضية ، وكل من ظهر بخصوصية يجذب الناس إلى اللّه ، ويخرجهم من عوائدهم ، قالوا : ما هذا إلا سحر مفترى ، وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، فحين كذّبوا أولياء

زمانهم حرموا بركتهم ، فبقوا فى عذاب الحرص والتعب ، والهلع والنصب. قال القشيري : إن الحكماء والأولياء – الذين هم الأئمة فى هذه الطريقة – إذا دلوا الناس على اللّه ، قال إخوانهم من إخوان السوء – وربما كان من الأقارب وأبناء الدنيا :

من ذا الذي يطيق هذا؟ ولا بد من الدنيا مادمت تعيش! .. وأمثال هذا كثير ، حتى يميل ذلك المسكين من قبل النصح ، فيهلك ويضل. هـ. باختصار. وقال فى قوله تعالى : وَما آتَيْناهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَها .. ما حاصله : إن أرباب القلوب إذا تكلموا بالحقائق ، على سبيل الإلهام والفيض ، لا يطلب منهم البرهان على ما نطقوا به ، فإذا طالبهم أهل القبلة بذلك ، فسبيلهم السكوت عنهم ، حتى يجيب عنهم الحق تعالى. هـ. وباللّه التوفيق.

ثم أمر بالتفكر والاعتبار ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٦]

قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ (٤٦)

قلت : «أن تقوموا» : بدل من «واحدة» ، أو خبر عن مضمر.

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم : إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ بخصلة واحدة ، وهى : أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ أي : لوجه اللّه خالصا ، لا لحمية ، ولا عصبية ، بل لطلب الحق والاسترشاد. فالقيام على هذا معنوى ، وهو القصد والتوجه بالقلب ، وقيل : حسى ، وهو قيامهم وتفرقهم عن مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فيقوم كل واحد منفردا بنفسه ، يتفكر ، أو مع صاحبه. وهذا معنى قوله : مَثْنى وَفُرادى أي : اثنين اثنين ، أو فردا فردا. والمعنى :

أعظكم بواحدة أن تعملوا ما أصبتم الحق ، وتخلصتم من الجهل. وهى أن تقوموا وتنهضوا اللّه ، معرضين عن المراء

---

(١) فى النسخة الأم [ما حق].

والتقليد ، متفرقين اثنين اثنين ، أو واحدا واحدا فإنّ الازدحام يشوّش الخاطر ، ويخلط القول ، ويمنع من الرّوية ، ويقلّ فيه الإنصاف ، ويكثر الاعتساف.

ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا فى أمر محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وما جاء به ، حتى تعلموا أنه حق ، أما الاثنان

فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر الصدق والإنصاف ، حتى يؤديهما النظر الصحيح إلى الحق ، وكذلك المفرد ، يتفكر فى نفسه ويعرض فكره على عقله. فإذا تفكرتم بالانصاف عرفتم أن ما بِصاحِبِكُمْ يعنى محمدا صلى اللّه عليه وسلم مِنْ جِنَّةٍ من جنون ، وهذا كقوله : أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ «١».

ومنهم من يقف على «تتفكروا» ثم يستأنف النفي. قال القشيري : يقول : إذا سوّلت لكم أنفسكم تكذيب الرسل ، فأمعنوا النظر ، هل ترون فيهم آثار ما رميتموهم به – هذا محمد صلى اللّه عليه وسلم قلتم ساحر ، فأين آثار السحر فى أحواله وأفعاله وأقواله؟ قلتم : فأىّ قسم من أقسام الشعر كلامه؟ قلتم مجنون ، فأىّ جنون ظهر منه؟ وإذا عجزتم فهلا اعترفتم به أنه صادق؟!. هـ.

إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَدِيدٍ أي : قدّام عذاب شديد ، وهو عذاب الآخرة ، وهو كقوله صلى اللّه عليه وسلم : «بعثت بين يدى الساعة» «٢».

الإشارة : فكرة الاعتبار تشد عروة الإيمان ، وفكرة الاستبصار تشد عروة الإحسان ، فأول ما يتفكر فيه الإنسان فى أمره صلى اللّه عليه وسلم ، وما جاء به من العلوم اللدنية ، والأسرار الربانية ، مع ما أخبر به من قصص القرون الماضية ، والشرائع المتباينة ، مع كونه أميا ، لم يقرأ ، ولم يطالع كتابا قط ، وما أخبر به من أمر الغيب ، فوقع كما أخبر ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، وما اتصف به عليه الصلاة والسلام من الأخلاق الحسنة ، والشيم الزكية ، وما كان عليه من سياسة الخلق ، مع مشاهدة الحق. وهذا لا يطاق إلا بأمر ربانى ، وتأييد إلهى. فإذا أشرقت على قلبه أنوار النبوة ، ترقى بها إلى أنوار الربوبية ، فيتفكر فى عجائب السموات والأرض ، فيعرف عظمة صانعها ، فإذا سقط على شيخ عارف باللّه أدخله فكرة العيان ، فيغيب عن نظرة الأكوان ، ويبقى المكوّن وحده. كان اللّه ولا شىء معه ، وهو الآن على ما عليه كان.

---

(١) من الآية ١٨٤ من سورة الأعراف.

(٢) بعض حديث ، أخرجه أحمد فى المسند (٢/ ٥٠) وابن أبى شيبة فى مصنفه ، من حديث سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه (٥/ ٣١٣) ، وانظر : مجمع الزوائد (٥/ ٢٦٧) ، وجاء معنى الجملة عند البخاري ومسلم بلفظ : «بعثت أنا والساعة كهاتين» أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب : قول النبي صلى اللّه عليه وسلم : «بعثت أنا والساعة كهاتين» ح ٦٥٠٤) ومسلم فى (الفتن ، باب قرب الساعة ، ٤/ ٢٢٦٨ ، ح ٢٩٥١) من حديث أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٧

ثم بيّن أنه لا يطلب أجرا على الإنذار إزاحة للتهمة عنه ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : آية ٤٧]

قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٤٧)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ ما سَأَلْتُكُمْ عليه أي : على إنذارى وتبليغ الرسالة مِنْ أَجْرٍ ، إذ لو كنت كذلك لا تهمتمونى أنى أطمع فى أموالكم. وما طلبت من ذلك فَهُوَ لَكُمْ ، ومعناه : نفى سؤاله الأجر رأسا. نحو : ما لى فى هذا فهو لك ، وما تعطنى تصدق به على نفسك. إِنْ أَجْرِيَ فى ذلك إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ فيعلم أنى لا أطلب الأجر فى نصيحتكم ، ودعائكم إليه ، إلا منه تعالى.

الإشارة : تقدم مرارا أن الدعاة إلى اللّه ينبغى لهم أن يتنزّهوا عن الطمع فى الناس جهدهم ، ولو اضطروا إلى ذلك إذ لا يقع النفع العام على أيديهم إلا بعد الزهد التام ، والتعفف التام عما فى أيدى الناس ، فإذا تحققوا بهذا الأمر جعلهم اللّه حجة ، يدمغ بهم على الباطل ، كما قال تعالى :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٤٨ الى ٥٠]

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (٤٨) قُلْ جاءَ الْحَقُّ وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ (٤٩) قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (٥٠)

يقول الحق جل جلاله : قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ أي : بالوحى ، فيرمى به على الباطل ، من الكفر وشبهه ، فيدمغه ، أو : يرمى به إلى أقطار الآفاق ، فيكون وعدا بإظهار الإسلام ، أو : يلقيه وينزله إلى أنبيائه.

والقذف : رمى السهم ونحوه بدفع واعتماد ، ويستعار لمطلق الإلقاء ، ومنه : وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ «١». تم وصف الرب بقوله : عَلَّامُ الْغُيُوبِ أي : هو علام الغيوب.

قُلْ جاءَ الْحَقُّ أي : الإسلام ، أو : القرآن ، وَما يُبْدِئُ الْباطِلُ وَما يُعِيدُ أي : زال الباطل وهلك ، لأن الإبداء والإعادة من صفات الحي ، فعدمهما عين الهلاك ، والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل ، كقوله : جاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْباطِلُ «٢» قال الكواشي : المعنى : ذهب الباطل لمجىء الحق ، فلم يبق له بقية حتى يبدئ شيئا أو يعيده. ثم

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة الأحزاب.

(٢) الآية ٨١ من سورة الإسراء.

قال : وهذا مثل ، يقال : فلان لا يبدئ ولا يعيد ، إذا كان لا يلتفت إليه ولا يعتمد عليه. وقال الهروي : الباطل : إبليس ، ما يبدىء ولا يعيد : لا يخلق ولا يبعث ، واللّه تعالى هو المبدئ المعيد ، ومعناهما : الخالق الباعث. وقال فى الصحاح :

وفلان ما يبدئ وما يعيد ، أي : ما يتكلم ببادية ولا عائدة ، ومثله فى القاموس.

والحاصل : أنه عبارة عن زهوق الباطل ، حتى لا يبقى له ظهور. وعن ابن مسعود رضي اللّه عنه دخل النبىّ صلى اللّه عليه وسلم مكة يوم الفتح ، وحول الكعبة أصنام ، فجعل يطعنها بعود ، فتقطع لقفاها ، ويقول : «جاء الحقّ وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا. قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد» «١».

ولما قالوا له صلى اللّه عليه وسلم : قد ضللت بترك دين آبائك قال اللّه تعالى : قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ عن الحق فَإِنَّما أَضِلُّ عَلى نَفْسِي فإن وبال ضلالى عليها ، وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي أي : فبتسديده بالوحى إلىّ. وكان قياس المقابلة أن يقال : وإن اهتديت فإنما أهتدى لها ، كقوله : فَمَنِ اهْتَدى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها «٢» ، ولكن هما متقابلان معنى لأنّ النفس كلّ ما يضرها فهو بسببها ، وما لها مما ينفعها ، فهو بهداية ربها وتوفيقه ، وهذا حكم عمل لكل مكلّف. وإنما أمر رسوله أن ينسبه إلى نفسه تشريعا لغيره لأنه إذا كان هذا له مع جلالة قدره فما باله بغيره؟. إِنَّهُ سَمِيعٌ لما أقوله لكم ، قَرِيبٌ منى ومنكم ، فيجازينى ويجازيكم على ما أخفيتم وما أعلنتم.

الإشارة : الحق هو العلم باللّه ، والباطل الجهل باللّه ، أو : ما سوى اللّه ، فإذا حصل للعبد العلم باللّه غاب عنه كل ما سواه ، وما بقي فى الوجود إلا اللّه ، وفى ذلك يقول الشاعر :

فلم يبق إلا اللّه لم يبق كائن فما ثم موصول ولا ثم بائن

بذا جاء برهان العيان فما أرى بعيني إلا عينه إذ أعاين

وفى القوت فى تفسير الآية : أي : لما جاء الحق أبطل الباطل وأعاده ، فأظهر حقيقة الأمر بدءا وعودا ، أي :

كشف ما يبدىء الباطل للابتداء ، وما يعيد على العبد من الأحكام ، يعنى : أن نور الحق يكشف حقيقة الباطل وضرر عاقبته ، وقبحه فى ذاته. واللّه أعلم. هـ. ومن رمى بباطل أو بدعة ، وهو محقق بالحق ، متمسك بالسنة النبوية ، فليقل لمن رماه : (إن ضللت فإنما أضل على نفسى ..) الآية.

---

(١) أخرجه البخاري فى (المظلم ، باب : هل تكسر الدنان التي فيها خمر ، ح ٢٤٧٨) ومسلم فى (الجهاد والسير ، باب إزالة الأصنام من حول الكعبة ٣/ ١٤٠٨. ح ١٧٨١) من حديث عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ٤١ من سورة الزمر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٠٩

ثم ذكر حسرة من فاته الإيمان فى إبّانه ، فقال :

[سورة سبإ (٣٤) : الآيات ٥١ الى ٥٤]

وَلَوْ تَرى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

قلت : «مريب» : اسم فاعل ، من : أراب ، أي : أتى بريبة ، وأربته : أوقعته فى الريبة. ونسبة الإرابة إلى الشك مجاز. والمراد : وصفه بالشدة والإظلام ، بحيث إنه يوقع فى شك آخر.

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ تَرى يا محمد ، أو : يا من تصح منه الرؤية ، الكفرة. إِذْ فَزِعُوا حين فزعوا عند صيحة البعث ، لرأيت أمرا فظيعا هائلا ، فَلا فَوْتَ أي : لا مهرب لهم ، أو : فلا يفوتون اللّه ولا يسبقونه. وَأُخِذُوا إلى النار مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ من المحشر إلى قعر جهنم. أو : ولو ترى إذ فزعوا عند الموت فلا فوت منه ، وأخذوا من ظهر الأرض إلى بطنها ، أو : إذ فزعوا يوم بدر ، وأخذوا من صحراء بدر إلى القليب.

وَقالُوا حين عاينوا العذاب : آمَنَّا بِهِ أي : بمحمد صلى اللّه عليه وسلم لمرور ذكره فى قوله : ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ «١» أو : باللّه ، أو : بالقرآن المذكور فى قوله : فَبِما يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي وَأَنَّى لَهُمُ التَّناوُشُ أي : التناول. من قرأه بالواو «٢» فوجهه : أنه مصدر : ناش ، ينوش ، نوشا ، أي : تناول ، وهى لغة حجازية ، ومنه : تناوش القوم فى الحرب : إذا تدانوا ، وتناول بعضهم بعضا ، أي : ومن أين لهم تناول التوبة وقد بعدت عنهم ، يعنى أن التوبة كانت منهم قريبة ، تقبل منهم فى الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا وبعدت عن الآخرة. وقيل : هو تمثيل لطلبهم ما لا يكون ، وهو أن ينفعهم إيمانهم فى ذلك الوقت ، كما نفع المؤمنين إيمانهم فى الدنيا ، فمثّلت حالهم بحال من يريد أن يتناول

---

(١) الآية ٤٦ من السورة. [.....]

(٢) قرأ أبو عمرو ، وأبو بكر ، وحمزة ، والكسائي (التناوش) بالهمزة ، وقرأ الباقون (التناوش) بالواو من غير همز.

الشيء من غلوة كما يتناوله الآخر من ألف ذراع. ووجه من قرأه بالهمز : أنه مصدر : تناءش ، بمعنى أبطأ ، أو :

بعد ، يقال : تناءشت الشيء : أخذته من بعد. والنئيش : الشيء البطيء ، كما قال الشاعر :

وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخير «١».

أي : جئت بطيئا. وقيل : الهمز بدل الواو ، كالصائم ، والقائم ، وأقتت. والمعنى : ومن أين لهم حصول الإيمان المتعذر بعد حصول البعد عن وقته.

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ حصول العذاب ، أو : قبل الموت فى الدنيا ، وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ ، هو عطف على «كفروا» على حكاية الحال الماضية ، أي : وقد كفروا فى الدنيا ، ورموا بظنونهم فى الأمور المغيبة ، فقالوا : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار. مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ عن الحق والصواب ، أو : هو قولهم فى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، شاعر ، ساحر ، كذاب ، وهو رجم بالغيب إذ لم يشاهدوا منه سحرا ولا شعرا ولا كذبا. وقد أتوا بهذا الأمر من جهة بعيدة من حاله صلى اللّه عليه وسلم إذ لم يعرفوه إلا بالصدق ، والأمانة ، ورجاحة العقل.

وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ من نفع الإيمان يومئذ ، والنجاة به من النيران ، والفوز بنعيم الجنان ، أو بين الرد إلى الدنيا ، كما حكى عنهم بقوله : فَارْجِعْنا نَعْمَلْ صالِحاً «٢» كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ أي :

بأشباههم من الكفرة الدارجة من قبلهم ، فإنه قد حيل بينهم وبين ما يشتهون من الإيمان والعمل الصالح بالموت ، وهذه الأفعال كلها تقع فى المستقبل ، عبّر عنها بالماضي لتحقق وقوعها. إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ فى أمر الرسول والبعث ، مُرِيبٍ : موقع للريبة ، أو : ذى ريبة ، نعت به للمبالغة. وفيه رد على من زعم أن اللّه لا يعذّب على الشك ، قاله النسفي.

الإشارة : قوم غفلوا عن تحقيق الإيمان ، وتربيته ، بصحبه أهل الإيقان ، حتى إذا كشف – بعد الموت – عن مقامهم القصير ، ومكانهم البعيد ، قالوا : آمنا وتيقنا ، وأنى لهم التناوش من مكان بعيد. وقوم اشتغلوا بالبطالة والتقصير ، وصرفوا فى الشهوات والحظوظ عمرهم القصير ، وتوغلوا فى أشغال الدنيا وزخارفها ، فذهلوا عن الجد والتشمير ، فإذا انقضت عنهم أيام الدنيا حيل بينهم وبين ما يشتهون ، من اغتنام الأوقات ، وتعمير الساعات ، لنيل المراتب والدرجات ، وهنالك يقع الندم حين لم ينفع ، ويطلب الرجوع فلا يسمع.

---

(١) عجز بيت ، وهو كما فى القرطبي (٦/ ٥٥٥٣) :

قعدت زمانا عن طلابك للعلا وجئت نئيشا بعد ما فاتك الخبر

(٢) من الآية ١٢ من سورة السجدة.

(٥١٠/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١١

قال القشيري : إذا تابوا – وقد أغلقت الأبواب ، وندموا – وقد تقطعت بهم الأسباب ، فليس إلا الحسرات مع الندم ، ولات حين ندامة! كذلك من استهان بتفاصيل فترته ، ولم يستفق من غفلته فتجاوز حده ، ويعفى عنه كرّه.

فإذا استمكن فى القسوة ، وتجاوز فى سوء الأدب حدّ القلة ، وزاد على مقدار الكثرة ، فيحصل لهم من الحق ردّ ، ويستقبلهم حجاب البعد. فعند ذلك لا يسمع لهم دعاء ، ولا يرحم لهم بكاء ، كما قيل ، وأنشد :

فخلّ سبيل العين بعدك للبكا فليس لأيام الصفاء رجوع. هـ

وقوم شمروا عن سابق الجد والتشمير ، ولم يقنعوا من مولاهم بقليل ولا كثير ، قد انتهزوا فرصة الأعمار ، ولم يشغلهم عن اللّه ربع ولاديار ، عمّروا أوقاتهم بالذكر والتذكار ، وفكرة الاعتبار والاستبصار ، حتى وردوا دار القرار ، أولئك المصطفون الأخيار ، يدفع اللّه تعالى بهم عن أهل الدنيا الأنكاد والأغيار ، ويكشف عن قلوبهم الحجب والأستار. وقوم حققوا مقام الإيمان ، واشتغلوا بتربيته ، بصحبة أهل الإيقان ، حتى أفضوا إلى مقام العيان ، فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين. جعلنا اللّه من خواصهم بمنّه وكرمه ، وبمحمد نبيه وحبه صلى اللّه عليه وسلم وعلى آله وصحبه.

(٥١١/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٢

(٥١٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٣

سورة فاطر

مكية. وآيها ست – أو خمس – وأربعون. ومناسبتها لما قبلها : أن صدرها استدلال على عظم ذاته ، وباهر قدرته ، وتحقيق رسالة نبيه ، بجعل الملائكة رسلا إليه ، ففيها إزاحة للشك ، وقلع للريب ، الواقع فى قلوب الكفرة ، الذي ختمت به السورة ، فكأنه تعالى حمد نفسه على إظهار شأنه ، وإن لم

يحمده عتاة خلقه.

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)

قلت : (أولى) : اسم جمع ، كذو ، وهو بدل من «رسلا» ، أو نعت له ، ومَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ : نعوت لأجنحة ، وهو غير منصرف لأنه معدول عن اثنين اثنين ، وثلاثة ثلاثة ، وهو باعتبار الأشخاص ، أي : منهم من له اثنان ، ومنهم من له ثلاثة ، هذا ظاهر الكشاف.

يقول الحق جل جلاله : الْحَمْدُ لِلَّهِ ، حمد نفسه تعليما وتعظيما ، فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ مبديهما ومبدعهما. قال ابن عباس رضي اللّه عنه : «ما كنت أدرى معنى فاطر حتى اختصم إليّ أعرابيان فى بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها ، أي : ابتدأتها». قال البيضاوي : من الفطر ، بمعنى الشق ، كأنه شق العدم بإخراجهما منه. قلت :

وكأنه شق النور الكثيف من النور اللطيف ، فنور السموات والأرض من نوره الأزلى ، وسره الخفي.

جاعِلِ الْمَلائِكَةِ رُسُلًا إلى عباده ، أي : وسائط بين اللّه وبين أنبيائه والصالحين من عباده ، فيبلغون إليهم رسالاته بالوحى ، والإلهام ، والرؤيا الصادقة. أُولِي أَجْنِحَةٍ متعددة مَثْنى وَثُلاثَ وَرُباعَ أي : منهم ملائكة لهم اثنان لكل واحد جناحان ، ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، بتفاوت ما لهم من المراتب ، ينزلون بها ، ويعرجون ، أو : يسرعون نحو ما وكلهم اللّه عليه ، يتصرفون فيه على ما أمرهم به ، ولعله تعالى لم يرد الحصر ونفى ما زاد عليها ، لما روى أنه صلى اللّه عليه وسلم رأى جبريل ليلة المعراج ، وله ستمائة جناح «١». وروى أنه طلب منه أن يريه

---

(١) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب إذا قال أحدكم «آمين» ح ٣٢٣٢) ومسلم فى (الإيمان ، باب ذكر سدرة المنتهى ١/ ١٥٨ ، ح ١٧٤) من حديث ابن مسعود رضي اللّه عنه ، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

صورته التي خلقه اللّه عليها ، فلما رآه كذلك خرّ مغشيا عليه. وقال : ما كنت أرى شيئا من الخلق هكذا. فقال له : لو رأيت إسرافيل ، إنّ له لاثنى عشر جناحا بالمشرق ، واثنى عشر جناحا بالمغرب ،

وإنّ العرش لعلى كاهله ، وإنه ليتضاءل لعظمة اللّه تعالى «١» هـ.

يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ أي : يزيد فى خلق الأجنحة وغيره ما يريد. وقيل : هو الوجه الحسن ، والشعر الحسن ، والصوت الحسن ، والحظّ الحسن ، والملاحة فى العينين. والآية مطلقة تتناول كلّ زيادة فى الخلق ، من طول قامة ، واعتدال صورة ، وتمام فى الأعضاء ، وقوة فى البطش ، وحصافة العقل ، وجزالة فى الرأى ، وفصاحة فى اللسان ، وحسن خلق فى المعاشرة ، ومحبة فى قلوب المؤمنين وغير ذلك. إِنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ فيقدر على ما يشاء ، من زيادة فى الخلق ، ونقصان فيها ، على حسب المشيئة السابقة.

الإشارة : الحمد فى القرآن وقع على أربعة أقسام : حمد مطلق ، وهو الواقع على عظمة ذاته ، من غير أن يكون فى مقابلة شىء ، وهو قوله : قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلى عِبادِهِ الَّذِينَ اصْطَفى «٢» ، الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ «٣» ، وحمد وقع فى مقابلة تنزيه ذاته عن النقائص ، وهو قوله : وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً ... «٤» الآية. وحمد وقع فى مقابلد نعمة الإيجاد ، وهو قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ .. «٥» ، وحمد وقع فى مقابلة نعمة الإمداد الحسى ، كقوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ ، فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٦» ، فإن التربية تقتضى وصول ما يحتاج إليه المربّى ، أو الإمداد المعنوي ، وهو إمداد القلوب والأرواح بالهداية ، وهو قوله : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ «٧» الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا .. «٨» فهذه أربعة : حمد مطلق ، أو مقيد بشأن التنزيه ، أو بنعمة الإيجاد ، أو الإمداد ، وما وقع هنا فى إظهار تجلياته ، من أرضه وسماواته ، ولطائف ملائكته ، فإن ذلك كله من نور جبروته.

وقوله تعالى : يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ قال القشيري : يقال : هو الفهم عن اللّه ، أو السخاء والجود ، أو :

الرضا بالتقدير ، أو : علو الهمة ، أو : التواضع فى الشرف ، أو : العفة فى الفقر ، أو : الظرف – أي : الظرافة – فى الشمائل ، أو : أن يكون محببا فى القلوب ، أو : خفة الروح ، أو : تحرّر القلب عن رقّ الحرمان – أي : بالوقوف مع الأكوان – أو : ألا يطلب لنفسه منزلة فى الدارين – أي : بأن يكون عبد اللّه حقيقة – . هـ. ملخصا.

---

(١) ذكره القرطبي (٦/ ٥٥٥٨) عن الزهري.

(٢) من الآية ٥٩ من سورة النمل.

(٣) من الآية ٧٥ من سورة النحل.

(٤) الآية ١١١ من سورة الإسراء.

(٥) من الآية الأولى من سورة الأنعام.

(٦) الآية ٣٦ من سورة الجاثية.

(٧) الآية الأولى من سورة الكهف.
(٨) من الآية ٤٣ من سورة الأعراف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٥
والصواب أن الزيادة تشمل ذلك كله ، وكل من خصه بشيء فإنما ذلك رحمة منه تعالى ، كما قال تعالى :
[سورة فاطر (٣٥) : آية ٢]
ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢)
يقول الحق جل جلاله : ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ أي : ما يطلق ويرسل من رحمة ، كنعمة ، ومطر ، وأمن ، وعافية ، ورزق ، وعلم ، ومعرفة ، ونبوة ، وغيرها ، فَلا مُمْسِكَ لَها فلا أحد يقدر على إمساكها وردها ، واستعير الفتح للإطلاق لأنه مسبب عنه. ونكّر الرحمة للإشاعة والإبهام ، كأنه قال : من أيّ رحمة كانت ، فتشمل نعمة الدفع والجلب ، كدفع المحن وجلب المنن. والاعتراف بالمنعم من تمام النعمة ، والأمران مدرجان فى الفتح والإمساك ، وَما يُمْسِكْ أي : يمنع ويحبس من ذلك فَلا مُرْسِلَ لَهُ فلا مطلق له مِنْ بَعْدِهِ من بعد إمساكه. وأنث الضمير الراجع إلى الاسم المتضمّن معنى الشرط على معنى الرحمة ، وذكّره حملا على لفظ المرجوع إليه إذ لا تأنيث فيه لأن الأول فسرّ بالرحمة ، فحسن إتباع الضمير التفسير ، ولم يفسر الثاني فترك على أصل التذكير.
وعن معاذ رضي اللّه عنه مرفوعا : «لا تزال يد اللّه مبسوطة على هذه الأمة ما لم يرفق خيارهم بشرارهم ، ويعظّم برّهم فاجرهم ، وتعن قراؤهم على أمراءهم على معصية اللّه. فإذا فعلوا ذلك نزع اللّه يده عنهم» «١» قال ابن عرفه : يؤخذ من قوله تعالى : وَما يُمْسِكْ .. أن العدم السابق الإضافى متعلق للقدرة ، وجعله بعض الأصوليين متعلقا للإرادة أيضا ، وذلك لأن المصحح للتعلق الإمكان. هـ. قال الأبى : لا دليل فى الآية لاحتمال أن يكون التقدير : وما يريد إمساكه ، فيكون من متعلقات الإرادة ، ويحتمل : وما يمسك عن الإرسال بعد وجوده ، كإمساك الماء عن النزول بعد خلقه فى السحاب. هـ. وَهُوَ الْعَزِيزُ الغالب ، القادر على الإرسال والإمساك. الْحَكِيمُ الذي يرسل ويمسك ، بما تقتضى الحكمة إرساله ، أو إمساكه.
الإشارة : ما يفتح اللّه لقلوب عباده من نفحات ، وواردات ، وإلهامات ، وعلوم لدنية ، وحكم ربانية ، وتعرفات جمالية وجلالية ، فلا ممسك لها ، بل اللّه يفتح على من يشاء ، ويسد الباب فى وجه من شاء. وسد الباب فى وجه العبد عن معرفته الخاصة ، علامته : عدم إيصاله إلى أوليائه. فكل من وصله

إليهم ، وصحبهم ، وعظّمهم ، وخدمهم ،

---

(١) ذكر نحوه العراقي فى المغني (٢/ ١٦٤) وعزاه لأبى عمرو الداني ، فى كتاب الفتن ، من رواية الحسن ، مرسلا ، بلفظ : (لا تزال هذه الأمة تحت يد اللّه وكنفه ما لم يمالىء قراؤها أمراءها) وقال العراقي. ورواه الديلمي فى مسند الفردوس ، من حديث علىّ ، وابن عمر ، بلفظ : «ما لم يعظم أبرارها فجارها ، ويداهن خيارها شرارها ، وإسنادهما ضعيف.

فقد فتح اللّه له الباب فى وصوله إليه ، وكل من نكبه عنهم ، ولم يصحبهم ، كما ذكر ، فقد سد الباب فى وجهه عن معرفته العيانية. وفى الحكم : «سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه» «١». وما يمسك من ذلك فلا مرسل له من بعده ، ولو صلى وصام ألف عام. قال القشيري : ما يلوح لقلوب العارفين من أنوار التحقيق لا سحاب يستره ، ولا ضباب يقهره. ويقال : ما يلزم قلوب أوليائه وأحوالهم من التيسير فلا ممسك له ، والذي يمنع من أعدائه – بسبب ما يلقيهم فيه من انغلاق الأمور واستصعابها – فلا ميسّر له من دونه. هـ.

وباللّه التوفيق.

ثم ذكّرهم بالنعم لأن تذكر النعم سبب الفتح ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣ الى ٤]

يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤)

قلت : «غير اللّه» : من رفعه فنعت للمحل ، أي : هل خالق غير اللّه ، ومن جره : فنعت للفظ.

و«يرزقكم» : إما استئناف ، أو : صفة ثانية لخالق ، و«لا إله إلا هو» : مستأنفة ، لا محل لها.

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ باللسان والقلب ، وهى التي تقدمت ، من بسط الأرض كالمهاد ، ورفع السماء بلا عماد ، وإرسال الرسل للهداية والإرشاد ، والزيادة فى الخلق ، وفتح أبواب الرزق. ثم نبّه على أصل النعم ، وهو توحيد المنعّم ، فقال : هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ بالمطر وَالْأَرْضِ بالنبات ، بل لا خالق يرزق غيره ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ. فمن أىّ وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

ثم سلّى نبيه عن صدف قومه عن شكر المنعم بقوله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ، فلك

فيهم أسوة ، فاصبر كما صبروا. وتنكير «رسل» للتعظيم ، المقتضى لزيادة التسلية ، والحث على المصابرة ، أي : فقد

---

(١) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/ ١٣ ، حكمة/ ١٥٦). [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٧

كذّبت رسل عظام ، ذوو عدد كثير ، وأولو آيات عديدة ، وأهل أعمار طوال ، وأصحاب صبر وعزم.

وتقدير الكلام :

وإن يكذبوك فتأسّ بتكذيب الرسل قبلك لأن الجزاء يعقب الشرط ، ولو أجرى على الظاهر ، لكان الجزاء مقدما على الشرط لأن تكذيب الرسل سابق ، فوضع فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ موضع فتأسّ ، استغناء بالسبب عن المسبب. وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ، وهو كلام مشتمل على الوعد والوعيد ، من رجوع الأمور إلى حكمه ، ومجازاة المكذّب والمكذّب بكل ما يستحقه فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بالنصر والعز لأهل الحق ، وبالذل والإهانة لأهل التكذيب ، وفى الآخرة معلوم ، فالإطلاق أحسن من التقييد بالآخرة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : ذكر النعمة هو أن ينظر العبد ، ويتفكر فى نفسه ، فيجد نفسه مغروقة فى النعم الظاهرة والباطنة. وقد تقدم تعدادها فى لقمان «١». وليتفكر فى حالته الماضية ، فقد كان جاهلا ، فعلّمه اللّه ، ضالا ، فهداه اللّه ، غافلا ، فأيقظه اللّه ، عاصيا ، فوفقه اللّه ، إلى غير ذلك من الأحوال السنية. ولينظر أيضا إلى من تحته من العباد ، فيجد كثيرا من هو أسوأ منه حالا ومقاما ، فيحمد اللّه ويشكره. قال صلى اللّه عليه وسلم : «انظروا إلى من هو تحتكم ولا تنظروا إلى من فوقكم فهو أجدر ألا تزدروا نعمة اللّه عليكم» «٢». وحمله المحققون على العموم فى الدين والدنيا. ذكره ابن عباد فى الرسائل وغيره.

وقال عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه : تذاكروا النعم فإن ذكرها شكر. هـ. وقال القشيري : من ذكر نعمته فصاحب عبادة ، ونائل زيادة ، ومن ذكر المنعم فصاحب إرادة ، ونائل زيادة ، ولكن فرق بين زيادة وزيادة ، هذا زيادته فى الدارين عطاؤه ، وهذا زيادته لقاؤه ، اليوم سرّا بسرّ ، من حيث المشاهدة ، وغدا جهرا بجهر ، من حيث المعاينة. هـ.

قلت : من تحقق بغاية الشهود لم يبق له فرق بين شهود الدارين إذا المتجلى واحد. ثم قال : والنعمة على قسمين :

ما دفع من المحن ، وما وضع من المنن ، فذكره لما دفع عنه يوجب دوام العصمة ، وذكره لما نفعه به يوجب تمام النعمة ، هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ ..؟ فائدة هذا التعريف بوحدانيته ، فإذا عرف أنه لا رازق غيره لم يعلّق قلبه بأحد فى طلب شيء. وتوهم شيء من أمثاله وأشكاله ، ويستريح لشهود تقديره ، ولا محالة يخلص فى توكله وتفويضه. هـ.

---

(١) راجع تفسير الآية ٢٠ من سورة لقمان.

(٢) أخرجه مسلم فى (الزهد والرقائق ٤/ ٢٢٧٥ ، ح ٢٩٦٣) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٨

ثم قال فى قوله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ ... الآية : وفى هذا إشارة للحكماء ، وأرباب القلوب ، مع العوامّ والأجانب عن هذه الطريقة ، فإنهم لا يقبلون منهم إلا القليل ، وأهل الحقائق منهم أبدا فى مقاساة الأذية ، إلا بستر حالهم عنهم ، والعوام أقرب إلى هذه الطريقة من القرّاء المتعمقين ، والعلماء المتجمدين ، الذين هم لهذه الأصول منكرون. هـ.

ثم حذّر من الدنيا لأنها تنسى النّعم والشكر ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٥ الى ٧]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث والجزاء حَقٌّ ، أي : كائن لا محالة ، فاستعدوا للقائه ، فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا لا تخدعنكم زخارف الدنيا الغرارة ، ولا يذهلنكم التمتع بها ، والتلذذ بملاذها ، والاشتغال بجمعها واحتكارها ، عن التأهب للقاء اللّه ، وطلب ما عنده. وفى الحديث : «فلا تخدعنكم زخارف دنيا دنية ، عن مراتب جنات عليه ، فكأن قد كشف القناع ، وارتفع الارتياب ، ولاقى كل امرئ مستقره ، وعرف مثواه ومنقلبه». وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ أي : الشيطان ، فإنه يمنّيكم الأمانى الكاذبة ، ويقول : إن اللّه غنى عن عبادتك وعن تكذيبك. أو : إن اللّه غفور لمن عصاه.

إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ظاهر العداوة ، فعل بأبيكم ما فعل ، وأنتم تعاملونه معاملة الحبيب الناصح ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا فلا تقبلوا غروره فى عقائدكم وأفعالكم ، وكونوا على حذر منه فى جميع أحوالكم إذ لا

يوجد منه إلا ما يدل على عداوته فى سركم وجهركم.
قال الورتجبي : إنه عدو لأنه من عالم القهر خلق ، ونحن من عالم اللطف خلقنا. والطبعان متخالفان أبدا ، لأن القهر واللطف تسابقا فى الأزل ، فسبق اللطف القهر ، فعداوته من جهة الطبع الأول ، والجهل بالعصمة ، وأنوار التأييد والنصرة ، ومن لا يعرفه بما وصفنا ، كيف يتخذه عدوا؟ وهو لا يعرف مكائده ، ولا يعرف مكائده إلا وليّ أو صدّيق. هـ.

(٥١٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥١٩
ثم خطّأ من اتبعه بأن غرضه أن يورد شيعته موارد الهلاك ، بقوله : إِنَّما يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ ، فهو تقرير لعداوته ، وبيان لغرضه فى دعوى شيعته إلى اتباع الهوى ، والركون إلى الدنيا ، أي : إنما يدعوهم إلى الهوى ، ليكونوا من أهل النار.
ثم بيّن مآل من اتبعه ومن عاداه ، فقال : الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ أي : فمن أجابه إلى ما دعى فله عذاب شديد لأنه صار من حزبه وأتباعه ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ولم يجيبوه ، ولم يصيروا من حزبه ، بل عادوه ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ لكبر جهاده ودوامه.
الإشارة : وعد اللّه هنا عام ، وكله حق ، واجب الوقوع ، لا يتخلف ، فيصدق بوعد الرزق ، وكفاية من انقطع إليه عن الخلق ، لقوله : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ «١» وتولى من أصلح حاله لقوله : وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ «٢» ، ويصدق بإثابة المطيع ، وعتاب العاصي ، أو : حلمه عنه ، وغير ذلك من المواعد كلها ، فيجب على العبد كفه عن الاهتمام بالرزق ، وخوف الخلق ، والتشمير فى الطاعة ، والفرار من المعصية ، إن كان له ثقة بوعد ربه ، وإلا فالخلل فى إيمانه.
وقوله تعالى : إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ... إلخ ، قوم فهموا من الخطاب أنهم أمروا بعداوة الشيطان ، فاشتغلوا بعداوته ومحاربته ، فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب ، وقوم فهموا من سر الخطاب : إن الشيطان لكم عدو ، وأنا لكم حبيب ، فاشتغلوا بمحبة الحبيب ، فكفاهم عداوة العدو. قيل لبعضهم : كيف صنعك مع الشيطان؟ فقال : نحن قوم صرفنا هممنا إلى اللّه ، فكفانا من دونه. فالشيطان كالكلب إن اشتغلت بدفعه مزّق الثياب ، أو قطع الإهاب ، وإن رفعته إلى مولاه كفاك شره. وكذلك النفس إن اشتغلت بتصفيتها ومجاهدتها على الدوام شغلتك عن ذكر اللّه ، والفناء فيه ، ولكن الدواء هو الغيبة عنها ، والاشتغال باللّه دائما ، فإذا أظهرت رأسها بقيام شهوتها ، دقّه ، بعكس مرادها ، وغب عنها فى ذكر اللّه. ومن حكم شيخنا البوزيدى رضي اللّه عنه : «أنس نفسك باللّه ، واعتمد على فضل اللّه ، وامتثل شيئا ما ، وينوب اللّه». «٣» وفى الحكم العطائية : «إذا علمت أن الشيطان لا يغفل

عنك ، فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده». وقال أيضا : «وحرّك عليك النفس ليدوم إقبالك عليه». وقال : «لو كنت لا تصل إليه إلا بعد فناء مساوئك ، ومحو دعاويك ، لم تصل إليه أبدا. ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه ، غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك ، لا بما منك إليك» «٤».

---

(١) من الآية ٣ من سورة الطلاق.

(٢) من الآية ١٩٦ من سورة الأعراف.

(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص/ ٢٣ ، حكمة/ ٢٣٦).

(٤) (ص/ ٣١ ، حكمة ١٣٠).

ومن جملة عداوته تزيين القبائح ، كما قال تعالى :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٨]

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ (٨)

قلت : «أفمن» : مبتدأ حذف خبره ، أي : كمن هداه اللّه ، أو ذهبت نفسك عليه حسرات.

و«حسرات» : مفعول له.

وجمعها لتضاعف اغتمامه ، أو تعدد مساوئهم. و«عليهم» : صلة لتذهب ، كما تقول : هلك عليه حبا ، ومات عليه حزنا. ولا يتعلق بحسرات لأن المصدر لا يتقدّم عليه صلته ، إلا أن يتسامح فى الجار والمجرور.

يقول الحق جل جلاله : أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ بأن غلب هواه على عقله ، وجهله على علمه ، حتى انعكس رأيه ، فَرَآهُ حَسَناً فرأى الباطل حقا ، والقبيح حسنا ، كمن هداه اللّه واستبصر ، فرأى الحق حقا ، والباطل باطلا ، فتبع الحق ، وأعرض عن الباطل ، ليس الأمر كذلك ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ ، فمن أضله رأى الباطل حقا ، فتبعه ، ومن هداه رأى الباطل باطلا ، فاجتنبه ، والحق حقا فاتبعه.

فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ أي : فلا تهلك نفسك عليهم للحسرات على غيهم وإصرارهم على التكذيب ، فإن أمرهم بيدي ، وأنا أرحم بهم منك ، فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ

بِما يَصْنَعُونَ فيجازيهم عليه ، وهو وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.
الإشارة : إذا أراد اللّه إبعاد قوم غطى نور بصيرتهم بظلمة الهوى ، فيزيّن فى عينهم القبيح ، ويستقبح المليح ، فيرون القبيح حسنا ، والحسن قبيحا ، كما قال الشاعر :
يغمى على المرء فى أيام محنته حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن
قال القشيري : ومعنى التزيين كالكافر يتوهّم أنّ فعله حسن ، وهو عند اللّه من أقبح القبيح ، ثم الراغب فى الدنيا يجمع حلالها وحرامها ، ويحوّش حطامها «١» ، لا يتفكر فى زوالها ، ولا فى ارتحاله عنها من قبل كمالها ، لقد زيّن له سوء عمله ، والذي يتبع الشهوات يبيع مؤبد راحته فى الجنة ، بمتابعة شهوة ساعة ، فلقد زين له سوء عمله ، والذي يؤثر على ربّه شيئا من المخلوقات ، فهو من جملتهم ، والذي يتوهّم أنه إذا وجد النجاة والدرجات فى الجنة

---

(١) أي : يجمعه ويدخره.

فقد اكتفى ، فقد زيّن له سوء عمله ، حيث تغافل عن حلاوة مناجاته. والذي هو فى صحبة حظوظه ، دون إيثار حقوق اللّه ، فقد زين له سوء عمله فرآه حسنا. هـ.
قلت : وكذلك من وقف مع الكرامات والمقامات ، وحلاوة الطاعات ، دون درجة المشاهدة ، فقد زين له سوء عمله. والحاصل : كل من وقف مع شيء ، دون تحقيق الفناء فى الذات ، فهو مزيّن له سوء عمله. وكل من لم يصحب الرجال فهو غالط ، يظن أنه واصل ، وهو منقطع فى أول البدايات. وباللّه التوفيق. وقوله تعالى : فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ ، كذلك يقال للواعظ ، إذا رأى إدبار الخلق ، وعدم تأثير الوعظ فيهم ، فليكتف بعلم اللّه فيهم ، ولا يتأسف على أحد ، فإن التوفيق بيد اللّه.
وربما يحييهم بعد حين ، كما يحيى الأرض بعد موتها ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
[سورة فاطر (٣٥) : آية ٩]
وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ فَتُثِيرُ سَحاباً فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها كَذلِكَ النُّشُورُ (٩)
قلت : «كذلك» : خبر مقدم ، و«النشور» : مبتدأ.
يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّياحَ ، وفى قراءة بالإفراد ، للجنس «١» ، فَتُثِيرُ سَحاباً أي : تزعجه ، وعبّر بالمضارع على حكاية الحال الماضية استحضارا لتلك الصورة البديعة ، التي تقع فيها

إثارة الرياح السحاب ، الدالة على كمال القدرة وباهر الحكمة. فَسُقْناهُ إِلى بَلَدٍ مَيِّتٍ لا نبات فيه ، فَأَحْيَيْنا بِهِ أي : بالمطر النازل منه الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها بعد يبسها. وعدل من الغيبة الى التكلم لأنه أدخل فى الاختصاص لما فيه من مزيد بديع الصنع ، كَذلِكَ النُّشُورُ أي : مثل إحياء الموات نشور الأموات. وقيل : يحيى اللّه الخلق بماء يرسله من تحت العرش ، كمنىّ الرجال ، فتنبت به الأجساد فى قبورها ، ثم يرسل الأرواح فتدخل فى أشباحها «٢». قال أبو رزين : قلت : يا رسول اللّه كيف يحيى اللّه الموتى؟ وما آية ذلك فى خلقه؟ فقال : «هل مررت بواد أهلك محلا؟ – أي : جدبا – قلت : نعم ، قال : فكذلك يحيى اللّه الموتى ، وتلك آية اللّه فى خلقه» «٣».

---

(١) قرأ ابن كثير ، وحمزة ، والكسائي (الريح) بالتوحيد ، وقرأ الباقون (الرياح) بالجمع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٢).

(٢) ذكره الطبري (٢٢/ ١١٩).

(٣) أخرجه أحمد فى المسند (٤/ ١١) والطبراني فى الكبير (١٩/ ٢٠٨ ح ٤٧٠) والطيالسي (ص ١٤٧ ح ١٠٨٩) عن أبى رزين العقيلي. قال الهيثمي فى المجمع (١/ ٨٥) : رجاله ثقات.

الإشارة : واللّه الذي أرسل رياح الهداية ، فتزعج سحاب الغين عن قلوب أهل الهداية ، فسقناه – أي : ريح الهداية – إلى قلب ميت بالغفلة والجهل باللّه ، فأحيينا بالوارد الناشئ عن ريح الهداية أرض النفوس ، بالنشاط إلى العبادة ، والذكر ، والمعرفة ، بعد موتها بالغفلة والقسوة ، كذلك النشور. وذلك عزها ، كما قال تعالى :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٠]

مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : مَنْ كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ أي : الشرف والمنعة على الدوام ، فى الدنيا والآخرة ، فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً فليطلبها من عنده ، بالتقوى ، والعلم ، والعمل الصالح ، كالزهد فى الدنيا ، والتبتل إلى اللّه ، أي : فالعزة كلها مختصة باللّه ، عز الدنيا وعز الآخرة. وكان الكفار يتعززون بالأصنام ، كما قال تعالى : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا «١» ، والمنافقون كانوا يتعززون بالمشركين ، كما قال تعالى : الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكافِرِينَ أَوْلِياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً

.. «٢» ، فبيّن أن العزة إنما هى للّه بقوله : «فإن العزة للّه» فليطلبها من أرادها من عنده. فوضع قوله : فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ موضعه ، استغناء به عنه لدلالته لأن الشيء لا يطلب إلا من عند صاحبه ومالكه. ونظيره قولك : من أراد النصيحة فهى عند الأبرار ، أي :

فليطلبها من عندهم. وفى الحديث : «إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز» «٣».

ثم ذكر ما يطلب به العز ، وهو العمل المقبول ، بقوله : إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ كلمة التوحية : لا إله إلا اللّه ، وما يلحقها من الأذكار ، والدعاء ، والقراءة. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «هو سبحان اللّه والحمد للّه ، ولا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر. إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء ، فحيّا بها وجه الرحمن «٤». وكان القياس : الطيبة ، ولكن كل جمع ليس بينه وبين واحدة إلا التاء يذكّر ويؤنّث. ومعنى الصعود : القبول والرضا ، وكل ما اتصف بالقبول وصف بالرفعة والصعود.

---

(١) الآية ٨١ من سورة مريم.

(٢) الآية ١٣٩ من سورة النساء.

(٣) ذكره ابن الجوزي فى الموضوعات (١/ ١٢٠) عن أنس رضي اللّه عنه. وقال ابن الجوزي : وهذا من تلصيص سعيد بن هبيرة العامري ، قال ابن عدى : كان يحدث الموضوعات.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري (٢٢/ ١٢٠) والحاكم – وصححه ووافقه الذهبي (٢/ ٤٢٥) – وأخرجه البيهقي فى الأسماء والصفات (٢/ ٣٤) والبغوي فى التفسير (٦/ ٤١٤ – ٤١٥) من حديث ابن مسعود ، موقوفا. [.....]

وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ كالعبادة الخالصة يَرْفَعُهُ اللّه تعالى ، أي : يقبله. أو : الكلم الطيب ، فالرافع على هذا الكلم الطيب ، والمرفوع العمل الصالح ، أي : والعمل الصالح يرفعه الكلم الطيب لأن العمل متوقف على التوحيد ، المأخوذ من الكلم الطيب وفيه إشارة إلى أن العمل يتوقف على الرفع ، والكلم الطيب يصعد بنفسه ، ففيه ترجيح الذكر على سائر العمل. وقيل : بالعكس ، أي : والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب ، فإذا لم يكن عمل صالح فلا يقبل منه الكلم الطيب. وقيل : والعمل الصالح يرفع العامل ويشرفه ، أي : من أراد العزّة والرفعة فليعمل العمل الصالح فإنه هو الذي يرفع العبد.

ثم ذكر سبب الذل فى الدارين ، فقال : وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ المكرات السَّيِّئاتِ ، فالسيئات : صفة لمصدر

محذوف لأن «مكر» لا يتعدى بنفسه. والمراد : مكر قريش برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين اجتمعوا فى دار الندوة كما قال تعالى : وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... «١» الآية. لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ فى الآخرة ، وَمَكْرُ أُولئِكَ هُوَ يَبُورُ أي : يفسد ويبطل ، دون مكر اللّه بهم ، فالضمير يفيد الاختصاص.

الإشارة : العز على قسمين : عز الظاهر ، وعز الباطن ، فعز الظاهر هو تعظيم الجاه وبعد الصيت ، واحترام الناس لصاحبه ، ولمن تعلق به ، وسببه : التقوى ، والعلم ، والعمل ، ومكارم الأخلاق كالسخاء ، والتواضع ، وحسن الخلق ، والإحسان إلى عباد اللّه. وعز الباطن : هو الغنى باللّه ، وبمعرفته ، والتحرر من رق الطمع ، والتحلي بحلية الورع. وسببه الذل للّه ، يظهر ذلك بين أقرانه ، كما قال الشاعر :

تذلّل لمن تهوى لتكسب عزة فكم عزة قد نالها المرء بالذّل

إذا كان من تهوى عزيزا ولم تكن ذليلا له فاقر السلام على الوصل

وغايته : الوصول إلى معرفة الشهود والعيان. فإذا تعزز القلب باللّه لم يلتفت إلى شيء ، ولم يفتقر إلى شيء ، وكان حرا من كل شيء ، عبدا للّه فى كل شيء. وقد يجتمع للعبد العزان معا ، إذا كان عارفا باللّه عاملا ، وقد ينفرد عز الظاهر فى أهل الظاهر ، وينفرد عز الباطن فى بعض أهل الباطن ، يتركهم تحت أستار الخمول ، حتى يلقوه وهم

---

(١) من الآية ٣٠ من سورة الأنفال.

عرائس الأولياء ، ضنّ بهم الحق تعالى عن خلقه ، فلم يظهرهم لأحد ، حتى قدموا عليه ، وهم الأولياء الأخفياء الأتقياء ، كما ورد مدحهم فى الحديث «١». وكلا العزين للّه ، وبيد اللّه ، فلا يطلب واحد منهما إلا منه سبحانه.

قال القشيري : وقال فى آية أخرى : وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ «٢» فأثبت العزة لغيره ، والجمع بينهما :

أن عزّة الربوبية للّه وصفا ، وعزّة الرسول والمؤمنين للّه فضلا ، ومنه لطفا ، فإذا العزة للّه جميعا. والكم الطيب هو الذي يصدر عن عقيدة طيبة ، وقلب طيب ، لا كدر فيه ولا أغيار ، وقيل : ما ليس فيه حظ للعبد ، وقيل : ما يستخرج من العبد ، وهو فيه مفقود ، وقيل : ما ليس فيه حاجة ، ولا يطلب عليه عوض ، وقيل : ما يشهد بصحته الإذن والتوقيف. انظر القشيري.

ويؤخذ من قوله : وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ أن العمل إذا بقي بين عين العبد يلحظه ، وينظر إليه ، فهو علامة على عدم قبوله ، إذ لو قبل لرفع عن نظره ، فلا عمل أرجى للقلوب من عمل يغيب عنك شهوده ، ويختفى لديك وجوده. والذين يمكرون بالأولياء ، المكرات السيئات ، لهم عذاب شديد ، وهو البعد من اللّه ، ومكر أولئك هو يبور. وأما الأولياء فهم فى حجاب مستور ، من كل مكر وخداع وغرور.

ثم ذكر أصل نشأتهم ليتحققوا ضعفهم ووهنهم ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١١]

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتابٍ إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١)

يقول الحق جل جلاله : وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ أي : أباكم مِنْ تُرابٍ ، ثُمَّ أنشأكم مِنْ نُطْفَةٍ ، ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجاً أصنافا ، أو : ذكرانا وإناثا ، وَما تَحْمِلُ مِنْ أُنْثى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ إلا معلومة له ، وقتا وكيفية ، وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ أي : وما يمد فى عمر أحد فيكون طويلا. وإنما سمّاه معمّرا لما هو صائر

---

(١) يشير الشيخ المفسر – رحمه اللّه – إلى حديث : «إن لله ضنائن من خلقه ، يغدوهم فى رحمته ، يحييهم فى عافية ، ويميتهم فى عافية ، وإذا توفاهم توفاهم إلى جنته ، أولئك الذي تمر عليهم الفتن كقطع الليل المظلم وهم بها فى عافية» ، عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٢٣٧٢) للطبرانى ، وأبى نعيم فى الحلية ، عن ابن عمر رضي اللّه عنه.

(٢) من الآية ٨ من سورة المنافقون.

إليه ، وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ أي : يكون عمره قصيرا إِلَّا فِي كِتابٍ أي : اللوح المحفوظ ، أو : صحيفة الإنسان. وقال ابن جبير : «مكتوب فى أول الكتاب : عمره كذا وكذا ، ثم يكتب أسفل ذلك : ذهب يوم ، ذهب يومان ، ذهب ثلاثة ، حتى ينقطع عمره» «١». ففسر النقص بالذهاب ، ولا يذهب شيء من عمره إلا فى كتاب. ويمكن أن يجرى على ظاهره ، باعتبار المحو والإثبات فى غير أم الكتاب ، كما ورد فى صلة الرحم وقطعها. وانظر عند قوله :

يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ ... «٢» إلخ. إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ أي : إحصاء الأعمار ، أو زيادتها ونقصانها ، سهل على علم اللّه وقدرته.

الإشارة : أصل نشأة الأشباح من الصلصال ، وأصل نشأة الأرواح من نور الكبير المتعال ، فمن غلبت

طينته على روحانيته ، وهواه على عقله ، التحق بالبهائم ، ومن غلبت روحانيته على بشريته ، وعقله على هواه ، التحق بالملائكة الكرام.

وقوله تعالى : وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ .. الآية ، طول العمر وقصره عند الحكماء ، ليس هو بكثرة آماده ، وإنما هو بكثرة أمداده. وفى الحكم : «ربّ عمر اتسعت آماده ، وقلّت أمداده ، وربّ عمر قليلة آماده ، كثيرة أمداده».

والأمداد : ما يجد القلب من معارف اللّه ، وعلومه ، وأنواره ، وأسراره. فربّ قلب استمد فى زمان قليل ، من العلوم والمعارف والأسرار ، ما لم يستمده غيره فى أزمنة متطاولة. وقال أيضا : «من بورك له فى عمره ، أدرك فى يسير من الزمان من منن اللّه تعالى ، ما لا يدخل تحت دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة» «٣». والغالب أن هذه الأمداد إنما تنال بصحبة الرجال العارفين باللّه ، فإن المدد الذي يحصل له معهم فى ساعة واحدة لا يحصل فى أزمنة طويلة مع غيرهم ، ولو كثرت صلاتهم وصيامهم. وقال فى القوت : فإن البركة فى العمر أن تدرك فى عمرك القصير ، بيقظتك ، ما فات غيرك فى عمره الطويل بعد ، فيرتفع لك فى السنة ما لا يرتفع لغيرك فى عشرين سنة. وللخصوص من المقربين فى مقامات القرب عند التجلي بصفات الرب إلحاق برفع الدرجات ، وتدارك بما فات عند أذكارهم ، وأعمال قلوبهم ، اليسيرة ، فى هذه الأوقات. فكل ذرة من تسبيح ، أو تهليل ، أو حمد ، أو تدبر ، أو تبصرة ، أو تفكر وتذكرة ، لمشاهدة قرب ، ووجد برب ، ونظرة إلى حبيب ، ودنو من قريب ، أفضل من أمثال الجبال من أعمال الغافلين ، الذين هم لنفوسهم واجدون ، وللخلق مشاهدون. ومثال العارفين ، فيما ذكرناه من قيامهم بشهادتهم ورعايتهم لأماناتهم وعهدهم ، فى وقت

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٦٤) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وأبى الشيخ فى العظمة.

(٢) الآية ٤٠ من سورة الرعد.

(٣) انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي (ص ٢٨ ، حكمة ٢٥٩ ، ٢٦٠).

قربهم وحضورهم مثل العامل فى ليلة القدر ، العمل فيها ، لمن وافقها ، خير من ألف شهر. وقد قال بعض العلماء :

كل ليلة للعارف بمنزلة ليلة القدر. هـ. منه.

ثم ذكر دلائل قدرته تتميما لقوله : إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٢]

وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ هذا عَذْبٌ فُراتٌ سائِغٌ شَرابُهُ وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَواخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : وَما يَسْتَوِي الْبَحْرانِ فى العذوبة والملوحة ، بل هما مختلفان ، والماء واحد ، هذا عَذْبٌ فُراتٌ أي : شديد العذوبة. وقيل : هو الذي يكسر العطش لشدة برودته ، سائِغٌ شَرابُهُ أي : سهل الانحدار ، مرىء ، لعذوبته ، وَهذا مِلْحٌ أُجاجٌ شديد الملوحة ، وقيل : الذي تحرق ملوحته. وَمِنْ كُلٍّ أي : من كل واحد منهما تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيًّا ، وهو السمك ، وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً وهى اللؤلؤ والمرجان. قيل : من الملح فقط. وقيل : منهما. قال بعضهم : نسب استخراج الحلية إليهما لأنه تكون فى البحر عيون عذبة ، تمتزج بماء الملح ، فيكون اللؤلؤ من ذلك هـ. تَلْبَسُونَها أي : نساؤكم لأن القصد بالتزين هو الرجال.

وَتَرَى الْفُلْكَ السفن ، فِيهِ مَواخِرَ شواقّ للماء بجريها ، يقال : مخرت السفينة الماء : شقّته ، وهى جمع ماخرة ، لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ من فضل اللّه ، ولم يتقدم له ذكر فى الآية ولكن فيما قبلها ، ولو لم يجر له ذكر ، لم يشكل لدلالة المعنى عليه. وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ اللّه على ما أولاكم من فضله.

وقيل : هو ضرب مثل للكافر والمؤمن ، فالمؤمن ، يجرى عذب فرات ، والكافر ملح أجاج. ثم ذكر - على سبيل الاستطراد - ما يتعلق بالبحرين من نعم اللّه وعطائه. ويحتمل أن يكون على غير الاستطراد ، وهو أن يشبّه الجنسين ، ثم يفضّل البحر الأجاج على الكافر ، وهو ما خص به من المنافع ، كاستخراج اللؤلؤ ، والمرجان ، والسمك ، وجرى الفلك فيه ، وغير ذلك. والكافر خلوّ من المنافع بالكلية ، فهو على طريقة قوله تعالى : ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ ثم قال : وَإِنَّ مِنَ الْحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهارُ .. «١».

---

(١) الآية ٧٤ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٢٧

الإشارة : بحر الشريعة عذب فرات ، سائغ شرابه ، وبحر الحقيقة ملح أجاج لأنه مرّ على النفس ، يحتاج ركوبه إلى بذل المهج والنفوس ، وحط الرؤوس ، وبذل الأموال ، ورفض الأوطان والدنيا وأهلها. بخلاف الشريعة ، فلا تحتاج إلى هذا كله ، وإن كانت متوقفة على مشاق التعلم والتدريس ، ولكن تنال

مع بقاء عز النفس والمال والجاه ، وغير ذلك. ومن كلّ تأكلون لحما طريا ، فبحر الشريعة ينال منه حلاوة المعاملة الظاهرة ، وبحر الحقيقة يأكل منه حلاوة الشهود والمعرفة. وترى سفن الأفكار فى بحار الأحدية ، مواخر ، تجول فى عظمة بحر الجبروت والملكوت ، ولتبتغوا من فضله تمام معرفته ، ولتكونوا من الشاكرين ، أي : ممن يعبد شكرا ، لا قهرا.

قال القشيري : وما يستوى الوقتان ، هذا بسط ، وصاحبه فى روح ، وهذا قبض ، وصاحبه فى نوح. هذا خوف وصاحبه فى اجتياح ، وهذا رجاء وصاحبه فى ارتياح. قلت : الرجاء عذب ، والخوف ملح ، خلاف ما يقتضى كلامه. ثم قال : هذا فرق ، وصاحبه بوصف العبودية ، وهذا جمع ، وصاحبه بشهود الربوبية.

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٣ الى ١٤]

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤)

يقول الحق جل جلاله : يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهارِ ، وَيُولِجُ النَّهارَ فِي اللَّيْلِ أي : يدخل من ساعات أحدهما فى الآخر ، حتى يصير الزائد منهما خمس عشرة ساعة ، والناقص تسعا. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ذللها لما يراد منهما ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أي : يوم القيامة ، فينقطع جريهما ، ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ، الإشارة إلى فاعل هذه الأشياء ، وهى : مبتدأ ، و«اللّه» وما بعده : أخبار ، لَهُ الْمُلْكُ له التصرف التام. وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ من الأصنام ، أي : تعبدونهم ، ما يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ وهى القشرة الرقيقة الملتفة على النواة ، كما أن النقير : النقطة فى ظهره. وهما كنايتان عن حقارة الشيء وتصغيره.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٢٨

إِنْ تَدْعُوهُمْ أي : الأصنام لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ لأنهم جماد ، وَلَوْ سَمِعُوا على سبيل الفرض مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ لأنهم لا يدّعون ما تدّعون لهم من الإلهية ، بل يتبرؤون منها. وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ بإشراككم لهم ، وعبادتكم إياهم. ويقولون : ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ «١». وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ أي : ولا يخبرك بالأمر على حقيقته مخبر مثل خبير به ، وهو اللّه تعالىفإنه خبير به على الحقيقة ، دون سائر المخبرين. والمراد : تحقيق ما أخبر به من حال آلهتهم ، ونفى ما يدعون لها. أو : ولا يخبرك أيها المفتون بأسباب الغرور ، كما ينبئك اللّه الخبير بخبايا الأمور وتحقيقها ، أي : لا يخبرك بالأمور مخبر

هو خبير عالم به ، يريد أنّ الخبير بالأمور وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة ، دون سائر المخبرين.
والمعنى : أنّ هذا الذي أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأنه خبير بما أخبرت به. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : يولج الليل فى النهار ، ويولج النهار فى الليل. يولج المعصية فى الطاعة ، ويولج الطاعة فى المعصية. يعمل العبد الطاعة فيعجب بها ، ويعتمد عليها ، ويستصغر من لم يفعلها ، ويطلب من اللّه العوض عليها ، فهذه حسنات أحاطت بها سيئات. ويذنب العبد الذنب ، فيلتجأ إلى اللّه فيه ، ويعتذر منه ، ويستصغر نفسه ، ويعظم من لم يفعله ، فهذه سيئة أحاطت بها حسنات ، فأيتهما الطاعة ، وأيتهما المعصية؟ هـ.

أو : يولج ليل القبض فى نهار البسط ، وبالعكس ، أو : يولج ليل الحجبة فى نهار الكشف ، ونهار الكشف فى ليل القطيعة ، يتواردان إلى حال طلوع شمس العرفان ، فلا غروب لها ، كما قال الشاعر :

طلعت شمس من أحب بليل واستنارت فما تلاها غروب

إنّ شمس النهار تغرب باللي ل وشمس القلوب ليست تغيب «٢».

قال القشيري : يولج الليل فى النهار ، تغلب النّفس مرة على القلب ، وبالعكس ، وكذلك القبض والبسط ، فقد يستويان ، وقد يغلب أحدهما ، وكذلك الصحو والسكر ، والفناء والبقاء ، وآثار شموس التوحيد ، وأقمار المعرفة على ما يريد من إظهارها على القلوب. هـ. فهذه كلها يولج أحدها فى الآخر.

ولا يعرف هذا إلا من تحقق بفقره إلى اللّه تعالى ، كما قال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٥ الى ١٧]

يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَما ذلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)

---

(١) من الآية ٢٨ من سورة يونس.

(٢) البيت من الخفيف ، وهو للحلاج. انظر ديوانه ص ٢٣ ، وصلة تاريخ الطبري ١١/ ٨٧.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٢٩

يقول الحق جل جلاله : يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَراءُ إِلَى اللَّهِ فى دقائق الأمور وجليلها ، فى كل لحظة لا يستغنى أحد عنه طرفة عين ، ولا أقل من ذلك إذ لا قيام للعبد إلا به ، فهو مفتقر إلى اللّه ، إيجادا وإمدادا. قال البيضاوي : وتعريف الفقراء للمبالغة فى فقرهم ، كأنهم لشدة افتقارهم ، وكثرة احتياجهم ،

هم الفقراء دون غيرهم ، وأن افتقار سائر الخلق بالإضافة إلى فقرهم غير معتد به ، ولذلك قال : وَخُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً «١» قلت : ويمكن أن يكون الحصر باعتبار الحق تعالى ، أي : أنتم فقراء دون خالقكم ، بدليل وصله بقوله : وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

وقال ذون النون رضي اللّه عنه : الخلق محتاجون إليه فى كل نفس ، وطرفة ، ولحظة ، وكيف لا ، ووجودهم به ، وبقاؤهم به؟ ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ عن الأشياء كلها ، الْحَمِيدُ أي : المجمود بكل لسان. ولم يسمّهم بالفقر للتحقير ، بل للتعظيم لأن العبد إذا أظهر فقره لسيده الغنى أغناه عن أشكاله وأمثاله.

وذكر «الحميد» ليدل به على أنه الغنى النافع بغناه خلقه ، والجواد المنعم عليهم إذ ليس كلّ غنىّ نافعا بغناه ، إلا إذا كان الغنىّ جوادا منعما ، وإذا جاد وأنعم ، حمده المنعم عليهم.

ولمّا ذكر افتقارهم إلى نعمة الإيجاد ، ذكر افتقارهم إلى نعمة الإمداد ، بقوله : إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أي : إن يشأ يفنيكم كلكم ، ويردكم إلى العدم فإنّ غناه بذاته ، لا بكم ، وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ يكون أطوع منكم ، أو بعالم آخر غير ما تعرفون. وَما ذلِكَ أي : الإفناء والإنشاء عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ بممتنع. وعن ابن عباس : يخلق بعدكم من يعبده ، لا يشرك به شيئا. قال القشيري : فقر الخلقة عام لكلّ أحد ، فى أول حال وجوده ليبديه وينشيه ، وفى ثانى حال بقائه ليديمه ويبقيه. هـ. قلت : وإليه أشار فى الحكم بقوله : «نعمتان ما خلا موجود عنهما ، ولا بد لكل موجود منهما : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد ، أنعم أولا بالإيجاد ، وثانيا بتوالي الإمداد».

الإشارة : الفقر على أربعة أقسام : فقر من الدين ، وفقر من اليقين ، وفقر من المال ، وفقر مما سوى اللّه.

فالأولان مذمومان ، وصاحبهما موسوم بالإفلاس والهلع ، ومنهما وقع التعوذ فى الحديث. والثالث : إن صحبه الرضا فممدوح ، وفيه وردت الأحاديث النبوية ، وإلّا فمذموم ، ويشمله التعوذ فى الحديث.

الرابع : هو مطلب القاصدين والعارفين ، وهو الغيبة عما سوى اللّه ، والغنى باللّه ، كما قال الشيخ أبو الحسن : «أسألك الفقر عما سواك ، والغنى بك ، حتى لا نشهد إلا إياك» وهو ينشأ عن التحقق بالفقر ظاهرا وباطنا لأن الفقر من وصف العبد ، والغنى

---

(١) الآية ٢٨ من سورة النساء.

من وصف الرب ، فمن تحقق بوصفه أمده اللّه بوصفه ، «تحقق بوصفك يمدك بوصفه ، تحقق بفقرك

يمدك بغناه ، تحقق بذلك يمدك بعزه» «١».

وقال القشيري – بعد كلام – : والفقراء على أقسام فقير إلى اللّه ، وفقير إلى شيء هو من اللّه معلوم وموسوم.

ومن افتقر إلى شيء استغنى بوجود ذلك الشيء ، فالفقير إلى اللّه هو الغنى باللّه ، فالافتقار إلى اللّه لا يخلو من الاستغناء باللّه. فالفقير إليه مستغن به ، والمستغنى به فقير إليه. ومن شرف الفقر اقترانه بالتواضع والخشوع ، ومن آفات الغنى امتزاجه بالتكبّر. وشرف العبد وعزه فى فقره ، وذلّه وصغاره فى توهمه الغنى ، وأنشدوا.

وإذا تذلّلت الرقاب [تقرّبا] «٢» منّا إليك فعزّها فى ذلّها

ومن شرط الفقير : ألا يملك شيئا ، ولا يملكه شيء. ومن آداب الفقير الصادق : إظهار التكثر عند وجود التقتر ، والشكر على البلوى ، والبعد عن الشكوى. ويقال : الفقر المحمود : العيش مع اللّه براحة الفراغ على سرمد الوقت ، من غير استكراه شيء منه بكلّ وجه. هـ. ملخصا.

قال الورتجبي : فطرة الإنسانية وقعت من الغيب مضطربة متحركة إلى الأزل ، بنعت الافتقار إليه ، كانجذاب الحديد إلى المغناطيس لأنها وقعت بنعت العشق ، والعاشق مفتقر إلى معشوقه ، انفعالا ، فمن عرفه بالأزلية والأبدية يفتقر إليه افتقارا قطعيا لأن بقاءه لا يكون إلا به. وإذا كان كذلك صار غنيا باللّه ، متصفا بغناه ، غنيا به عن غيره ، مفتقرا إليه. فإذا كان فى محل الصحو يكون مفتقرا إليه ، وإذا كان فى محل السكر بقي فى رؤية غناه عنه ، فصار محجوبا عنه ، ولا يدرى. هـ.

وقال سهل رضي اللّه عنه : لمّا خلق اللّه الخلق حكم لنفسه بالغنى ، ولهم بالفقر ، فمن ادّعى الغنى ، حجب عن اللّه ، ومن أظهر فقره أوصله فقره إليه. فينبغى للعبد أن يكون مفتقرا بالسرّ إليه ، ومنقطعا عن الغير إليه ، حتى يكون عبوديّته للّه محضة ، فالعبودية هى الذل والخضوع. هـ.

وقال الواسطي : من استغنى باللّه لا يفتقر ، ومن يتعزز باللّه لا يذل. وقال يحيى بن معاذ : الفقر خير للعبد من الغنى لأن الذلة فى الفقر ، والكبر فى الغنى ، والرجوع إلى اللّه بالتواضع والذلّة خير من الرجوع إليه بكثرة الأعمال. وقيل : صفة الأولياء ثلاثة : الثقة باللّه فى كل شيء ، والفقر إليه فى كل شيء ، والرجوع إليه من كل شيء.

---

(١) فى الأصول [بقربها].

(٢) انظر الحكم (ص ٣١ ، حكمة/ ١٧٨).

وكيف يفتقر العبد إلى العبد وهو لا يغنى عنه شيئا؟! قال تعالى :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ١٨]

وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ ذا قُرْبى إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨)

قلت : «وازرة» : صفة لمحذوف ، أي : نفس آثمة. و«إن تدع» : شرط ، و«لا يحمل» : جواب ، و«لا» النافية لا تمنع الجواب من الجزم.

يقول الحق جل جلاله : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى أي : ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ، والوزر والوقر أخوان ، ووزر الشيء : حمله. والمعنى : أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته ، فلا تؤخذ نفس بذنب نفس أخرى ، كما تأخذ جبابرة الدنيا الظلمة الجار بجريمة الجار ، والقريب بالقريب ، فذلك ظلم محض.

وأما قوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَأَثْقالًا مَعَ أَثْقالِهِمْ «١» ففى الضالّين المضلّين ، فإنهم يحملون أثقال إضلالهم وأثقال ضلالهم ، وكل ذلك أوزارهم ، ليس فيها شيء من أوزار غيرهم. ألا ترى كيف كذّبهم اللّه تعالى فى قوله :

اتَّبِعُوا سَبِيلَنا وَلْنَحْمِلْ خَطاياكُمْ وَما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ «٢».

قال ابن عطية : من تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقريبه فى جريمة – كفعل [زياد ونحوه] «٣» ، فإن ذلك ، لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة ، أو مواصلة ، أو اطلاع على حاله ، أو تقرير له ، فهذا قد أخذ من الجرم بنصيب. وهذا هو المعنى بقوله تعالى : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ ... الآية لأنهم أغروهم ، وهو معنى قوله صلى اللّه عليه وسلم : «من سنّ سنّة حسنة ..» «٤» الحديث ، فراجعه.

قلت : لا يجوز الإقدام على ظلم أحد بمجرد الظن ، فالصواب حسم هذا الباب ، والتصريح بتحريمه لكثرة جور الحكام.

ثم قال تعالى : وَإِنْ تَدْعُ نفس مُثْقَلَةٌ بالذنب أحدا إِلى حِمْلِها أي : إلى حمل ثقل ذنوبها ، ليتحمل عنها بعض ذلك ، لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كانَ المدعو ، المفهوم من قوله : وَإِنْ تَدْعُ ، ذا قُرْبى

---

(١) الآية ١٣ من سورة العنكبوت.

(٢) الآية ١٢ من سورة العنكبوت. [.....]

(٣) فى الأصول [كفعل زاد] والمثبت هو الذى فى تفسير ابن عطية. قلت : قال أبو حيّان فى البحر المحيط ، تعقيبا على كلام ابن عطية : «وكأن ابن عطية تأوّل أفعال زياد ، وما فعل فى الإسلام ، وكانت سيرته قريبة من سيرة الحجّاج»

(٤) الحديث أخرجه كاملا مسلم فى (الزكاة ، باب الحث على الصدقة ، ٢/ ٧٠٥ ، ح ١٠١٧) من حديث جرير بن عبد اللّه.

(٤/٥٣١)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٢

ذا قرابة قريبة ، كأب ، وولد ، وأخ. والفرق بين معنى قوله : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى وبين قوله : إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلى حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ أنّ الأول دالّ على عدل اللّه فى حكمه ، وأنه لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها ، والثاني : فى بيان أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث ، فمن أثقلته ذنوبه ثم استغاث بأحد لم يغثه ، وهذا غاية الإنذار.

ثم بيّن من ينتفع به بقوله : إِنَّما تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ أي : إنما ينتفع بإنذارك من خشى ربه بِالْغَيْبِ أي : يخشون ربهم غائبين عنه ، أو : يخشون عذابه غائبا عنهم ، فهو حال ، إما من الفاعل أو المفعول المحذوف. أو : يخشون ربهم فى حال الغيب ، حيث لا اطلاع للغير عليهم ، فيتقون اللّه فى السر ، كما يتقون فى العلانية. وَأَقامُوا الصَّلاةَ أتقنوها فى مواقيتها ، وَمَنْ تَزَكَّى أي : تطهر بفعل الطاعات ، وترك المنهيات ، فَإِنَّما يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ إذا نفعه يعود لها ، وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم ، وإقامتهم الصلاة لأنها من جملة التزكى. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ المرجع ، فيجازيهم على تزكيتهم ، وهو وعد للمتزكّين بالثواب.

الإشارة : وبال الوزر خاص بصاحبه ، إلا إذا كان مقتدى به ، فإنّ عيبه أو نقصه يسرى فى أصحابه ، حتى يظهر منه لأن الصحبة صيرت الجسدين واحدا. وراجع ما تقدم عند قوله : وَاتَّقُوا فِتْنَةً ... «١» الآية. قال القشيري : وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى : كلّ مطالب بعمله ، ومحاسب عن ديوانه. ولكلّ معه شأن ، وله مع كلّ أحد شأن ، ومن العبادات ما تجرى فيها النيابة ، ولكن فى المعارف لا تجرى النيابة ولو أن عبدا عاصيا منهمكا فى غوايته فاتته صلاة مفروضة ، فلو قضى عنه ألف ولىّ ، وألف صفىّ ، تلك الصلاة الواحدة ، عن كل ركعة ألف ركعة لم تقبل. هـ. وقال فى قوله تعالى : إِنَّما تُنْذِرُ ... إلخ : الإنذار هو الإعلام بموضع المخافة. والخشية هى المخافة ، فمعنى الآية : لا ينتفع بالتخويف إلا صاحب الخوف – طير السماء على إلا فها تقع. هـ.

ثم ضرب المثل لمن تزكى ، ومن لم يتزك ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ١٩ الى ٢٤]

وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلا الظُّلُماتُ وَلا النُّورُ (٢٠) وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ (٢١) وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلا الْأَمْواتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ

(٢٣)
إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيها نَذِيرٌ (٢٤)

---

(١) الآية ٢٥ من سورة الأنفال.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٣
يقول الحق جل جلاله : وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ أي : لا يستوى الكافر والمؤمن ، أو الجاهل والعالم. وقيل : هما مثلان للصنم ولله تعالى. وَلَا الظُّلُماتُ كالكفر والجهل ، وَلَا النُّورُ كالإيمان والمعرفة ، وَلَا الظِّلُّ كنعيم الجنان ، وَلَا الْحَرُورُ كأليم النيران. والحرور : الريح الحارّ كالسموم ، إلا أن السموم يكون بالنهار ، والحرور يكون بالليل والنهار. قاله الفرّاء.
وَما يَسْتَوِي الْأَحْياءُ وَلَا الْأَمْواتُ ، تمثيل آخر للمؤمنين والكافرين ، أبلغ من الأول ، ولذلك كرر الفعل ، وقيل : للعلماء والجهال. وزيادة «لا» فى الجميع للتأكيد ، وهذه الواوات بعضها ضمت شفعا إلى شفع ، وبعضها وترا إلى وتر. إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ بهدايته وتوفيقه لفهم آياته والاتعاظ بها. وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ، شبّه الكفار بالموتى ، حيث لا ينتفعون بمسموعهم ، مبالغة فى تصاممهم ، يعنى أنه تعالى علم من يدخل فى الإسلام ممن لا يدخل فيهدى من يشاء هدايته ، وأما أنت فخفى عليك أمرهم ، فلذلك تحرص على إسلام قوم مخذولين ، فإنذار هم كإنذار من فى القبور من الموتى.
قال ابن عطية : الآية تمثيل بما يحسّه البشر ، ويعهده جميعنا من أنّ الميت الذي فى القبر لا يسمع ، وأما الأرواح فلا نقول : إنها فى القبر ، بل تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين فى شجر عند العرش ، وفى قناديل وغير ذلك «١» ، وأن أرواح الكفرة فى سجّين ، ويجوز فى بعض الأحيان أن تكون الأرواح عند القبور ، فربما سمعت ، وكذلك أهل قليب بدر ، إنما سمعت أرواحهم ، فلا تعارض بين الآية وحديث القليب. هـ «٢».
ثم قال تعالى : إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ أي : ما عليك إلا التبليغ والإنذار ، فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفعه ، وإن كان من المصريين فلا عليك.
إِنَّا أَرْسَلْناكَ بِالْحَقِّ أي : محقا ، أو : محقين ، أو : إرسالا مصحوبا بالحق ، فهو حال من الفاعل ، أو المفعول ، أو صفة لمصدر محذوف ، بَشِيراً لمن آمن وَنَذِيراً لمن كفر ، وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ أي :
ما من أمة من الأمم الماضية ، قبل أمتك ، إلا فيها نذير نبىّ ، أو عالم ، يخوفهم. ويقال لأهل كل

عصر : أمة.

والمراد هنا : أهل العصر. قال ابن عطية : معناه : أن دعوة اللّه تعالى قد عمّت جميع الخلق ، وإن كان فيهم من لم تباشره النّذارة ، فهو ممن بلغته الدعوة ، لأن آدم بعث إلى بنيه ، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد صلى اللّه عليه وسلم. والآية

---

(١) من هذه الأحاديث ما أخرجه الدارمي فى (الجهاد ، باب أرواح الشهداء) عن مسروق ، قال : سألنا عبد اللّه فى أرواح الشهداء ولو لا عبد اللّه لم يحدثنا أحد. قال : أرواح الشهداء عند اللّه يوم القيامة فى حواصل طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح فى أىّ الجنة حيث شاءت ، ثم ترجع إلى قناديلها ، فيشرف عليهم ربهم ، فيقول : ألكم حاجة؟ تريدون شيئا؟ فيقولون : لا ، إلا أن نرجع إلى الدنيا فنقتل مرة أخرى.

(٢) النقل باختصار.

تتضمن أن قريشا لم يأتهم نذير ، ومعناه : نذير مباشر ، وما ذكر المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم ، فإنما ذلك بالفرض ، لا أنه توجد أمة لم تعلم أن فى الأرض دعوة إلى عبادة اللّه. هـ.

وذكر فى الإحياء ، فى باب التوبة : أنه يشبه أن يكون من لم تبلغهم الدعوة فى أطراف البلاد ، وعاشوا [على البله] «١» وعدم المعرفة ، فلم تكن لهم معرفة ، ولا جحود ، ولا طاعة ، ولا معصية ، هم أهل الأعراف لأنه لا وسيلة تقربهم ، ولا جناية تبعدهم ، فما هم من أهل الجنة ، ولا من أهل النار ، ويتركون فى منزلة بين المنزلتين ، ومقام بين المقامين. هـ. وقال ابن مرزوق فى شرح حديث [هرقل] «٢» : الدين الحق هو الإسلام ، وما سواه باطل ، عقلا ونقلا ، فلا عذر لمنتحيله بالإجماع ، كان متأولا مجتهدا ، أو مقلدا جاهلا لأن أدلة الإسلام واضحة قطعية ، ومخالف مقتضاها مخطئ قطعا. هـ.

وقال ابن عطية أيضا ، ما نصه : آدم عليه السّلام فمن بعده ، دعا إلى توحيد اللّه تعالى دعاء عاما ، واستمر ذلك على العالم ، فواجب على الآدمي أن يبحث عن الشرع ، الآمر بتوحيد اللّه تعالى ، وينظر فى الأدلة المنصوبة على ذلك ، بحسب إيجاب الشرع النظر فيها ، ويؤمن ، ولا يعبد غير اللّه ، فمن فرضناه لم يجد سبيلا إلى العلم فأولئك أهل الفترات ، الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم فى الجنة ، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين ، ومن قصر فى النظر والبحث ، فعبد صنما أو غيره ، وكفر ، فهذا ترك الواجب عليه ، مستوجب للعقاب بالنار. هـ. وقال أيضا : إنما صاحب الفترة بفرض أنه آدمي ، لم

يصل إليه : أن اللّه بعث رسولا ، ولا دعا إلى دين – وهذا قليل الوجود – إلا إن شذ فى أطراف الأرض ، والمواضع المنقطعة عن العمران. هـ.

والحاصل : أن من بلغه خبر الشرائع السابقة ، والدعاء إلى توحيد اللّه ، لا عذر له ، وإنما بعثت الرسل بعد ذلك تجديدا ، ومبالغة فى إزاحة العذر ، وإكمال البيان. قاله المحشى.

الإشارة : وما يستوى الأعمى ، الذي لا يرى إلا حس الكائنات ، والبصير ، الذي فتحت بصيرته ، فشاهد المكوّن ، ولم يقف مع حس الكون ، ولا الظلمات : المعاصي والغفلة ودائرة الحس ، ونور اليقظة والعفة والمعرفة ، ولا ظل برد الرضا والتسليم ، وحرور التدبير والاختيار ، وما يستوى الأحياء ، وهم العارفون باللّه ، الذاكرون اللّه ، والأموات الجاهلون ، أو الغافلون. قال القشيري : وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ .. الآية ، كذلك لا يستوى الموصول بنا والمشغول عنّا ، والمجذوب إلينا والمحجوب عنّا ، ومن أشهدناه حقّنا ، ومن أغفلنا قلبه عن ذكرنا. هـ.

---

(١) الكلمة مشتبهة فى الأصول ، وأثبتها من إحياء علوم الدين ٤/ ٣٢.

(٢) ما بين المعقوفتين أثبته من النسخة التيمورية ، وهو مطموس فى النسخ الأخرى. قلت : وحديث هرقل أخرجه البخاري فى (بدء الوحى ، باب ٦ ، ح ٧) ومسلم فى (الجهاد ، باب كتاب النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام ٣/ ١٣٩٣ – ١٣٩٧ ، ح ١٧٧٣) عن سيدنا عبد اللّه بن عباس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٥

وقوله تعالى : وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلا فِيها نَذِيرٌ. النذير على قسمين : نذير من وبال الذنوب ، ونذير من وبال العيوب. فوبال الذنوب : العذاب ، ووبال العيوب : الحجاب ، فمن تطهر من الذنوب استوجب نعيم الجنان ، ومن تطهر من العيوب استوجب لذيذ الشهود والعيان. فالنذير الأول عالم بأحكام اللّه ، والثاني عارف باللّه ، الأول مقتصد ، والثاني سابق ، ولا يخلو الدهر منهما ، حتى يأتى أمر اللّه ، فالشريعة باقية بقيام العلماء ، والطريقة والحقيقة قائمتان بقيام الأولياء العارفين باللّه ، أهل التربية النبوية ، بالاصطلاح ، والهمة ، والحال. ومن قال خلاف هذا فقد قال بالمحال.

ثم سلّى نبيه لأنه لمّا أنذر قومه قابلوه بالتكذيب ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٢٥ الى ٢٦]

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ

أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ (٢٦)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ أي : قومك فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ رسلهم ، حال كونهم قد جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ بالمعجزات الواضحة ، وَبِالزُّبُرِ وبالصحف وَبِالْكِتابِ الْمُنِيرِ أي : التوراة ، والإنجيل ، والزبور. ولمّا كانت هذه الأشياء من جنسهم ، أسند المجيء بها إليهم إسنادا مطلقا ، وإن كان بعضها فى جميعهم ، وهى البينات ، وبعضها فى بعضهم ، وهى الزبر والكتاب. ويجوز أن يراد بالزبر والكتاب واحد ، والعطف لتغاير الوصفين ، فكونها زبر باعتبار ما فيها من المواعظ التي تزير القلوب ، وكونها كتبا منيرة لما فيها من الأحكام والبراهين النيرة. ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا أي : ثم عاقبت الكفرة بأنواع العقاب ، فَكَيْفَ كانَ نَكِيرِ إنكارى عليهم ، وتعذيبى لهم؟ والاستفهام للتهويل.

الإشارة : تكذيب الصادقين سنّة ماضية. فأولياء كل زمان يتسلون بمن سلف قبلهم ، فقد قتل بعضهم ، وسجن بعضهم ، وأجلى بعضهم ، إلى غير ذلك زيادة فى مقامهم وترقية بأسرارهم. واللّه عليم حكيم.

ثم ذكر دلائل قدرته على إهلاك من خالف أمره ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٢٧]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُها وَغَرابِيبُ سُودٌ (٢٧)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٦

قلت : «مختلفا» : نعت «ثمرات». و«مختلف ألوانه» : صفة لمحذوف ، أي : صنف مختلف.

يقول الحق جل جلاله : أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ بالماء ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها أي : أجناسها ، كالرمان ، والتفاح ، والتين ، والعنب ، وغيرها مما لا يحصى ، أو : ألوانها : هيئاتها من الحمرة والصفرة ونحوهما. وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ طرق مختلفة اللون. جمع : جدّة ، كمدّة ومدد. والجدة : الطريقة والخطة ، تكون فى الجبل ، تخالف لون ما يليها. وكل طريقة من سواد أو بياض فهى جدة. قاله الهروي. وهى مبتدأ وخبر ، أي : وطرق بِيضٌ وَحُمْرٌ كائنة من الجبال.

وَغَرابِيبُ سُودٌ أي : ومنها غرابيب سود ، أي : ومن الطرق سود غرابيب جمع : غربيب ، وهى الذي أبعد فى السواد وأغرب ، ومنه : الغراب. قال الهروي : هى الجواد ذوات الصخور السود ، والغربيب : شديدة السواد. هـ.

وفى الصحاح : تقول هذا أسود غربيب ، أي : شديد السواد ، وإذا قلت : غرابيب سود تجعل السود بدلا من غرابيب لأن توكيد الألوان لا يتقدم. هـ. تقول : أصفر فاقع ، وأسود حالك ، ولا يتقدم الوصف

، ونقل الكواشي عن أبى عبيد :

أن فى الآية تقديما وتأخيرا ، تقديره : وسود غرابيب. وفائدته : أن يكون المؤكد مضمرا ، والمظهر تفسيرا له ، فيدل على الاعتناء به ، لكونهما معا يدلان على معنى واحد هـ. ولا بد من تقدير حذف مضاف فى قوله : وَمِنَ الْجِبالِ جُدَدٌ أي : من الجبال ذو جدد بيض ، وحمر ، وسود غرابيب حتى يؤول إلى قولك : ومن الجبال مختلف ألوانه ، كما قال : ثَمَراتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوانُها.

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٢٨]

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ كَذلِكَ إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨)

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ ، أي : ومنهم صنف مختلف ألوانه بالحمرة والصفرة والبياض والسواد. كَذلِكَ أي : كاختلاف الثمرات والجبال. قال القشيري : تخصيص الفعل بهيئته وألوانه من أدلة قصد الفاعل وبرهانه. فإتقان الفعل وإحكامه شواهد الصنع وإعلامه. وكذلك أيضا الناس والدواب والأنعام ، بل جميع المخلوقات ، متجانس الأعيان ، مختلف الصفات ، وهو دليل ثبوت منشئها بنعت الجلال هـ.

الإشارة : ألم تر أن اللّه أنزل من سماء الغيوب ماء الواردات الإلهية ، فأخرجنا به ثمرات ، وهى العلوم والأذواق والوجدان ، مختلف ألوانها ، فمنها علوم الشرائع ، وتحقيق مسائلها ، ومنها علم العقائد ، وتشييد أدلتها وبراهينها ، ومنها علوم اللسان بإتقان قواعدها ، ومنها علم القلوب وتصفيتها من العيوب ، وهو علم الطريقة ، ومنها علم الأسرار ، وهى أسرار الذات والصفات ، وهو علم الحقيقة. ومن جبال العقل طرق بيض ، وحمر ، وسود ، فالبيض : طرق الكشف والبيان ، وحلاوة الذوق والوجدان ، والحمر : طرق الدليل والبرهان لأنها قد تظهر وتخفى ، والسود الغرابيب : عقول

(٥٣٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٧

الفلاسفة والطبائعيين ، أهل الحدس والتخمين ، إذا لم يقتدوا بالكتاب المبين ، وشرع النبي الأمين. أولئك هم الضالون المضلّون.

ولمّا كان النظر فى هذه المصنوعات إنما يكون بالعلم ، ذكر أهله ، فقال :

إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ ...

يقول الحق جل جلاله : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ أي : يخافه مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ لأنهم هم الذين يتفكرون فى عجائب مصنوعاته ، ودلائل قدرته ، فيعرفون عظمته وكبرياءه ، وجلاله وجماله ، ويتفكرون فيما أعد اللّه

لمن عصاه من العذاب ومناقشة الحساب ، وفيما أعد لمن خافه وأطاعه من الثواب ، وحسن المآب ، فيزدادون خشية ، ورهبة ، ومحبة ، ورغبة فى طاعته ، وموجب رضوانه ، دون من عداهم من الجهال.

وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم :

«أعلمكم باللّه أشدكم له خشية» «١» وقال صلى اللّه عليه وسلم : «رأس الحكمة مخافة اللّه» «٢».

وقال الربيع بن أنس : من لم يخش اللّه فليس بعالم ، وقال ابن عباس فى تفسير الآية : كفى بالزهد علما ، وقال ابن مسعود : كفى بخشية اللّه علما ، وبالاعتذار جهلا. وفى الحكم : «خير علم ما كانت الخشية معه». وقال فى التنوير : اعلم أن العلم حيثما تكرر فى الكتاب والسنّة فإنما المراد به العلم النافع ، الذي تقارنه الخشية ، وتكتنفه المخافة. قال تعالى : إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ الْعُلَماءُ. بيّن سبحانه أن الخشية تلازم العلم ، وفهم من هذا أن العلماء إنما هم أهل الخشية. هـ.

وقال الشيخ ابن عباد رضي اللّه عنه : واعلم أن العلم النافع ، المتفق عليه فيما سلف وخلف ، إنما هو العلم الذي يؤدى بصاحبه إلى الخوف والخشية ، وملازمة التواضع والذلة ، والتخلق بأخلاق الإيمان ، إلى ما يتبع ذلك من بغض الدنيا والزهادة فيها ، وإيثار الآخرة عليها ، ولزوم الأدب بين يدى اللّه تعالى ، إلى غير ذلك من الصفات العلية ، والمناحى السنية. هـ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر : لم أجده هكذا ، وفى الصحيح : «أنا أعلمكم باللّه وأشدكم له خشية». حاشية الكشاف (٣/ ٦١١).

(٢) أخرجه البيهقي فى الشعب (١/ ٤٧١/ ح ٧٤٣ ، ٧٤٤) عن ابن مسعود ، موقوفا ومرفوعا. قال العراقي فى المغني : رواه أبو بكر بن لال الفقيه فى مكارم الأخلاق ، والبيهقي فى الشعب ، وضعّفه من حديث ابن مسعود ، ورواه فى دلائل النبوة ، من حديث عقبة بن عامر ، ولا يصح أيضا.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٣٨

وقال فى لطائف المنن : شاهد العلم ، الذي هو مطلب اللّه تعالى : الخشية ، وشاهد الخشية : موافقة الأمر ، فأما علم تكون معه الرغبة فى الدنيا ، والتملق لأربابها ، وصرف الهمة لاكتسابها ، والجمع ، والادخار ، والمباهاة ، والاستكثار ، وطول الأمل ، ونسيان الآخرة ، فما أبعد من هذا نعته من أن يكون من ورثة الأنبياء! وهل ينتقل الشيء الموروث إلى الوارث إلا بالصفة التي كان بها عند الموروث عنه. ومثل من هذه الأوصاف أوصافه من العلماء كالشمعة ، تضيء على غيرها ، وهى تحرق نفسها. جعل اللّه العلم – الذي علمه من هذا وصفه – حجة عليه ، وسببا فى تكثير العقوبة لديه. هـ.

وتقديم اسم اللّه تعالى ، وتأخير العلماء ، يؤذن أن معناه : إن الذين يخشون اللّه من عباده العلماء دون غيرهم.

ولو عكس ، بأن قال : إنما يخشى العلماء اللّه ، لكان المعنى : أنهم لا يخشون إلا اللّه.

وقرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز : بنصب «العلماء» ورفع «اللّه». والخشية فى هذه القراءة بمعنى التعظيم.

والمعنى : إنما يعظم اللّه من عباده العلماء. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «يقول اللّه للعلماء يوم القيامة – إذا قعد على كرسيّه ، يفصل قضاء عباده : إنى لم أجعل علمى وحلمى فيكم إلا وأنا أريد أن أغفر لكم ، على ما كان فيكم ، ولا أبالى» «١» ، قال المنذرى : انظر إلى قوله : «علمى وحلمى» يتضح لك بإضافته إليه أنه لم يرد به علم أكثر أهل الزمان المجرّد عن العمل به والإخلاص. وفى رواية : «لم أجعل حكمتى فيكم إلا لخير أريده بكم ، ادخلوا الجنة بما فيكم». وقال – عليه الصلاة والسلام – : «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودماء الشهداء ، فيرجع مداد العلماء على دماء الشهداء» «٢».

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ، هو تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة لعزته وغلبته ، وإثابة أهل الطاعة ، والعفو عنهم لعظيم غفرانه ، والمعاقب والمثيب حقه أن يخشى.

الإشارة : العلماء على قسمين علماء بأحكام اللّه ، وعلماء باللّه ، العلماء بالأحكام يخشون غضبه وعقابه ، والعلماء باللّه يخشون إبعاده واحتجابه ، العلماء بالأحكام يتقون مواطن الآثام ، والعلماء باللّه يتقون سوء الأدب فى حضرة الملك العلام. فخشية العلماء باللّه أرق وأشد. العلماء باللّه أخذوا علمهم من اللّه ، والعلماء بالأحكام أخذوا علمهم عن الأموات. قال الشيخ أبو يزيد رضي اللّه عنه : فى علماء أهل الرواية : مساكين أخذوا علمهم ميت عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. هـ.

---

(١) أخرجه للطبرانى فى الكبير (١٣٨١) من حديث ثعلبة بن الحكم الصحابي. قال الهيثمي فى مجمع الزوائد (١/ ١٢٦) : ورجاله موثقون.

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح/ ١٠٠٢٦) للمرهبى ، عن عمران بن حصين ، وابن عبد البر ، فى العلم ، عن أبى الدرداء ، وابن الجوزي فى العلل ، عن النعمان بن بشير ، وضعّفه.

والفرق بين الخوف والرهبة والخشية : أن الخوف من العقاب ، والرهبة من العتاب ، والخشية من الإبعاد. قال القشيري : والفرق بين الخشية والرهبة : أنّ الرهبة : خوف يوجب هرب صاحبه ، فيجرى

فى تفرقته. والخشية إذا حصلت كبحت صاحبها ، فيبقى مع اللّه. فقدمت الخشية على الرهبة فى الجملة ، والخوف قضية الإيمان ، قال تعالى : وَخافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ «١». والخشية قضية العلم والهيبة. هـ. ثم قال : العالم يخاف تقصيره فى حقّ ربه ، والعارف يخشى من سوء أدبه وترك احترام ، وانبساط فى غير وقت ، بإطلاق لفظ ، أو ترخيص بترك الأولى. هـ.

قال الورتجبي : الخوف عموم ، والخشية خصوص. وقد قرن سبحانه الخشية بالعلم ، أي : العلم باللّه وجلاله وقدره وربوبيته وعبوديته له. وحقيقة الخشية : وقوع إجلال الحق فى قلوب العارفين ، ممزوجا بسنا التعظيم ، ورؤية الكبرياء والعظمة ، ولا يحصل ذلك إلا لمن شاهد القدم ، والأزل ، والبقاء ، والأبد ، فمن زاد علمه باللّه زاد خشية ، لقوله صلى اللّه عليه وسلم : «أنا أعرفكم باللّه وأخشاكم منه». هـ. وفى الحديث : قيل يا رسول اللّه : أي الأعمال أفضل؟ قال : «العلم» قيل : أىّ العلم؟ قال : «العلم باللّه سبحانه» «٢». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه؟ واللّه إنى لأعلمكم باللّه ، وأشدّكم له خشية» «٣».

ثم قال «٤» : عن جعفر الصادق : العلم أمر ترك الحرمة فى العبادات ، وترك الحرمة فى الحياء من الحق ، وترك الحرمة فى متابعة الرسول ، وترك الحرمة فى خدمة الأولياء الصدّيقين. هـ. ومعى كلامه : أن العلم الحقيقي هو الذي يأمن صاحبه من انتهاك حرمة العبادات ، ومن هتك حرمة الاحتشام من اللّه ورسوله وأوليائه. ومن أراد من العلماء السلامة من الاغترار بالعلم فليطالع شرح ابن عباد ، فى قول الحكم : «العلم إن قارنته الخشية فلك ، وإلا ، فعليك». وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ١٧٥ من سورة آل عمران.

(٢) ذكره ابن عراق فى تنزيه الشريعة (كتاب العلم ، ١/ ٢٧٨ ، القسم الثالث) وعزاه لابن حبان ، والديلمي عن أنس ، عن طريق عباد ابن عبد الصمد. قال فى تنزيه الشريعة (١/ ٧٠) : «عباد بن عبد الصمد عن أنس ، بنسخة ، أكثرها موضوع. قاله ابن حبان».

قلت : معني الحديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري فى (الاعتصام ، باب ما يكره من التعمق والتنازع والغلو فى الدين والبدع ، ح ٧٣٠١) ، ومسلم فى (الفضائل ، باب علمه صلى اللّه عليه وسلم باللّه وشدة خشيته ، ٤/ ١٨٢٩ ، ح ٢٣٥٦) من حديث السيدة عائشة بلفظ : «... لأنا أعلمهم باللّه ، وأشدهم له خشية». [.....]

(٤) أي : الورتجبي.

ولمّا ذكر العلماء ، ذكر حملة القرآن ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٢٩ الى ٣١]

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتابَ اللَّهِ أي : يداومون على تلاوة القرآن وَأَقامُوا الصَّلاةَ أتقنوها فى أوقاتها ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْناهُمْ فرضا ونفلا سِرًّا وَعَلانِيَةً مسرّين النفل ، ومعلنين الفرض ، ولم يقنعوا بتلاوته عن العمل به. وخبر «إن» : قوله : يَرْجُونَ تِجارَةً لَنْ تَبُورَ لن تكسد ، وهو ثواب أعمالهم ، يعنى : يطلبون تجارة ينتفى عنها الكسد ، وتنفق عند اللّه.

لِيُوَفِّيَهُمْ متعلق ب : «تبور» ، أي : ليوفيهم بإنفاقها عند اللّه أُجُورَهُمْ ثواب أعمالهم وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بتفسيح القبور ، أو : تشفيعهم فى أهلهم ، ومن أحسن إليهم ، أو : تضعيف حسناتهم ، أو : بتحقيق وعد لقائه.

أخرج ابن أبى شيبة عن بريدة ، قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : «إن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة ، حين ينشق عنه القبر ، كالرجل الشاحب ، يقول له : هل تعرفنى؟ فيقول : ما أعرفك ، فيقول : أنا صاحبك الذي أظمأتك فى الهواجر ، وأسهرت ليلتك ، فإنّ كل تاجر وراء تجارته. قال : فيعطى الملك بيمينه ، والخلد بشماله ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، ويكسى والداه حلّتين ، لا تقوّم لهما الدنيا ، فيقولان : بم كسينا هذا؟ فيقال لهما : بأخذ ولدكما القرآن. ثم يقال له : اقرأ ، واصعد فى درج الجنة وغرفها ، فهو فى صعود مادام يقرأ» «١».

وذكر فى بعض الأخبار : أن حملة القرآن يحشرون يوم القيامة على كثبان المسك ، وأنوار وجوههم تغشى النظار ، فإذا أتوا إلى الصراط تلقتهم الملائكة الذين وكلوا بحملة القرآن ، فتأخذ بأيديهم ، وتوضع التيجان على

---

(١) أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ٣٤٨) ، وأخرجه ، مختصرا ، ابن ماجه فى (الأدب ، باب ثواب القرآن ٢/ ١٢٤٢ ح ٣٧٨١) والدارمي فى (فضائل القرآن ، باب فى فضل سورة البقرة وآل عمران ، ٢/ ٥٤٣ ح ٣٣٩١) والحاكم (١/ ٥٦٨) وصححه على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي.

رؤوسهم ، والحلل على أجسادهم ، وتقرب إليهم خيل من نور الجنة ، عليها سرج المسك الأذفر ، ألجمتها من اللؤلؤ والياقوت ، فيركبونها ، وتطير بهم على الصراط ، ويجوز فى شفاعة كل واحد منهم مائة ألف ممن استوجب النار ، وينادى مناد : هؤلاء أحباء اللّه ، الذين قرأوا كتاب اللّه ، وعملوا به ، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. هـ.

إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ، غفور لهفواتهم ، شكور لأعمالهم ، يعطى الجزيل ، على العمل القليل.

وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ أي : القرآن ، و«من» : للتبيين ، هُوَ الْحَقُّ لا مرية فيه ، مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ لما تقدمه من الكتب ، إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ عالم بالظواهر والبواطن ، فعلمك وأبصر أحوالك ، ورآك أهلا لأن يوحى إليك هذا الكتاب المعجز ، الذي هو عيار على سائر الكتب.

الإشارة : كل ما ورد فى فضل أهل القرآن ، فالمراد به فى حق من عمل به ، وأخلص فى قراءته ، وحافظ على حدوده ، ورعاه حق رعايته. وقد ورد فيمن لم يعمل به ، أو قرأه لغير اللّه ، وعيد كبير ، وورد أنهم أول من يدخل جهنم. قال شيخ شيوخنا ، سيدى عبد الرحمن الفاسى ، بعد ذكر الحديثين فى فضل حامل القرآن : وهذا مقيد بالعمل ، أي : فإنّ منزلتك عند آخر آية مما عملت ، لا مما تلوت بلسانك وخالفت بعملك لأنه لو كان كذلك لا نخرقت أصول الدين ، ويؤدى إلى أن من حفظ سرد القرآن اليوم ، يكون أفضل من كثير من الصحابة الأخيار ، والصالحين الأبرار فإن كثيرا من خيارهم مات قبل حفظ جميعه. هـ.

ثم فصّل أحوالهم ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٢ الى ٣٥]

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ (٣٣) وَقالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ (٣٥)

يقول الحق جل جلاله : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ أي : أوحينا إليك القرآن ، وأورثناه من بعدك ، أي : حكمنا بتوريثه الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا ، وهم أمة محمد صلى اللّه عليه وسلم من الصحابة والتابعين ، وتابعيهم ، ومن بعدهم إلى يوم الدين لأنّ اللّه اصطفاهم على سائر الأمم ، وجعلهم أمة وسطا ليكونوا

شهداء على الناس ، واختصهم بالانتساب إلى أكرم رسله. قال ابن عطية : الكتاب هنا يراد به معانى القرآن وأحكامه وعقائده ، فكأن اللّه تعالى أعطى أمة محمد القرآن ، وهو قد تضمن معانى الكتب المنزلة قبله ، فكأنه ورّث أمة محمد الكتاب الذي كان فى الأمم قبلها. هـ.

ثم رتّبهم مراتب ، فقال : فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ بالتقصير فى العمل به ، وهو المرجأ لأمر اللّه ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وهو الذي خلط عملا صالحا وآخر سيئا ، وَمِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ ، بأن جمع بين علمه والعمل به ، وإرشاد العباد إلى اتباعه. وهذا أوفق بالحديث ، فقد روى عن عمر رضي اللّه عنه أنه قال على المنبر – بعد قراءة هذه الآية :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سابقنا سابق ، ومقتصدنا ناج ، وظالمنا مغفور له» «١» وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «السابق يدخل الجنة بغير حساب ، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة ، والظالم يحبس ، حتى يظن أنه لن ينجو ، ثم تناله الرحمة ، فيدخل الجنة» رواه [أبو الدرداء] «٢». وقال ابن عباس رضي اللّه عنه : السابق ، المخلص ، والمقتصد : المرائى ، والظالم : الكافر النعمة غير الجاحد له ، لأنه حكم للثلاثة بدخول الجنة. وقال الربيع بن أنس : الظالم : صاحب الكبائر ، والمقتصد : صاحب الصغائر ، والسابق : المجتنب لهما. وقال الحسن : الظالم : من رجحت سيئاته ، والسابق :

من رجحت حسناته ، والمقتصد : من استوت حسناته وسيئاته. وسئل أبو يوسف عن هذه الآية فقال : كلهم مؤمنون.

وأما صفة الكفار فبعد هذا ، وهو قوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ «٣». وأما الطبقات الثلاث فهم من الذين اصطفى من عباده لأنه قال : فمنهم ، ومنهم ، ومنهم ، والكل راجع إلى قوله : الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فهم أهل الإيمان ، وعليه الجمهور.

وإنما قدّم الظالم للإيذان بكثرتهم ، وأنّ المقتصد : قليل بالإضافة إليهم ، والسابقون أقل من القليل. وقال ابن عطاء : إنما قدم الظالم لئلا ييأس من فضله. وقيل : إنما قدّمه ليعرّفه أن ذنبه لا يبعده من ربّه. وقيل : لأن أول

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٧٣) لسعيد بن منصور ، وابن أبى شيبة ، وابن المنذر ، والبيهقي فى البعث ، موقوفا على سيدنا عمر. وأخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٤٢١) مرفوعا. وعزى السيوطي المرفوع للعقيلى فى الضعفاء (٣/ ٤٤٣) وبن لال ، وابن مردويه ، والبيهقي.

(٢) فى الأصول : [أبو داود] والصواب ما أثبت ، قلت : والحديث أخرجه أحمد فى المسند (٥/ ١٩٤ ، ١٩٨ و٦/ ٤٤٤) ، قال الهثيمى فى المجمع (٧/ ٩٦) : «رواه أحمد بأسانيد ، رجال أحدها رجال الصحيح». وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٢٦) والطبري (٢٢/ ١٣٧) والبغوي فى التفسير (٦/ ٤٢١)

كلهم من حديث أبى الدرداء رضي اللّه عنه.
(٣) الآية ٣٦ من سورة فاطر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٣
الأحوال معصية ، ثم توبة ، ثم استقامة. وقال سهل : السابق : العالم ، والمقتصد : المتعلم ، والظالم : الجاهل. وقال أيضا :
السابق : الذي اشتغل بمعاده ، والمقتصد : الذي اشتغل بمعاشه ومعاده ، والظالم : الذي اشتغل بمعاشه عن معاده.
وقيل : الظالم : الذي يعبده على الغفلة والعادة ، والمقتصد : الذي يعبده على الرغبة والرهبة ، والسابق : الذي يعبده على الهيبة والاستحقاق. وقيل : الظالم : من أخذ الدنيا حلالا وحراما ، والمقتصد : المجتهد ألا يأخذها إلا من حلال ، والسابق : من أعرض عنها جملة.
وقيل : الظالم : طالب الدنيا ، والمقتصد : طالب الآخرة ، والسابق : طالب الحق لا يبغى به بدلا. جعلنا اللّه منهم بمنّه وكرمه. وقال عكرمة والحسن وقتادة : الأقسام الثلاثة فى جميع العباد فالظالم لنفسه : الكافر ، والمقتصد :
المؤمن العاصي ، والسابق : التقى على الإطلاق. وقالوا هذه الآية نظير قوله تعالى : وَكُنْتُمْ أَزْواجاً ثَلاثَةً «١» والتحقيق ما تقدم.
وقوله : بِإِذْنِ اللَّهِ أي : بأمره ، أو : بتوفيقه وهدايته ذلِكَ أي : إيراث الكتاب والاصطفائية. أو السبق إلى الخيرات هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ الذي لا أكبر منه ، وهو جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَها أي : الفرق الثلاث لأنها ميراث ، والعاق والبار فى الميراث سواء ، إذا كانوا مقرين فى النسب. وقرأ أبو عمرو بالبناء للمفعول. يُحَلَّوْنَ فِيها مِنْ أَساوِرَ جمع أسورة ، جمع سوار ، مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً أي : من ذهب مرصّع باللؤلؤ. وقرأ نافع بالنصب «٢» ، عطف على محل أساور ، أي : يحلون أساور ولؤلؤا. وَلِباسُهُمْ فِيها حَرِيرٌ لما فيه من اللذة والليونة والزينة.
وَقالُوا بعد دخولهم الجنة : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ خوف النار ، أو : خوف الموت ، أو : الخاتمة ، أو : هم الرزق. والتحقيق : أنه يعم جميع الأحزان والهموم ، دنيوية أو أخروية ، وعن ابن عمر : قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : «ليس على أهل لا إلا اللّه وحشة ، فى قبورهم ، ولا فى محشرهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا اللّه يخرجون من قبورهم ، وهم ينفضون التراب عن وجوههم ، فيقولون : الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن» «٣». إِنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ، يغفر الجنايات ، وإن كثرت

، ويقبل الطاعات ، ويشكر عاملها ، وإن قلّت. الَّذِي أَحَلَّنا دارَ الْمُقامَةِ

---

(١) الآية ٧ من سورة الواقعة.

(٢) وهى أيضا قراءة عاصم. وقرأ الباقون بالجر عطفا على «ذهب». انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٣).

(٣) أخرجه البغوي فى تفسيره (٦/ ٤٢٤) وعزاه الحافظ ابن حجر ، فى الكافي الشاف (ص ١٣٩) لأبى يعلى ، وابن أبى حاتم ، والبيهقي فى أول الشعب ، والطبراني فى الأوسط.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٤

أي : دار الإقامة لا نبرح عنها ولا نفارقها. يقال : أقمت إقامة ومقاما ومقامة ، مِنْ فَضْلِهِ أي : من عطائه وإفضاله ، لا باستحقاق أعمالنا ، لا يَمَسُّنا فِيها نَصَبٌ تعب ومشقة وَلا يَمَسُّنا فِيها لُغُوبٌ إعياء وكلل من التعب ، وفترة إذ لا تكليف فيها ولا كد. نفى عنهم أولا التعب والمشقة ، وثانيا ما يتبعه من الإعياء والملل.

وأخرج البيهقي : أن رجلا قال يا رسول اللّه : إن النوم مما يقرّ اللّه به أعيننا ، فهل فى الجنة من نوم؟ فقال : «إن النوم شريك الموت – أو أخو الموت – وإن أهل الجنة لا ينامون – أو : ليس فى الجنة موت». وفى رواية أخرى ، قال : فما راحتهم؟ قال : «ليس فيها لغوب ، كل أمرهم راحة» «١» ، فالنوم ينشأ من نصب الأبدان ، ومن ثقل الطعام ، وكلاهما منتفيان فى الجنة.

قال الضحاك : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، استقبلهم الولدان والخدم ، كأنهم اللؤلؤ المكنون ، فيبعث اللّه ملكا من الملائكة ، معه هدية من رب العالمين ، وكسوة من كسوة الجنة ، فيلبسه ، فيريد أن يدخل الجنة فيقول الملك : كما أنت ، فيقف ، ومعه عشرة خواتم ، فيضعها فى أصابعه ، مكتوب : طبتم فادخلوها خالدين ، وفى الثانية : ادخلوها بسلام ، ذلك يوم الخلود ، وفى الثالثة : رفعت عنكم الأحزان والهموم ، وفى الرابعة : وزوجناهم بحور عين ، وفى الخامسة : ادخلوها بسلام آمنين ، وفى السادسة : إنى جزيتهم اليوم بما صبروا ، وفى السابعة : أنهم هم الفائزون. وفى الثامنة : صرتم آمنين لا تخافون أبدا ، وفى التاسعة : رفقتم النبيين والصديقين والشهداء ، وفى العاشرة : سكنتم فى جوار من لا يؤذى الجيران. فلما دخلوا قالوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ .. إلى : لُغُوبٌ. هـ.

الإشارة : قال الورتجبي : الاصطفائية تقدمت الوراثة لمحبته ومشاهدته ، ثم خاطبهم بما له عندهم وما لهم عنده. وهذا الميراث الذي أورثهم من جهة نسب معرفتهم به ، واصطفائيته إياهم ، وهو محل القرب والانبساط ، لذلك قال : ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا ، ثم قسمهم على ثلاثة أقسام : ظالم

، ومقتصد ، وسابق. والحمد للّه الذي جعل الظالم من أهل الاصطفائية. ثم قال : فالظالم عندى – واللّه أعلم – الذي وازى القدم بشرط إرادة حمل وارد جميع الذات والصفات ، وطلب كنه الأزلية بنعت إدراكه ، فأى ظالم أعظم منه؟ إذ طلب شيئا مستحيلا ، ألا ترى كيف وصف سبحانه آدم بهذا الظلم بقوله : وَحَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا «٢» ، وهذا من كمال شوقه إلى حقيقة الحق ، وكمال عشقه ، ومحبة جلاله. هـ.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٧٦) لابن أبى حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي فى البعث ، عن عبد اللّه بن أبى أوفى رضي اللّه عنه.

(٢) الآية ٧٢ من سورة الأحزاب.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٥

قلت : وهذا النوع من المتوجهين غلب عليه سكر المحبة ، ودهش العشق ، فادعى قوة الربوبية ، وطلب إدراك الألوهية ، ونسى ضعف عبوديته ، فكان ظالما لنفسه ، من هذا المعنى إذ العبودية لا تطيق إدراك كنه الربوبية. ولو أنه طلب الوصول إليه من جهة فقره ، وضعفه ، لكان مقتصدا ، ولو أنه طلب الوصول إلى اللّه باللّه لكان سابقا.

فالأقسام الثلاثة تجرى فى المتوجهين فالظالم لنفسه : من غلب سكره على صحوه فى بدايته ، والمقتصد من غلب صحوه على سكره فى بداية سيره ، والسابق من اعتدل سكره مع صحوه فى نهايته أو سيره.

أو الظالم : السالك المحض ، والمقتصد : المجذوب المحض ، والسابق : الجامع بينهما إذ هو الذي يصلح للتربية. أو الظالم : الذي ظاهره خير من باطنه ، والمقتصد : الذي استوى ظاهره وباطنه ، والسابق : هو الذي باطنه خير من ظاهره.

وعن عليّ – كرم اللّه وجهه – : الظالم : الآخذ بأقوال النبي صلى اللّه عليه وسلم ، والمقتصد : الآخذ بأقواله وأفعاله ، والسابق :

الآخذ بأقواله وأفعاله وأخلاقه. وقال القشيري : ويقال : الظالم : من غلبت زلّاته ، والمقتصد : من استوت حالاته ، والسابق : من زادت حسناته. أو : الظالم : من زهد فى دنياه ، والمقتصد : من رغب فى عقباه ، والسابق : من آثر على الدارين مولاه. أو : الظالم : من نجم كوكب عقله ، والمقتصد : من طلع بدر علمه ، والسابق : من ذرّت شمس معرفته.

أو : الظالم : من طلبه ، والمقتصد : من وجده ، والسابق : من بقي معه. أو : الظالم : من ترك الزلة ، والمقتصد : من ترك الغفلة ، والسابق : من ترك العلاقة. أو : الظالم : من جاد بنفسه ، والمقتصد : من لم يبخل بقلبه ، والسابق : من جاد بروحه. أو : الظالم : من له علم اليقين ، والمقتصد : من له عين اليقين ، والسابق : من له حق اليقين. أو : الظالم.

بترك الحرام ، والمقتصد : بترك الشّبهة ، والسابق : بترك الفضل فى الجملة.

أو : الظالم : صاحب سخاء ، والمقتصد : صاحب جود ، والسابق : صاحب إيثار. أو : الظالم : صاحب رجاء ، والمقتصد : صاحب بسط ، والسابق : صاحب أنس. أو : الظالم : صاحب خوف ، والمقتصد : صاحب خشية ، والسابق :

صاحب هيبة. أو : الظالم له المغفرة ، والمقتصد : له الرحمة ، والسابق : له القربة ، أو : الظالم : طالب النجاة ، والمقتصد : طالب الدرجات ، والسابق : طالب المناجاة. أو : الظالم : أمن من العقوبة ، والمقتصد : طالب المثوبة ، والسابق : متحقق بالقربة. أو : الظالم : صاحب التوكل ، والمقتصد : صاحب التسليم ، والسابق : صاحب التفويض ، أو :

الظالم : صاحب تواجد ، والمقتصد : صاحب وجد ، والسابق : صاحب وجود – غير محجوب عنه البتة – . أو : الظالم :

مجذوب إلى فعله ، والمقصد مكاشف بوصفه ، والسابق : مستهلك فى حقه ، الذي هو وجوده. أو : الظالم : صاحب

(٤/٥٤٥)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٦

المحاضرة ، والمقتصد : صاحب المكاشفة ، والسابق : صاحب المشاهدة. وبعضهم قال : يراه الظالم فى الآخرة فى كل جمعة ، والمقتصد : فى كل يوم مرة ، والسابق : غير محجوب عنه البتة. هـ. باختصار.

والتحقيق : أن الأقسام الثلاثة تجرى فى كل من العارفين ، والسائرين ، والعلماء ، والعباد ، والزهاد ، والصالحين.

إذ كل فن له بداية ووسط ونهاية. ذلك السبق إلى اللّه هو الفضل الكبير ، جنات المعارف يدخلونها ، يحلّون فيها فيها من أساور من ذهب ، وهى الأحوال ، ولؤلؤا ، وهى المقامات ، ولباسهم فيها حرير ، وهى خالص أعمال الشريعة ولبها. وقالوا : الحمد للّه الذي أذهب عنا الحزن إذ لا حزن مع العيان ، ولا أغيار مع الأنوار ، ولا أكدار مع الأسرار ، ما تجده القلوب من الأحزان فلما منعت من العيان.

ولابن الفارض رضي اللّه عنه فى وصف الخمرة :

وإن خطرت يوما على خاطر امرئ أقامت بها الأفراح وارتحل الهمّ

وقال أيضا :

فما سكنت والهمّ يوما بموضع ، كذلك لم يسكن مع النغم الغمّ «١»

إنّ ربنا لغفور بتغطية العيوب ، شكور بكشف الغيوب ، الذي أحلنا دار المقامة ، هى التمكين فى الحضرة ، بفضله ، لا بحول منا ولا قوة ، لا يمسنا فيها نصب. قال القشيري : إذا أرادوا أن يروا مولاهم لا يحتاجون إلى قطع مسافة ، بل هم فى غرفهم يشاهدون مولاهم ، ويلقون فيها تحية وسلاما ، وإذا رأوه لا يحتاجون إلى تحديق مقلة من جهة ، كما هم يرونه بلا كيفية. هـ.

ثم ذكر أضدادهم ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٦ الى ٣٧]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها كَذلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها رَبَّنا أَخْرِجْنا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧)

---

(١) فى الأصول الخطية : [كذلك لا يسكن مع النعم الغم].

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٧

قلت : «فيموتوا» : جواب النفي.

يقول الحق جل جلاله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ ، يخلدون فيها ، لا يُقْضى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا أي : لا يحكم بموت ثان فيستريحوا ، وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذابِها ساعة ، بل كلما خبت زيد إسعارها ، وهذا مثل قوله : لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ «١» ، وذكر عياض انعقاد الإجماع على أن الكفار لا تنفعهم أعمالهم ، ولا يثابون عليها. ولا تخفيف عذاب. وقد ورد فى الصحيح سؤال عائشة عن ابن جدعان ، وأنه كان يصل الرحم ، ويطعم المساكين ، فهل ذلك نافعه ، فقال عليه السّلام : «لا ، فإنه لم يقل يوما : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين». ثم قال عياض : ولكن بعضهم يكون أشد عذابا ، بحسب جرائمهم.

وذكر أبو بكر البيهقي : أنه يجوز أن يراد بما ورد فى الآيات والأخبار من بطلان خيرات الكفار : أنهم لا يتخلصون بها من النار ، ولكن يخفف عنهم ما يستوجبونه بجناية سوى الكفر ، ودافعه المازري. قال شارح الصغاني بعد هذا النقل : وعلى ما قاله عياض ، فما ورد فى أبى طالب من النفع بشفاعته صلى

اللّه عليه وسلم ، بسبب ذبّه عنه ونصرته له ، مختص به. هـ. ويرد عليه ما ورد من التخفيف فى حاتم بكرمه ، فالظاهر ما قاله البيهقي. واللّه أعلم.

ومثل ما قاله فى أبى طالب ، قيل فى انتفاع أبى لهب بعتق ثويبة ، كما فى الصحيح «٢».

والحاصل : أن التخفيف يقع فى بعض الكفار ، لبره فى الدنيا ، تفضلا منه تعالى ، لا فى مقابلة عملهم لعدم شرط قبوله. انظر الحاشية.

كَذلِكَ أي : مثل ذلك الجزاء الفظيع ، نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ مبالغ فى الكفران وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيها : يستغيثون ، فهو يفتعلون ، من : الصراخ ، وهو الصياح بجهد ومشقة. فاستعمل فى الاستغاثة لجهر صوت المستغيث. يقولون : رَبَّنا أَخْرِجْنا منها ، وردنا إلى الدنيا نَعْمَلْ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، فنؤمن بعد

---

(١) من الآية ٧٥ من سورة الزخرف.

(٢) كانت السيدة (ثويبة) مولاة لأبى لهب ، عم الرسول صلى اللّه عليه وسلم ، فأعتقها حين بشرته بمولد النبي صلى اللّه عليه وسلم – على أصح الأقوال – حين قالت لأبى لهب :

أشعرت أن آمنة قد ولدت غلاما لأخيك عبد الله ، فقال لها : اذهبي فأنت حرة. ويؤكد ذلك ما أخرجه الإمام البخاري فى (النكاح ، باب وَأُمَّهاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ ح ٥١٠١) عن عروة بن الزبير «أن ثويبة مولاة أبى لهب ، وكان أبو لهب أعتقها ، فأرضعت النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فلما مات أبو لهب ، أريه بعض أهله بشر حيبة. قال له : ماذا لقيت؟ قال أبو لهب : لم ألق بعدكم [راحة – رخاء] غير أنى سقيت فى هذه بعتقي ثويبة» وأشار إلى النقيرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وقد نظم شمس الدين محمد بن ناصر فى هذا المعنى شعرا ، قال فيه :

إذا كان هذا كافرا جاء ذمه وتبت يداه فى الجحيم مخلدا

أتى أنه فى يوم الاثنين دائما يخفف عنه للسرور بأحمدا

فما الظن بالعبد الذي كان عمره بأحمد مسرورا ومات موحدا

انظر : شرح المواهب (١/ ١٣٨ – ١٣٩) وأيضا : الطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ١٠٨) وكتاب «أعظم المرسلين» لشيخنا البركة الدكتور «جودة المهدى» (١٧٧ – ٧٩).

الكفر ، ونطيع بعد المعصية. فيجابون بعد قدر عمر الدنيا : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ ما يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ أي :

أو لم نعمركم تعميرا يتذكر فيه المتذكر. وهو متناول لكل عمر يتمكن منه المكلّف من إصلاح شأنه ، والتدبر فى آياته ، وإن قصر ، إلا أن التوبيخ فى المتطاول أعظم. وقيل : هو ثمانى عشرة سنة. وقيل : ما بين العشرين إلى الستين ، وقيل : أربعون. وروى أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب ، مسح الشيطان على وجهه. وقال : وجه لا يفلح أبدا ، وقيل : ستون. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «العمر الذي أعذر اللّه فيه ابن آدم ستون سنة» «١» ، وفى البخاري عنه عليه السّلام : «أعذر اللّه المرء آخر أجله حتى بلغ ستين سنة» «٢».

وَجاءَكُمُ النَّذِيرُ أي : الرسول عليه السّلام ، أو : الكتاب ، وقيل : الشيخوخة ، وزوال السن ، وقيل : الشيب. قال ابن عزيز : وليس هذا شيء لأن الحجة تلحق كل بالغ وإن لم يشب. وإن كانت العرب تسمى الشيب النذير. هـ. ولقوله تعالى بعد : فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ، فإنه يتعين كونه الرسول ، وهو عطف على معنى : أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ لأن لفظه استخبار ، كأنه قيل : قد عمرناكم وجاءكم النذير. قال قتادة : احتج عليهم بطول العمر ، وبالرسول ، فانقطعت حجتهم. قال تعالى : فَذُوقُوا العذاب فَما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ يدفع العذاب عنهم.

الإشارة : الذين كفروا بطريق الخصوصية ، وأنكروا وجود التربية بالاصطلاح ، فبقوا مع نفوسهم ، لهم نار القطيعة ولو دخلوا الجنة الحسية ، لا يقضى عليهم فيموتوا ، ويرجعوا إلى الاستعداد بدخول الحضرة ، ولا يخفف عنهم من عذاب حجاب الغفلة ، بل يزيد الحجاب بتراكم الحظوظ ، ونسج الأكنة على القلوب ، كذلك نجزى كل كفور وجحود لطريق التربية. وهم يصطرخون فيها ، بلسان حالهم ، قائلين : ربنا أخرجنا ، وردّنا إلى دار الفناء ، نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل ، حتى ندخل ، كما دخلها أهل العزم واليقظة؟ فيقال لهم : أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ، من ينذركم وبال القطيعة ، ويعرفكم بطريق الحضرة ، فأنكرتموه ، فذوقوا وبال القطيعة ، فما للظالمين من نصير.

ولمّا كان الكفر والإيمان من أعمال القلوب ، قد يخفى على الناس ، أخبر أن اللّه هو مطلع على ما فيها ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٣٨ الى ٣٩]

إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَساراً (٣٩)

---

(١) عزاه المناوى فى الفتح السماوي (٣/ ٩٤٧) للبزار ، من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه. وأصله عند البخاري. [.....]

(٢) أخرجه البخاري فى (الرقاق ، باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر اللّه إليه فى العمر ، ح ٦٤١٩) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٤/٥٤٨)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٤٩

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

أي : ما غاب فيهما عنكم ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ

،

تعليل لما قبله لأنه إذا علم ما فى الصدور ، وهى أخفى ما يكون ، فقد علم كل غيب فى العالم. وذات الصدور : مضمراتها ووساوسها. وهى تأنيث «ذو» ، بمعنى : صاحب الوساوس والخطرات ، تصحب الصدور وتلازمها فى الغالب ، أي : عليم بما فى القلوب ، أو بحقائقها ، على أن «ذات» بمعنى الحقيقة.

هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ أي : جعلكم خلفاء عنه فى التصرف فى الأرض ، قد ملككم مقاليد التصرف فيها ، وسلطكم على ما فيها ، وأباح لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة. فَمَنْ كَفَرَ منكم ، وغمط مثل هذه النعمة السنيّة ، فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ فوبال كفره راجع عليه ، وهو مقت اللّه ، وخسران الآخرة ، كما قال تعالى : وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً ، وهو أشد البغض ، وَلا يَزِيدُ الْكافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَساراً : هلاكا وخسرانا.

الإشارة : إن اللّه عالم بما غاب فى سموات الأرواح ، من أسرار العلوم والمكاشفات ، والاطلاع على أسرار الذات ، وأنوار الصفات ، وما غاب فى أرض النفوس من الموافقات أو المخالفات ، إنه عليم بحقائق القلوب ، من صفائها وكدرها ، وما فيها من اليقين والمعرفة ، وضدهما.

قال القشيري : إِنَّ اللَّهَ عالِمُ غَيْبِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ

، بإخلاص المخلصين ، وصدق الصادقين ، ونفاق المنافقين ، وجحد الكافرين ، ومن يريد بالناس شرا ، ومن يحسن باللّه ظنا. هـ.

وقال فى قوله تعالى : هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ : أهلّ كلّ عصر خليفة عصر تقدمهم ، فمن قوم هم أنفسهم جمال ، ومن قوم أراذل وأنذال ، والأفاضل زمانهم لهم محنة ، والأراذل هم لزمانهم محنة.

وحاصل كلامه :

أن قوما عرفوا حق الخلافة ، فقاموا بحقها ، وشكروا اللّه عليها ، بالقيام بطاعته ، فكانوا فى زمانهم جمالا لأنفسهم ، ولأهل عصرهم ، لكنهم لمّا تحملوا مشاق الطاعات ، وترادف الأزمات ، كان زمانهم

لهم محنة. وقوما لم يعرفوا حق الخلافة ، فاشتغلوا بالعصيان ، فانتحس الزمان بهم ، فكانوا محنة لزمانهم.

ثم ردّ على من كفر بالشرك ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٤٠]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلاَّ غُرُوراً (٤٠)

(٤/٥٤٩)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٠

قلت : «أرأيتم» : بمعنى : أخبرونى ، وهى تطلب مفعولين : أحدهما منصوب ، والآخر مشتمل على استفهام ، كقولك : أرأيت زيدا ما فعل ، فالأول : (شركاءكم) والثاني : (ماذا خلقوا). و(أرونى) : اعتراض ، فيها تأكيد للكلام وتشديد. ويحتمل أن يكون من باب التنازع لأنه توارد على (ماذا خلقوا) : (أرأيتم) و(أرونى) ، ويكون قد أعمل الثاني على المختار عند البصريين. قاله أبو حيان. ولابن عطية وابن عرفة غير هذا ، فانظره. و«بعضهم» : بدل من «الظالمين».

يقول الحق جل جلاله : قُلْ لهم أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ أي : أخبرونى عن آلهتكم التي أشركتموها فى العبادة مع اللّه ، الَّذِينَ تَدْعُونَ أي : تعبدونهم مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ما سندكم فى عبادتهم؟ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أي : جزء من الأرض ، استبدّوا بخلقه حتى استحقوا العبادة بسبب ذلك ، أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ أي : أم لهم مع اللّه شركة فى خلق السموات حتى استحقوا أن يعبدوا؟ بل لا شىء من ذلك ، فبطل استحقاقها للعبادة. أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً أم معهم كتاب من عند اللّه ينطق بأنهم شركاؤه ، فَهُمْ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْهُ فهم على حجة وبرهان من ذلك الكتاب؟ قال ابن عرفة : هذا إشارة إلى الدليل السمعي ، والأول إشارة إلى الدليل العقلي ، فهم لم يستندوا فى عبادتهم الأصنام إلى دليل عقلى ولا سمعى ، بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ أي :

ما يعد الظالمون ، وهم الرؤساء بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً باطلا وتمويها ، وهو قولهم : هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ «١». لمّا نفى أنواع الحجج العقلية والسمعية ، أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تقرير الأسلاف الأخلاف ، والرؤساء الأتباع بأنهم شفعاء عند اللّه تقربهم إليه. هذا هو التقليد الردئ ، والعياذ باللّه.

الإشارة : كل من ركن إلى مخلوق ، أو اعتمد عليه ، يتلى عليه : أَرَأَيْتُمْ شُرَكاءَكُمُ .. الآية. وفى الحكم : «كما لا يقبل العمل المشترك ، لا يحب القلب المشترك. العمل المشترك لا يقبله ، والقلب

المشترك لا يقبل عليه».

ثم ذكر من يستحق العبادة وحده ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٤١]

إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١)

---

(١) من الآية ١٨ من سورة يونس.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥١

يقول الحق جل جلاله : إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا أي : يمنعهما من أن تزولا لأن إمساكهما منع. والمشهور عند المنجمين : أن السموات هى الأفلاك التي تدور دورة بين الليل والنهار. وإنكار ابن يهود على كعب ، كما فى الثعلبي ، تحامل إذ لا يلزم من دورانها عدم إمساكها بالقدرة ، وانظر عند قوله : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها .. «١» قال القشيري : أمسكهما بقدرته ، وأتقنهما بحكمته ، وزينهما بمشيئته ، وخلق أهلهما على موجب قضيته ، فلا شبيه فى إبقائهما وإمساكهما يساهمه ، ولا شريك فى إيجادهما وإعدامهما يقاسمه. هـ.

وَلَئِنْ زالَتا ، على سبيل الفرض ، إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، من بعد إمساكه. و«من» الأولى : مزيدة ، لتأكيد النفي ، والثانية : ابتدائية ، إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً ، غير معاجل بالعقوبة ، حيث أمسكهما على من يشرك به ويعصيه ، وكانتا جديرتين بأن تهدّ هدّا ، كما قال : تَكادُ السَّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ .. «٢» الآية.

الإشارة : الوجود قائم بين سماء القدرة وأرض الحكمة ، بين سماء الأرواح وأرض الأشباح ، بين سماء المعاني وأرض الحس ، فلو زال أحدهما لاختل نظام الوجود ، وبطلت حكمة الحكيم العليم. الأول : عالم التعريف ، والثاني :

عالم التكليف. الأول : محل التنزيه ، والثاني : محل التشبيه ، الأول : محل أسرار الذات ، والثاني : محل أنوار الصفات ، مع اتحاد المظهر إذ الصفات لا تفارق الموصوف ، فافهم. وفى بعض الأثر : «إن العبد إذا عصى اللّه استأذت السماء أن تسقط عليه من فوقه ، والأرض أن تخسف من تحته ، فيمسكهما اللّه تعالى بحلمه وعفوه ، ثم تلى الآية : إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا إلى قوله : كانَ حَلِيماً غَفُوراً» هـ. بالمعنى.

ثم ذكر عناد قريش وعتوهم ، تتميما لقوله : وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نارُ جَهَنَّمَ .. إلخ ، فقال :

[سورة فاطر (٣٥) : الآيات ٤٢ الى ٤٤]

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ ما زادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً (٤٢) اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً (٤٣) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً (٤٤) _____

(١) الآية ٣٨ من سورة يس.

(٢) الآية ٩٠ من سورة مريم.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٢

قلت : «جهد» : نصب على المصدر ، أو على الحال. و«استكبار» و«مكر» : مفعول من أجله أو حال.

يقول الحق جل جلاله : وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ أي : إقساما وثيقا ، أو : جاهدين فى أيمانهم : لَئِنْ جاءَهُمْ نَذِيرٌ رسول لَيَكُونُنَّ أَهْدى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ المهتدية ، بدليل قوله : (أهدى) وقوله فى سورة الأنعام : لَكُنَّا أَهْدى مِنْهُمْ «١» وذلك أن قريشا قالوا قبل مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم لمّا بلغهم أن أهل الكتاب كذّبوا رسلهم : لعن اللّه اليهود والنصارى ، أتتهم الرسل فكذبوهم ، فو اللّه لئن أتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم «٢» ، أي : من الأمة التي يقال فيها : هى أهدى الأمم ، تفضيلا لها على غيرها فى الهدى والاستقامة. كما يقال للداهية العظيمة : هى أهدى الدواهي. فلما بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ما زادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً أي : ما زادهم مجيء الرسول صلى اللّه عليه وسلم إلا تباعدا عن الحق ، وهو إسناد مجازىّ إذ لا فاعل غيره.

اسْتِكْباراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ أي : ما زادهم إلا تهورا للاستكبار ومكر السيّء. أو : مستكبرين وماكرين برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والمؤمنين ، المكر القبيح ، وهو إجماعهم على قتله. عليه الصلاة والسلام ، وإذاية من تبعه.

وأصل قوله : (و مكر السيئ) : وأن مكروا المكر السيّء ، فحذف الموصوف استغناء بوصفه ، ثم أبدل «أن» مع الفعل بالمصدر ، ثم أضيف إلى صفته اتساعا ، كصلاة الأولى ، ومسجد الجامع. وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ أي : لا يحيط وينزل المكر السيّء إلا بمن مكره ، وقد حاق بهم يوم بدر. وفى

المثل : من حفر حفرة وقع فيها.

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ : ما ينتظرون إلا أن ينزل بهم ما نزل بالمكذبين الأولين ، من العذاب المستأصل ، كما هى سنّة اللّه فيمن كذّب الرسل. فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ، بيّن أن سنّته – التي هى الانتقام من مكذّبى الرسل – سنّة ماضية ، لا يبدلها فى ذاتها ، ولا يحوّلها عن وقتها ، وأنّ ذلك مفعول لا محالة.

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ممن كذّبوا رسلهم ، كيف أهلكهم اللّه ودمرهم ، كعاد ، وثمود ، وقرى قوم لوط. استشهد عليهم بما كانوا يشاهدونه فى مسايرهم إلى الشام واليمن والعراق ، من آثار الماضين ، وعلامات هلاكهم ودمارهم. وَقد كانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً واقتدارا ، فلم يتمكنوا من الفرار ، وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ ليسبقه ويفوته مِنْ شَيْءٍ أىّ شىء كان فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كانَ عَلِيماً بأحوالهم قَدِيراً على أخذهم. وباللّه التوفيق.

---

(١) من الآية ١٥٧ من سورة الأنعام.

(٢) قاله الضحاك ، فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٥٦٢).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٣

الإشارة : ترى بعض الناس يقول : لئن ظهر شيخ التربية لنكونن أول من يدخل معه ، فلما ظهر ، عاند واستكبر ، وربما أنكر ومكر. نعوذ باللّه من سابق الخذلان. قال القشيري : ليس لقولهم تحقيق ، ولا لضمانهم توثيق ، وما يعدون من أنفسهم فصريح زور ، وما يوهمون من وفاقهم فصرف غرور. وكذلك المريد فى أول نشاطه ، تمنّيه نفسه ما لا يقدر عليه ، فربما يعاهد اللّه ، ويؤكد فيه عقدا مع اللّه ، فإذا عضّته شهوته ، وأراد الشيطان أن يكذبه ، صرعه بكيده ، وأركسه فى كوة غيّه ، وفتنة نفسه فيسودّ وجهه ، ويذهب ماء وجهه.

ثم قال فى قوله : أَوَلَمْ يَسِيرُوا .. إلخ : ما خاب له وليّ ، وما ربح له عدو ، ولا تنال الحقيقة بمن انعكس قصده ، وارتد عليه كيده ، دمرّ على أعدائه تدميرا ، وأوسع لأوليائه فضلا كبيرا. هـ.

ثم تمم قوله : إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً بقوله :

[سورة فاطر (٣٥) : آية ٤٥]

وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً (٤٥)

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا بما اقترفوا من المعاصي ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها على ظهر الأرض لأنه جرى ذكرها فى قوله : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ «١» ، مِنْ دَابَّةٍ من نسمة تدبّ عليها. قيل : أهل المعاصي فقط من الناس ، وقيل : من الجن والإنس.

والمشهور : أنه عام فى كل ما يدب لأن الكل خلق للآدمى. وعن ابن مسعود : (إن الجعل «٢» ليعذب فى جحره بذنب ابن آدم) «٣» ، يعنى ما يصيبه من القحط ، بشؤم معاصيه. وقال أبو هريرة : إن الحبارى «٤» لتموت هزالا فى وكرها بظلم الظالم. هـ.

---

(١) الآية ٤٤ من السورة.

(٢) الجعل : حيوان معروف كالخنفساء. انظر النهاية فى غريب الحديث (جعل ١/ ٢٧٧).

(٣) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٨٠) للفريابى ، وابن المنذر ، والطبراني ، والحاكم ، وصححه.

(٤) الحبارى : طائر معروف ، وهو على شكل الإوزة ، برأسه وبطنه غبرة ، ولون ظهره وجناحيه كلون السمانى غالبا. والجمع حبابير ، وحباريات. انظر اللسان (حبر) مع تعليق محققه.

وقال : ابن الأثير فى النهاية (١/ ٣٢٨) :

وإنما خصها بالذكر لأنها أبعد الطير نجعة ، فربما تذبح بالبصرة ، ويوجد فى حوصلتها الحبة الخضراء ، وبين البصرة وبين منابتها مسيرة أيام.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٤

قال القشيري : لو عجّل لهم ما يستوجبونه من الثواب والعقاب ، لم تف أعمارهم القليلة ، وما اتسعت أفهامهم القصيرة له ، فأخّر ذلك ليوم الحشر ، فإنّه طويل ، واللّه على كل شىء قدير ، بأمور عباده بصير ، وإليه المصير هـ وهذا معنى قوله : وَلكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى هو يوم القيامة ، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ أجل جمعهم ، فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً أي : لن يخفى عليه حقيقة أمرهم ، وحكمة حكمهم ، فيجازيهم على قدر أعمالهم.

الإشارة : تعجيل العقوبة فى دار الدنيا للمؤمن إحسان ، وتأخيرها لدار الدوام استدراج وخذلان. فكل من له عناية سابقة عاتبه اللّه فى الدنيا ، بمصيبة فى بدنه ، أو ماله ، أو فى أهله ، ومن لا عناية له أخرت عقوباته كلها لدار الجزاء. نسأل اللّه العصمة بمنّه وكرمه ، وبسيدنا محمد نبيه – صلى اللّه عليه ، وعلى آله وصحبه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٥

سورة يس

مكية ، وقيل : إلا قوله : وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ «١» ، نزلت فى بنى سلمة ، حين أرادوا الانتقال إلى جوار النبي صلى اللّه عليه وسلم «٢». وآيها : ثلاث وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله : فَلَمَّا جاءَهُمْ نَذِيرٌ «٣» مع قوله :

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ فقد حقق هنا نذارته ورسالته بالقسم. وعنه صلى اللّه عليه وسلم : «يس تدعى المعمة ، تعم صاحبها بخير الدارين ، والدافعة والقاضية – تدفع عنه كل شر ، وتقضى له كل حاجة» «٤». وفى خبر آخر : «يس لما قرئ له» ، وفى حديث آخر : «ما قرأها خائف إلا أمن ، ولا جائع إلا شبع ، ولا عطشان إلا روى ، ولا عريان إلا كسى ، ولا مسجون إلا سرح ، ولا عازب إلا تزوج ، ولا مسافر إلا أعين ، ولا ذو ضالة إلا وجدها». وقال صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ يس عند الموت ، أو قرئ عليه ، أنزل اللّه بعدد كل حرف منها عشرة من الملائكة ، يقفون بين يديه ، ويصلون عليه ، ويستغفرون له ، ويشهدون جنازته».

[سورة يس (٣٦) : الآيات ١ الى ٤]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤)

يقول الحق جل جلاله : يس أيها السيد المفخم ، والمجيد المعظم ، وَحق الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ المحكم إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ. وفى الحديث : «إن اللّه تعالى سمّانى فى القرآن بسبعة أسماء : محمد ، وأحمد ، وطه ، ويس ، والمزّمّل ، والمدّثر ، وعبد اللّه» ، قيل : ولا تصح الاسمية فى يس لإجماع القراء السبعة على قراءتها ساكنة ، على أنها حروف هجاء محكية ، ولو سمى بها لأعربت غير مصروفة ، كهابيل وقابيل ، ومثلها «طس» و«حم» ، كما قال الشاعر :

لما سمى بها السورة فهلا تلى حميم قبل التكلم.

---

(١) الآية ١٢.

(٢) أخرجه الترمذي فى (التفسير ، باب : ومن سورة يس ، ٥/ ٣٣٩ ، ح ٣٢٢٦) والحاكم ، وصححه ، وأقره الذهبي (٢/ ٤٢٨) ، والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٨ – ٣٧٩) عن أبى سعيد الخدري. وقال الترمذي : «حديث حسن غريب» وقال الحافظ ابن كثير فى التفسير (٣/ ٥٦٦) معلقا على حديث نحوه ، رواه البزار : فيه غرابة.

(٣) من الآية ٤٢ من سورة فاطر.

(٤) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٢/ ٤٨١ ، ح ٢٤٦٥) وضعّفه ، من حديث أبى بكر الصدّيق رضي اللّه عنه. وذكره بنحوه ، مطولا ، القرطبي فى تفسيره (٦/ ٥٦٠٢) وعزاه للثعلبى ، من حديث السيدة عائشة رضى اللّه عنها. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٦

فدلّ على أنها حروف حال التلاوة. نعم قد قرئ «يس» بضم النون ، ونصبها ، خارج السبعة ، وعلى ذلك تخرج بأن اللفظ اسم للسورة ، كأنه قال : أتل يس ، على النصب ، وعلى أنها اسم من أسمائه صلى اللّه عليه وسلم ، وتوجه فى قراءة الضم على النداء. هـ. قلت : والظاهر أنها حروف مختصرة من السيد ، على طريق الرمز بين الأحباء ، إخفاء عن الرقباء.

ثم أقسم على رسالته ، ردا على من أنكره بقوله : وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ أي : ذى الحكمة البالغة ، أو : المحكم الذي لا ينسخه كتاب ، أو : ذى كلام حكيم ، فوصف بصفة المتكلم به ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ من أعظمهم وأجلّهم. وهو ردّ على من قال من الكفار : لَسْتَ مُرْسَلًا «١». عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ أي : كائنا على طريق مستقيم ، يوصل من سلكه إلى جوار الكريم ، فهو حال من المستكن فى الجار والمجرور. وفائدته : وصف الشرع بالاستقامة صريحا ، وإن دلّ عليه : إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ التزاما ، أو : خبر ثان لإن. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : قال القشيري : يس ، معناه : يا سيد – رقّاه أشرف المنازل ، وإن لم يسم إليه بطرق التأميل ، سنّة منه سبحانه أنه لا يضع أسراره إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه ، ولذلك قضوا بالعجب فى استحقاقه ، وقالوا : كيف آثر يتيم أبى طالب من بين البرية ، ولقد كان – صلوات اللّه عليه – فى سابق اختياره تعالى مقدّما على الكافة من أشكاله وأضرابه ، وفى معناه قيل :

هذا وإن أصبح فى أطمار وكان فى فقر من اليسار

آثر عندى من أخى وجارى وصاحب الدرهم والدينار

وصاحب الأمر مع الإكثار «٢». هـ.

---

(١) من الآية ٤٣ من سورة الرعد.

(٢) وردت الأبيات – كاملة – فى قصة ، ذكرها ابن كثير فى البداية والنهاية (٨/ ٨٩ – ٩٠) ، وملخصها :

كان معاوية بن أبى سفيان على السماط ، فمثل بين يديه شاب من بنى عذرة ، فأنشده شعرا ، مضمونه : التشوق إلى زوجته سعاد.

وقال : يا أمير المؤمنين : إنى كنت متزوجا بابنة عم لى ، وكان لى إبل وغنم ، وأنفقت ذلك عليها ، فلما قلّ ما بيدي رغب عنى أبوها ، وشكانى إلى عاملك بالكوفة (ابن أم الحكم) وبلغه جمالها ، فحبسنى ، وحملنى على أن أطلقها ، فلما انقضت عدتها أعطاها عاملك عشرة آلاف درهم ، فزوّجه إياها ، فهل من فرج؟

فكتب معاوية إلى ابن أم الحكم يؤنبه ، وأمره بطلاقها ، فطلقها ، وسيّرها إلى معاوية ، وخيّرها معاوية بين زوجها وابن أم الحكم ، فاختارت زوجها الأول ، وأنشدت الأبيات :

هذا وإن أصبح فى أطمار وكان فى نقص من اليسار
أكبر عندى من أبى وجارى وصاحب الدرهم والدينار
أخشى إذا غدرت حر النار خلى سبيلى ما به عار
لعلنا نرجع للديار وأن عسى نظفر بالأوطار

راجع أيضا : تزيين الأسواق (١/ ٢٤٩) ، ونهاية الأرب (٢/ ١٥٩) ، ولطائف الإشارات (١/ ٤٢ – ٤٣).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٧

قال الورتجبي : قيل : الياء تشير إلى يوم الميثاق ، والسين تشير إلى سره مع الأحباب ، فقال : بحق يوم الميثاق ، وسرى مع الأحباب ، وبالقرآن الحكيم ، إنك لمن المرسلين يا محمد هـ ..

وجاء : «إن قلب القرآن يس ، وقلبه : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ» «١». قلت : وهو إشارة إلى سر القربة ، الداعي إليه القرآن ، وعليه مداره ، وحاصله : تسليم اللّه على عباده كفاحا ، لحياتهم به ، وأنسهم بحديثه وسره. وقيل : لأن فيه تقرير أصول الدين. قاله فى الحاشية الفاسية.

ثم فسّر القرآن ، المقسم به ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٥ الى ١١]

تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ فَهُمْ غافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْناهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ (٩)

وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ

فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١)

قلت : «تنزيل» : خبر ، أي : هو تنزيل. ومن نصبه فمصدر ، أي : نزل تنزيل ، أو : اقرأ تنزيل ، وقرئ بالجر ، بدل من القرآن. و«ما أنذر» : نعت لقوم. و«ما» : نفى ، عند الجمهور ، أو : موصولة مفعولا ثانيا لتنذر ، أي : العذاب الذي أنذره آباؤهم ، أو : مصدرية ، أي : لتنذر قوما إنذار مثل إنذار آبائهم. يقول الحق جل جلاله : هذا ، أو هو تَنْزِيلَ «٢» الْعَزِيزِ أي : الغالب القاهر بفصاحة نظم كتابه أوهام ذوى العناد ، الرَّحِيمِ الجاذب بلطافة معنى خطابه أفهام ذوى الرشاد. أنزلناه لِتُنْذِرَ به قَوْماً ، أو :

---

(١) وردت الجملة الأولى فى حديث أخرجه الترمذي فى (فضائل القرآن ، باب : ما جاء فى فضل «يس» ٥/ ١٥٠ ، ح ٢٨٨٧) والدرامى فى (فضائل القرآن ، باب فضل يس ، ٢/ ٥٤٨ ، ح ٣٤١٦) وأحمد فى المسند (٥/ ٢٦) عن أنس. بلفظ «إن لكل شيء قلبا ، وقلب القرآن يس ..» الحديث ، قال الترمذي : هذا حديث غريب. وهارون أبو محمد شيخ مجهول.

(٢) قرأ ابن عامر ، وحفص ، وحمزة ، والكسائي ، بنصب اللام على المصدر. وقرأ الحسن بالجر ، وقرأ الباقون بالرفع ، خبر لمقدر. وقد سار المفسر على قراءة الرفع. انظر الإتحاف (٢/ ٣٩٧).

(٥٥٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٥٨

أرسلناك لتنذر قوما غافلين ، ما أُنْذِرَ آباؤُهُمْ أي : غير منذر آباؤهم ، كقوله : لِتُنْذِرَ قَوْماً ما أَتاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ «١» وقوله : وَما أَرْسَلْنا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ «٢» أو : لتخوف قوما العذاب الذي أنذر به آباؤهم ، لقوله :

ّ◌َا أَنْذَرْناكُمْ عَذاباً قَرِيباً

«٣». أو : لتنذر قوما إنذار آبائهم ، وهو ضعيف إذ لم يتقدم لهم إنذار. فَهُمْ غافِلُونَ ، إن جعلت «ما» نافية فهو متعلق بالنفي ، أي : لم ينذروا فهم غافلون ، وإلا فهو متعلق بقوله : إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ لتنذر قوما ، كقولك : أرسلته إلى فلان لينذره فهو غافل.

لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، يعنى قوله : لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ «٤» أي : تعلق بهم هذا القول ، وثبت عليهم ووجب لأنه علم أنهم يموتون على الكفر. قال ابن عرفة : إنذارهم مع إخباره بأنهم لا يؤمنون ليس من تكليف ما لا يطاق عقلا وعادة ، وما لا يطاق من جهة السمع يصح التكليف به ، اعتبارا بظاهر الأمر ، وإلا لزم أن تكون التكاليف كلها لا تطاق ، ولا فائدة فيها لأنّ المكلفين قسمان : فمن علم تعالى أنه لا يؤمن فلا فائدة فى أمره بالايمان إذ لا يطيقه ، ومن

علم أنه يؤمن فلا فائدة فى إنذاره وأمره بالإيمان إذ لا يطيق عدمه. هـ. قلت : الحكمة تقتضى تكليفهم لتقوم الحجة عليهم أو لهم ، والقدرة تقتضى عذرهم. والنظر فى هذه الدار – التي هى دار التكليف – للحكمة لا للقدرة.

ثم مثّل تصميمهم على الكفر ، وأنه لا سبيل إلى ارعوائهم ، بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين فى أنهم لا يلتفتون إلى الحق ، ولا يعطفون أعناقهم نحوه ، وكالحاصلين بين سدّين ، لا ينظرون ما قدّامهم ولا ما خلفهم ، بقوله : إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ ، معناه : فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزة إليها ، فَهُمْ مُقْمَحُونَ مرفوعة رؤوسهم إلى فوق ، يقال : قمح البعير فهو قامح إذا روى فرفع رأسه ، وهذا لأنّ طوق الغلّ الذي فى عنق المغلول ، يكون فى ملتقى طرفيه ، تحت الذقن ، حلقة ، فلا [تخليه] «٥» يطأطئ رأسه ، فلا يزال مقمحا. والغل : ما أحاط بالعنق على معنى التثقيف والتعذيب. والأذقان والذقن : مجتمع اللحيين. وقيل : «فهى» أي :

الأيدى. وذلك أن الغل إنما يكون فى العنق مع اليدين. وفى مصحف أبى : «إنا جعلنا فى أيمانهم أغلالا» وفى بعضها : «فى أيديهم فهى إلى الأذقان فهم مقمحون».

وَجَعَلْنا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا ، بفتح السين وضمها – قيل : ما كان من عمل الناس فبالفتح ، وما كان من خلق اللّه ، كالجبل ونحوه ، فالبضمّ ، أي : جعلنا الموانع والعوائق محيطة بهم ، فهم محبوسون

---

(١) الآية ٣ من سورة السجدة.

(٢) الآية ٤٤ من سورة سبأ.

(٣) الآية ٤٣٠ من سورة النبأ.

(٤) الآية ١٣ من سورة السجدة.

(٥) ما بين المعقوفتين مطموس فى النسخة الأم ، وغير موجود فى غيرها من النسخ المعتمدة فى التحقيق.

فى مطمورة الجهالة ، ممنوعون عن النظر فى الآيات والدلائل ، فَأَغْشَيْناهُمْ أي : فأغشيناهم أبصارهم ، أي :

غطيناها وجعلنا عليها غشاوة ، فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ الحق والرشاد.

وقيل : نزلت فى بنى مخزوم ، وذلك أن أبا جهل حلف : لئن رأى محمدا يصلّى ليرضخنّ رأسه ، فأتاه وهو يصلّى ، ومعه حجر ، فلما رفع يده انثنت إلى عنقه ، ولزق الحجر بيده ، حتى فكّوه عنها بجهد ، فرجع إلى قومه ، فأخبرهم ، فقال مخزوميّ : أنا أقتله بهذا الحجر ، فذهب ، فأعمى اللّه بصره ، فلم ير النبيّ صلى اللّه عليه وسلم ، وسمع قوله ، فرجع إلى أصحابه ، ولم يرهم حتى نادوه «١». وقيل : هى ذكر حالهم فى الآخرة ، وحين يدخلون النار ، فتكون حقيقة.

فالأغلال فى أعناقهم ، والنار محيطة بهم. والأول أرجح وأنسب لقوله : وَسَواءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ، أي : الإنذار وتركه فى حقهم سواء إذ لا هادى لمن أضله اللّه.

روى أن عمر بن عبد العزيز قرأ الآية فى غيلان القدرىّ ، فقال غيلان : كأنى لم أقرأها قط ، أشهدك أنى تائب عن قولى فى القدر. فقال عمر : اللهم إن صدق فتب عليه ، وإن كذب فسلّط عليه من لا يرحمه ، فأخذه هشام بن عبد الملك من غده ، فقطع يديه ورجليه ، وصلبه على باب دمشق «٢».

ثم ذكر من ينفعه الإنذار ، فقال : إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ أي : إنما ينتفع بإنذارك من تبع القرآن وَخَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وخاف عقاب اللّه قبل أن يراه ، أو : تقول : نزّل وجود الإنذار لمن لم ينتفع به منزلة العدم ، فمن لم يؤمن كأنه لم ينذر ، وإنما الإنذار لمن انتفع به. فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ ، وهو العفو عن ذنوبه ، وَأَجْرٍ كَرِيمٍ الجنة وما فيها.

الإشارة : كل من تصدى لوعظ الناس ، وإنذارهم ، على فترة من الأولياء ، يقال له : لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون. ويقال فى حق من سبق له الإبعاد عن طريق أهل الرشاد : لقد حقّ القول على أكثرهم ، فهم لا يؤمنون. إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا تمنعهم من حط رؤوسهم لأولياء زمانهم ، وجعلنا من بين أيديهم سدا : موانع تمنعهم من النهوض إلى اللّه ، ومن خلفهم سدا : علائق تردهم عن حضرة اللّه ، فأغشيناهم : غطّينا أعين بصيرتهم ، فلا يرون خصوصية أحد ممن يدلّ على اللّه ، فهم لا يبصرون داعيا ، ولا يلبون مناديا ، فالإنذار وعدمه فى حقهم سواء ، ومعالجة دائهم عناء. قال الورتجبي : سد ما خلفهم سد قهر الأزل ، وسد ما بين أيديهم شقاوة الأبد ، فبنفسه منعهم من نفسه. لا

---

(١) أخرجه الطبري مختصرا (٢٢/ ١٥٢) عن عكرمة. وعزاه الحافظ ابن حجر فى الكافي الشاف (١٣٩) لابن إسحاق فى السيرة ، وأبى نعيم فى الدلائل ، عن عكرمة ، عن ابن عباس – رضى اللّه عنهما.

(٢) انظر تفسير النسفي (٣/ ٩٧).

جرم أنهم فى غشاوة القسوة ، لا يبصرونه أبدا. هـ. إنما ينتفع بتذكير الداعين إلى اللّه من خشع قلبه بذكر اللّه ، واشتاقت روحه إلى لقاء اللّه ، فبشّره بمغفرة لذنوبه ، وتغطية لعيوبه ، وأجر كريم ، وهو النظر إلى وجه اللّه العظيم.

ثم ردّ على من أنكر البعث ، ممن سبق له الشقاء ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : آية ١٢]

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا وَآثارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ فِي إِمامٍ مُبِينٍ (١٢)

يقول الحق جل جلاله : إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتى أي : نبعثهم بعد مماتهم ، أو : نخرجهم من الشرك إلى الإيمان. قال شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن الفاسى : لمّا أمر بالتبشير بالمغفرة ، والأجر الكريم ، لمن انتفع بالإنذار ، أعلم بحكم من لم يؤمن ، ولم ينتفع بالإنذار ، وأنه يبعثهم ، وإليه حكمهم ، كما قال : إِنَّما يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ «١» هـ.

وَنَكْتُبُ ما قَدَّمُوا ما أسلفوا من الأعمال الصالحات وغيرها ، وَآثارَهُمْ ما تركوه بعدهم من آثار حسنة ، كعلم علّموه ، أو كتاب صنّفوه ، أو حبس حبسوه ، أو رباط أو مسجد صنعوه. أو آثار سيئة ، كبدعة ابتدعوها فى الإسلام. ونحوه قوله تعالى : يُنَبَّؤُا الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ بِما قَدَّمَ وَأَخَّرَ «٢» أي : قدّم من عمله وأخّر من آثاره. وفى الحديث : «من سنّ فى الإسلام سنّة حسنة ، فعمل بها من بعده ، كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء. ومن سنّ فى الإسلام سنّة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها ، من غير أن ينقص من أوزارهم شى ء» «٣» وفى خبر آخر : «سبع تجرى على العبد بعد موته : من غرس غرسا ، أو حفر بئرا ، أو أجرى نهرا ، أو علّم علما ، أو بنى مسجدا ، أو ورّث مصحفا ، أو ولدا صالحا»»

. انظر المنذرى. وهذا كله داخل فى قوله تعالى : وَآثارَهُمْ قيل : آثارهم : خطاهم إلى المساجد ، للجمعة وغيرها.

وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْناهُ حفظناه ، أو عددناه وبيّناه فِي إِمامٍ كتاب مُبِينٍ اللوح المحفوظ لأنه أصل الكتب وإمامها ، وقيل : صحف الأعمال. والمراد : تهديد العباد بإحصاء ما صنعوه من خير أو شر ، لينزجروا عن معاصى اللّه ، وينهضوا إلى طاعة اللّه.

---

(١) الآية ٣٦ من سورة الأنعام.

(٢) الآية ١٣ من سورة القيامة.

(٣) أخرجه مسلم ، فى (الزكاة ، باب : الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، ٢/ ٧٠٤ – ٧٠٥ ، ح ١٠١٧) من حديث جرير. [.....]

(٤) أخرجه بنحوه البزار (كشف الأستار – ١٤٩) والبيهقي فى الشعب (ح ٣٤٤٩) من حديث أنس

بن مالك. وأخرجه ابن ماجه ، بلفظ مقارب ، فى (المقدمة/ ح ٢٤٢) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

(٤/٥٦٠)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦١

الإشارة : إنّا نحن نحيى القلوب الميتة بالغفلة والجهل ، فنحييها بالعلم والمعرفة ، ونكتب ما قدّموا من العلوم ، والأسرار والمعارف ، وآثارهم ، أي : الأنوار المتعدية إلى الغير ، ممن اقتبس منهم وأخذ عنهم. قال القشيري : نحيى قلوبا ماتت بالقسوة ، بما نمطر عليها من صنوف الإقبال والزلفة ، ونكتب ما قدموا وَآثارَهُمْ خطاهم إلى المساجد ، ووقوفهم على بساط المناجاة معنا ، وما ترقرق من دموعهم على عرصات خدودهم ، وتصاعد أنفاسهم. هـ.

ثم ضرب مثلا لقريش فى تكذيبهم ، وفيه تسلية للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ١٣ الى ١٩]

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُما فَعَزَّزْنا بِثالِثٍ فَقالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قالُوا ما أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَما عَلَيْنا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧)

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (١٨) قالُوا طائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩)

قلت : «اضرب» : يكون بمعنى : اجعل ، فيتعدى إلى مفعولين ، و«مثلا» : مفعول أول ، وأَصْحابَ : مفعول ثان ، أو : بمعنى «مثل» ، من قولهم : عندى من هذا الضرب كذا ، أي : من هذا المثال.

و«أصحاب» : بدل من «مثلا» ، و«إذ» :

بدل من «أصحاب». و«أئن ذكّرتم» : شرط ، حذف جوابه.

يقول الحق جل جلاله : وَاضْرِبْ لَهُمْ أي : لقريش مَثَلًا أَصْحابَ الْقَرْيَةِ أي : واضرب لهم مثل أصحاب القرية «أنطاكية» أي : اذكر لهم قصة عجيبة قصة أصحاب القرية ، إِذْ جاءَهَا أي : حين جاءها الْمُرْسَلُونَ رسل عيسى عليه السّلام «١» ، بعثهم دعاة إلى الحق ، إلى أهل أنطاكية. وكانوا عبدة أوثان. إِذْ أَرْسَلْنا : بدل من «إذ» الأولى ، أي : إذ بعثنا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ ، بعثهما عيسى عليه السّلام ، وهما يوحنا وبولس ، أو : صادقا وصدوقا ، أو غيرهما. فلما قربا إلى المدينة ، رأيا شيخا يرعى غنيمات له ، وهو حبيب النجار ، فسأل عن حالهما ، فقالا : نحن رسولا عيسى ، ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن؟ فقال : أمعكما آية؟

(١) هذا قول قتادة ، أخرجه الطبري (٢٢/ ١٥٥) والظاهر من (أرسلنا) أنهم أنبياء ، أرسلهم اللّه ، ويدلّ عليه : قول المرسل إليهم : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وهذه المحاورة لا تكون إلا مع من أرسله اللّه ، ولو كان هؤلاء من الحواريين لقالوا عبارة تناسب أنهم من عند المسيح – عليه السّلام. راجع تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٩) والبحر المحيط (٧/ ٣١٣).

فقالا : نشفى المريض ، ونبرىء الأكمه والأبرص ، وكان له ابن مريض منذ سنين ، فمسحاه ، فقام ، فآمن حبيب ، وفشا الخبر ، فشفى على أيديهما خلق كثير ، فدعاهما الملك ، وقال : ألنا إله سوى آلهتنا؟ فقالا : نعم ، من أوجدك وآلهتك ، فقال : قوما حتى أنظر فى أمركما ، فحبسهما.

ثم بعث عيسى عليه السّلام شمعون ، فدخل متنكرا ، وعاشر حاشية الملك ، حتى استأنسوا به ، ورفعوا خبره إلى الملك ، فاستأنس به. فقال له ذات يوم : بلغني أنك حبست رجلين ، فهل سمعت قولهما؟ قال : لا ، فدعاهما. فقال شمعون : من أرسلكما؟ فقالا : اللّه الذي خلق كل شيء ، ورزق كل حيّ ، وليس له شريك. فقال : صفاه وأوجزا ، فقالا :

يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، قال : وما آيتكما؟ قالا : ما يتمنّى الملك ، فدعا بغلام أكمه ، فدعوا اللّه ، فأبصر الغلام ، فقال شمعون للملك : أرأيت لو سألت إلهك حتى يصنع مثل هذا ، فيكون لك وله الشرف؟ فقال : ليس لى عنك سرّ ، إن إلهنا لا يبصر ولا يسمع ، ولا يضر ، ولا ينفع. فقال : إن قدر إلهاكما على إحياء ميّت آمنا ، فدعوا بغلام مات منذ سبعة أيام ، فقام ، فقال : إنى دخلت فى سبعة أودية من النار لما مت عليه من الشرك ، وأنا أحذّركم ما أنتم عليه! فآمنوا. قال : وفتحت أبواب السماء ، فرأيت شابا حسن الوجه ، يشفع لهؤلاء الثلاثة ، قال الملك : من هم؟ قال : شمعون وهذان ، فتعجّب الملك. فلمّا رأى شمعون أن قوله أثّر فيه ، نصحه وآمن ، وآمن قوم ، ومن لم يؤمن صاح عليهم جبريل ، فهلكوا «١». كما سيذكره بقوله : إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ.

وهذا معنى قوله هنا : فَكَذَّبُوهُما أي : فكذّب أصحاب القرية المرسلين ، فَعَزَّزْنا : قويناهما. وقرأ شعبة بالتخفيف ، من : عزّه : غلبه ، أي : فغلبنا وقهرنا بِثالِثٍ ، وهو شمعون ، وترك ذكر المفعول به لأنّ المراد ذكر المعزّز به ، وهو شمعون ، وما لطف به من التدبير حتى عزّ الحق ، وذلّ الباطل. وإذا كان الكلام منصبا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجّهه إليه كأنما سواه مرفوض. فَقالُوا أي : الثلاثة لأهل القرية : إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ من عند عيسى ، الذي هو من عند اللّه. وقيل : كانوا أنبياء من

عند اللّه – عز وجل – أرسلهم إلى قرية ، ويرجحه قول الكفرة : ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا ، إذ هذه محاورة إنما تقال لمن ادعى الرسالة ، أي : ما أنتم إلا بشر ، ولا مزية لكم علينا وَما أَنْزَلَ الرَّحْمنُ مِنْ شَيْءٍ أي : وحيا ، إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ فيما تدعون من الرسالة. قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ، أكّد الثاني باللام دون الأول لأن الأول مجرد إخبار ،

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ١١ – ١٢).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٣

والثاني جواب عن إنكار ، فيحتاج إلى زيادة تأكيد. ورَبُّنا يَعْلَمُ جار مجرى القسم فى التأكيد ، وكذلك قولهم : شهد اللّه ، وعلم اللّه. وَما عَلَيْنا إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ أي : التبليغ الظاهر ، المكشوف بالآيات الظاهرة الشاهدة بصحته.

قالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنا بِكُمْ تشاء منا بكم. وذلك أنهم كرهوا دينهم ، ونفرت منه نفوسهم. وعادة الجهال أن يتيمّنوا بكل شيء مالوا إليه ، وقبلته طباعهم ، ويتشاءموا بما نفروا عنه ، وكرهوه ، فإن أصابهم بلاء ، أو نعمة ، قالوا :

بشؤم هذا ، وبركة ذلك. وقيل : حبس عنهم المطر ، فقالوا ذلك. وقيل : ظهر فيهم الجذام ، وقيل : اختلفت كلماتهم. ثم قالوا لهم : لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا عن مقالتكم هذه لَنَرْجُمَنَّكُمْ لنقتلنكم بالحجارة ، أو : لنطردنّكم ، أو : لنشتمنكم ، وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ وليصيبنّكممنا عذاب الحريق ، وهو أشد العذاب.

قالُوا أي : الرسل طائِرُكُمْ سبب شؤمكم مَعَكُمْ وهو الكفر ، أَإِنْ ذُكِّرْتُمْ أي : وعظتم ، ودعيتم إلى الإسلام تطيرتم ، وقلتم ما قلتم ، بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ مجاوزون الحد فى العصيان ، فمن ثمّ أتاكم الشؤم ، لا من قبل الرسل. أو : بل أنتم قوم مسرفون فى ضلالكم وغيّكم ، حيث تتشاءمون بمن يجب التبرّك به من رسل اللّه – عليهم الصلاة والسلام.

الإشارة : إذا أرسل اللّه إلى قلب وليّ واردا أولا ، ثم شك فيه ، ودفعه ، ثم أرسل ثانيا ودفعه ، ثم عززه بثالث ، وجب تصديقه والعمل بما يقول ، وإلا وقع فى العنت وسوء الأدب لأن القلب إذا صفى من الأكدار لا يتجلى فيه إلا الحق ، وإلا وجب اتهامه ، حتى يتبين وجهه. وباقى الآية فيه تسلية لمن قوبل بالتكذيب من الأولياء والصالحين. وباللّه التوفيق.

ثم تمم القصة ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٢٠ الى ٢٧]

وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذاً لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٢٤)

إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِما غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٤

يقول الحق جل جلاله : وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى ، وهو حبيب النجار «١» ، وكان فى غار من الجبل يعبد اللّه ، فلما بلغه خبر الرسل أتاهم ، وأظهر دينه. قال القشيري : فى القصة أنه جاء من قرية فسمّاها مدينة ، وقال : من أقصاها ، ولم يكن بينهما تفاوت كثير ، وكذلك أجرى سنّته فى استكثار القليل من فعل عبده ، إذا كان يرضاه ، ويستنزر الكثير من فضله إذا بذله وأعطاه. هـ.

ولما قدم سألهم : أتطلبون على ما تقولون أجرا؟ فقالوا : لا ، قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ، اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً على تبليغ الرسالة وَهُمْ مُهْتَدُونَ على جادة الهداية والنصح وتبليغ الرسالة. فقالوا : وأنت على دين هؤلاء؟ فقال : وَما لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي : خلقنى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، وفيه التفات من التكلم إلى الخطاب ، ومقتضى الظاهر : وإليه أرجع. والتحقيق : أن المراد : مالكم لا تعبدون ، لكن لمّا عبّر عنهم بطريق التكلم تلطف فى الإرشاد ، بإيراده فى معرض المناصحة لنفسه ، وإمحاض النصح ، حيث أراد لهم ما أراد لها ، جرى على ذلك فى قوله : وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ، والمراد : تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادة غيره.

ثم قال : أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً يعنى الأصنام ، إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمنُ بِضُرٍّ ، وهو شرط جوابه : لا تُغْنِ عَنِّي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلا يُنْقِذُونِ من مكروه بالنصر والمظاهرة ، إِنِّي إِذاً أي : إذا اتخذت إلها غيره لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ لفى خطأ بيّن ، لا يخفى على عاقل ، إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ أي : اسمعوا إيمانى ، لتشهدوا به لى يوم القيامة ، فقتله قومه «٢».

ولمّا مات قِيلَ له : ادْخُلِ الْجَنَّةَ ، فدفن فى أنطاكية ، وقبره بها. ولم يقل : قيل له لأن الكلام مسوق لبيان القول ، لا لبيان المقول له لكونه معلوما. وفيه دلالة على أن الجنة مخلوقة الآن. وقال الحسن : لمّا أراد القوم أن يقتلوه رفعه اللّه ، فهو فى الجنة «٣» ، ولا يموت إلا بفناء السماوات والأرض ، فلما دخل الجنة ورأى نعمها ، وما أعد اللّه لأهل الإيمان ، قالَ يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِما غَفَرَ لِي رَبِّي أي :

بالسبب الذي غفر لى ربى به ، وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ بالجنة ، وهو الإيمان باللّه ورسله ، أو : بمغفرة ربى وإكرامى ، ف «ما» : موصولة ، حذف عائدها المجرور ، لكونه جرّ بما جرّ به الموصول ، أو : مصدرية ، وقيل : استفهامية. وردّ بعدم حذف ألفها.

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٢/ ١٥٩) ، وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٤٩١) لعبد بن حميد ، وعبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن قتادة.

(٢) عزاه ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٥٦٨) لابن إسحاق ، فيما بلغه عن ابن عباس – رضى اللّه عنهما ، وكعب ، ووهب.

(٣) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ١٥).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٥

قال الكواشي : تمنى أن يعلم قومه أنّ اللّه قد غفر له ، وأكرمه ، ليرغب قومه فى اتباع الرسل ، فيسلموا ، فنصح قومه حيا وميتا. وكذلك ينبغى أن يكون كل داع إلى اللّه تعالى ، فى المجاهدة والنصيحة لعباد اللّه ، وألّا يحقد عليهم إن آذوه ، وأن يكظم كل غيظ يناله بسببهم. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «سبّاق الأمم ثلاثة : على بن أبى طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون» «١». هـ.

قال القشيري : قد أبلغ – حبيب الوعظ ، وصدق النّصح ، ولكن كما قالوا وأنشدوا :

وكم سقت فى آثاركم من نصيحة وقد يستفيد البغة المتنصّح «٢»

فلمّا صدق فى حاله ، وصبر على ما لقى من قومه ، ورجع إلى ربه ، تلقّاه بحسن إقباله ، وآواه إلى كنف إفضاله ، ووجد ما وعده به من لطف نواله ، فتمنّى أن يعلم قومه حاله ، فحقّق مناه ، وأخبر عن حاله ، وأنزل فيه خطابه ، وعرف قومه هـ.

الإشارة : أحبّ الخلق إلى اللّه أنفعهم لعياله وأنصحهم لهم. وفى الحديث : «لئن يهدى اللّه بك رجلا واحدا خير لك من حمر النّعم» «٣» فينبغى لمن أراد الظفر بمحبة الحبيب ، وينال منه الحظوة والتقريب ، أن يتحمل المشاق فى إرشاد عباد اللّه ، ويستعمل الأسفار فى ذلك ، لينال عنده الجاه الكبير ، والقرب العظيم. حققنا اللّه بذلك بمنّه وكرمه.

ثم ذكر هلاك قومه ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٢٨ الى ٢٩]

وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ خامِدُونَ (٢٩)

يقول الحق جل جلاله : وَما أَنْزَلْنا عَلى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ أي : من بعد قتله ، أو رفعه مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّماءِ فيهلكهم ، وَما كُنَّا مُنْزِلِينَ وما كان يصحّ فى حكمنا فى إهلاك قوم أن ننزل عليهم جندا من

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٤٩٢) بنحوه ، للطبرانى ، وابن مردويه ، بسند ضعيف ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) البيت للعباس بن الفرج الرياشي. انظر : الكامل للمبرد (٢/ ٣٩٢).

(٣) جزء من حديث شريف ، أخرجه البخاري فى (فضائل الصحابة ، باب : مناقب سيدنا على بن أبى طالب ، ح ٣٧٠١) ومسلم فى (فضائل الصحابة باب : من فضائل سيدنا على بن أبى طالب رضي اللّه عنه ، ٤/ ١٨٧٢ ، ح ٢٤٠٦) من حديث سهل بن سعد ، رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٦

السماء ، كما فعلنا معك يوم بدر والخندق لحظوتك عندنا. وفيه تحقير لإهلاكهم ، وتعظيم لشأن الرسول – عليه الصلاة والسلام – قال فى الكشاف : فإن قلت : لم أنزل الجنود من السماء يوم بدر والخندق ، مع أنه كان يكفى ملك واحد ، فقد أهلكت مدائن قوم لوط بريشة من جناح جبريل ، وبلاد ثمود وقوم صالح بصيحة واحدة؟ قلت : لأن اللّه فضّل محمدا صلى اللّه عليه وسلم بكل شىء ، على كبار الأنبياء وأولى العزم ، فضلا عن حبيب النجار. هـ. ملخصا. إِنْ كانَتْ العقوبة إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً ، صاح عليهم جبريل عليه السّلام فَإِذا هُمْ خامِدُونَ ميتون.

الإشارة : كل وعيد ورد فى مكذّبى الرسل يجر ذيله على مكذّبى الأولياء لأنهم خلفاء الأنبياء ، إلا أن عقوبة مؤذى الأولياء ، تارة تكون ظاهرة ، فى الأبدان والأموال ، وتارة باطنة ، فى قسوة القلوب والتعويق عن صالح الأعمال ، وكسف نور الإيمان والإسلام ، والبعد وسوء الختام ، وهى الحسرة العظمى ، كما قال تعالى :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٠ الى ٣٢]

يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٣٢)

قلت : كَمْ أَهْلَكْنا : معلّقة ليروا عن المفعولين. وأَنَّهُمْ : بدل من كَمْ ، والتقدير : ألم يروا كثرة إهلاكنا

قبلهم من القرون كونهم غير راجعين إليهم. ووَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ : من قرأ «لما» بالتخفيف «١» ، فإن : مخففة ، واللام : فارقة ، و«ما» مزيدة ، أي : وإنه ، أي : الأمر والشأن لجميع محضرون عندنا. ومن قرأها بالتشديد فإن :

نافية ، و«لمّا» : بمعنى إلا ، أي : ما كلهم إلا مجموعون ومحضرون للحساب.

يقول الحق جل جلاله : يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبادِ تعالى ، فهذا أوان حضورك. ثم بيّن لأى شيء كانت الحسرة عليهم ، فقال : ما يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ من عند اللّه إِلَّا كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ ، فإن المستهزئين بالناصحين المخلصين ، المنوط بنصحهم خير الدارين ، أحقّاء بأن يتحسّروا ، ويتحسّر عليهم المتحسّرون ، ويتلهّف المتلهّفون. أو : هم متحسّر عليهم من جهة الملائكة والمؤمنين من الثقلين.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أي : ألم يعلموا كثرة إهلاكنا قبلهم من القرون الماضية ، أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لا يَرْجِعُونَ أي : كونهم غير راجعين إليهم أبدا حتى يلحقوا بهم ، ففيهم عبرة وموعظة لمن يتعظ.

وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ

---

(١) قرأ ، ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة «لمّا» بتشديد الميم. وقرأ الباقون بالتخفيف. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٠).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٧

أي : وإن كلهم مجموعون محضرون للحساب ، أو معذّبون. وإنما أخبر عن «كل» بجميع لأن «كل» تفيد معنى الإحاطة. والجميع : فعيل ، بمعنى مفعول ، ومعناه : الاجتماع ، والمعنى : أن المحشر يجمعهم ، فكلهم مجموعون محضرون للحساب.

الإشارة : يا حسرة على العباد ، ما يأتيهم من داع يدعو إلى اللّه ، على طريق التربية الكاملة ، إلا كانوا به يستهزؤون. ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون ، ماتوا على الغفلة والحجاب ، وكلهم محضرون للعتاب والحساب ، ماتوا محجوبين ، ويبعثون محجوبين لإنكارهم فى الدنيا من يرفع عنهم الحجاب ، ويفتح لهم الباب ، وهم شيوخ التربية ، الموجودون فى كل زمان. أو : يا حسرة على المتوجهين ، ما يأتيهم من وارد على قلوبهم إلا كانوا به يستهزؤون ، ولو فهموا عن اللّه لعملوا بما يرد على قلوبهم الصافية.

ثم ذكر دلائل قدرته على البعث والإحضار ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٣ الى ٣٦]

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنا فِيها جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)

قلت : «وآية لهم» : مبتدأ ، وجملة «الأرض الميتة» : خبر.

يقول الحق جل جلاله : وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْناها أي : وعلامة لهم تدلّ على أن اللّه يبعث الموتى ، ويحضرهم للحساب ، إحياء الأرض اليابسة بالمطر ، فاهتزت وربت بالنبات. وَأَخْرَجْنا مِنْها حَبًّا جنس الحب ، فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ، هم وأنعامهم. وقدّم الظرف ليدل على أن الحبّ هو الشيء الذي يتعلق به معظم العيش ، ويقوم ، بالارتفاق به ، صلاح الإنسان ، إذا قلّ جاء القحط ، ووقع الضرّ ، وإذا فقد حضر الهلاك ، ونزل البلاء.

وَجَعَلْنا فِيها فى الأرض جَنَّاتٍ بساتين مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنابٍ ، وَفَجَّرْنا فِيها مِنَ الْعُيُونِ ، «من» : زائدة عند الأخفش ، وعند غيره : المفعول : محذوف ، أي : ما تتمتعون به من العيون.

(٥٦٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٨

لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ أي : من ثمر اللّه ، أي : ليأكلوا مما خلق اللّه تعالى من الثمر ، أو : من ثمرة ، يخلقها اللّه من ذلك ، على قراءة الأخوين «١». وَما عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أي : ومما عملته أيديهم من الغرس ، والسقي ، والتلقيح ، وغير ذلك ، مما تتوقف عليه فى عالم الحكمة ، إلى أن يبلغ الثمر منتهاه. يعنى : أن الثمر فى نفسه فعل اللّه ، وفيه آثار من عمل ابن آدم ، حكمة ، وتغطية لأسرار الربوبية. وأصله : من ثمرنا ، كما قال : وَجَعَلْنا وَفَجَّرْنا ، فالتفت إلى الغيبة. ويجوز أن يرجع الضمير إلى النخيل ، ويترك الأعناب غير مرجوع إليها لأنه علم أنها فى حكم النخيل. وقيل : «ما» نافية ، على أن الثمرة خلق اللّه ، ولم تعمله أيدى الناس ، ولا يقدرون عليه. أَفَلا يَشْكُرُونَ اللّه على هذه النعم الجسيمة ، وهو حثّ على الشكر.

سُبْحانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ الأصناف كُلَّها مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ من النخيل ، والشجر ، والزرع ، والثمار ، كيف جعلها مختلفة فى الطعوم ، والروائح ، والشكل ، والهيئة ، واختلاف أوراق الأشجار ، وفنون أغصانها ، وأصناف نورها وأزهارها ، واختلاف أشكال ثمارها ، فى تفردها واجتماعها ، مع ما بسط فيها من الطبائع الأربع من الحرورة ، والبرودة ، والرطوبة ، واليبوسة ، وما فيها من المنافع المتنوعة. وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ الأولاد ذكورا وإناثا ، وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ من أصناف لم يطلعهم اللّه عليها ، ولم يتوصّلوا إلى معرفتها ، ففى البحار عجائب لا يعلمها الناس. قال تعالى : وَيَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ «٢». وفائدة التنزيه :

نفى تشبيه الذات بشيء من هذه الأزواج.

واللّه تعالى أعلم.

قال القشيري : والعجب ممّن ينكر أصول الدين ، ويقول : ليس فى الكتاب عليه دليل ، وأكثر ما فى القرآن من الآيات تدل على سبيل الاستدلال ، ولكن يهدى لنوره من يشاء ، ولو أنهم أنصفوا واشتغلوا بأهم شيء لهم ما ضيّعوا أصول الدين ، ورضوا فيها بالتقليد ، وادّعوا فى الفروع رتبة الإمامة والتصدير ، وفى معناها قيل :

يا من تصدّر فى دست «٣» الإمامة من مسائل الفقه إملاء وتدريسا

غفلت عن حجج التوحيد تحكمها شيّدت فرعا وما مهّدت تأسيسا! هـ

قلت : وحاصله : مدح علم الأصول وترك علم أصل الأصل ، وهو علم التوحيد الخاص ، أعنى الشهود والعيان.

وقد قلت فى ذلك ، تذليلا :

---

(١) قرأ حمزة والكسائي (من ثمر) بضم المثلثة والميم. وهى إما جمع «ثمرة» مثل : خشبة وخشب. وإما جمع ثمار ، وثمار جمع ثمرة ، فيكون جمع الجمع. انظر : شرح الهداية للمهدوى (٢/ ٢٨٥) ، وإتحاف فضلاء البشر (٢/ ٢٥).

(٢) من الآية ٨ من سورة النحل.

(٣) الدست : صدر البيت.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٦٩

يا من تصدّى لعلم الأصل يحكمه قد فاتك الذوق بالوجدان مستأنسا.

الإشارة : وآية لهم النفس الميتة بالجهل أحييناها بالعلم ، وأخرجنا منها علما لدّنيا ، فمنه تتقوت القلوب والأرواح ، وجعلنا فيها جنات المعارف ، من نخيل الحقائق ، وأعناب الشرائع ، وفجّرنا فيها من عيون الحكم ، ليأكلوا من ثمره ، ومما عملته أيديهم ، من المجاهدات والمكابدات ، فإنها تثمر المشاهدات. سبحان الذي خلق الأزواج كلها من الأحوال ، والمقامات ، والعلوم ، والمعارف ، مما يستخرج من النفوس والأرواح ، ومما لا يعلمه إلا اللّه.

ثم ذكر برهانا آخر ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٣٧ الى ٤٠]

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ مَنازِلَ حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)

يقول الحق جل جلاله : وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ نخرج منه النهار ، إخراجا لا يبقى معه شيء من ضوء النهار. مستعار من : سلخ الجلد عن الشاة ، أو : ننزع عنه الضوء نزع القميص الأبيض ، فيعرى نفس الزمان ، كشخص أسود ، نزع عنه قميص أبيض لأن أصل ما بين السماء والأرض من الهواء : الظلمة ، فاكتسى بعضه ضوء الشمس ، كبيت مظلم أسرج فيه ، فإذا غاب السراج أظلم. فَإِذا هُمْ مُظْلِمُونَ داخلون فى الظلام.

وَآية لهم أيضا الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها لحدّ لها مؤقّت ، تنتهى إليه من فلكها فى آخر السنة. شبهت بمستقرّ المسافر إذا انتهى سفره ، أو : لحدّ لها من مسيرها كلّ يوم فى مرائى عيون الناس ، وهو المغرب. وفى الحديث الصحيح – من طريق أبى ذر – : «إنها تسجد كل يوم تحت العرش ، فتستأذن ، فيؤذن لها ، ويوشك أن تستأذن فلا يؤذن لها ، فتطلع من مغربها» ، ذرّ قال صلى اللّه عليه وسلم : «وذلك قوله : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها» «١».

---

(١) أخرجه البخاري فى (بدء الخلق ، باب صفة الشمس والقمر ، ح ٣١٩٩) ومسلم فى (الإيمان ، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ، ١/ ١٣٩ ح ٢٥١) من حديث أبى ذر رضي اللّه عنه.

[.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٠

وعن ابن عباس : أن الشمس بمنزلة السانية ، تجرى بالنهار فى السماء فى فلكها ، فإذا غربت جرت فى الليل تحت الأرض فى فلكها ، حتى تطلع من مشرقها ، وكذلك القمر. كذا نقل الكواشي عنه. ولعله لا يناقض ما جاء فى الحديث ، من أنها تسجد تحت العرش ، لإحاطة العرش بالجميع ، فهى حيث ما انتهت تحته. ونقل الأقليشى من حديث عكرمة ، عن ابن عباس : (ما طلعت شمس حتى ينخسها سبعون ألف ملك ، فيقولون لها : اطلعى ، فتقول : لا أطلع على قوم يعبدوننى من دون اللّه ، فيأتيها ملك من اللّه ، فيأمرها بالطلوع ، فتستقل بضياء بنى آدم ، فيأتيها شيطان يريد أن يصدها عن الطلوع ، فتطلع بين قرنيه ، فيحرقه اللّه تعالى تحتها ، وما غربت شمس قط إلا خرّت للّه ساجدة ، فيأتيها شيطان ، يريد أن يصدها عن السجود ، فتغرب بين قرنيه ، فيحرقه اللّه تعالى ، وذلك قوله صلى

اللّه عليه وسلم : «ما طلعت شمس إلا بين قرنى الشيطان ، ولا غربت إلا بين قرنى الشيطان» «١».
هـ. على نقل شيخ شيوخنا الفاسى.
وقرأ ابن عباس وابن مسعود : «تجرى لا مستقر لها» ، ومعناها : إنها جارية أبدا ، لا تثبت فى مكان.
وقراءة الجماعة أوفق بالحديث. ذلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ أي : ذلك الجري على ذلك التقدير البديع ، والحساب الدقيق ، تقدير الغالب بقدرته على كل مقدور ، العليم بكل معلوم.
وَالْقَمَرَ قَدَّرْناهُ ، من نصبه فبفعل مضمر ، ومن رفعه فمبتدأ ، والخبر : قَدَّرْناهُ مَنازِلَ ، وهى ثمانية وعشرون منزلا : فرع الدلو المقدم ، فرع الدلو المؤخر ، بطن الحوت ، النطح ، البطين ، الثّريّا ، الدّبران ، الهقعة ، الهنعة ، الذّراع ، النّثرة ، الصّرفة ، الجبهة ، الطّرفة ، الزّبرة ، العوّاء ، السّماك ، الغفر ، الزّبانى ، الإكليل ، القلب ، الشّولة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذّابح ، سعد السّعود ، سعد الأخبية «٢» ، ينزل القمر كل ليلة فى واحد منها لا يتخطاها ، ولا يتقاصر عنها. على تقدير مستو ، يسير فيها من ليلة المستهلّ إلى الثامنة والعشرين ، ثم يستترّ ليلتين ، أو ليلة إذا نقص الشهر. ولا بد فى قَدَّرْناهُ مَنازِلَ من تقدير مضاف أي : قدرّنا سيره ، أو نوره ، فيزيد وينقص ، إذ لا معنى لتقدير القمر منازل ، فيكون «منازل» ظرفا.
فإذا كان فى آخر منازله ، دق وتقوس ، حَتَّى عادَ كَالْعُرْجُونِ أي : كالشّمراخ ، وهو عنقود التمر إذا يبس واعوج. ووزنه فعلون ، من الانعطاف ، وهو الانعراج ، الْقَدِيمِ العتيق المحول «٣» ، وإذا قدم دقّ ، وانحنى ، واصفرّ ، فشبه القمر به من ثلاثة أوجه.

---

(١) أخرجه ابن عساكر (تهذيب تاريخ دمشق ٣/ ١٢٤).
(٢) انظر البحر المحيط (٧/ ٣٢٢) وتفسير القرطبي (٦/ ٥٦٣٢ - ٥٦٣٣).
(٣) أي : مرّ عليه حول (عام) فصاعدا.

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَها يصحّ ويستقيم لها أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ فتجتمع معه فى وقت واحد ، وتداخله فى سلطانه ، فتطمس نوره قبل تمام وقته لأن لكلّ واحد من النيّرين سلطانا عل حياله ، فسلطان الشمس بالنهار ، وسلطان القمر بالليل. وَلَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ ولا يسبق الليل النهار ، أي : آية الليل لا تسبق آية النهار ، وهى النيّران. ولا يزال الأمر على هذا الترتيب إلى أن تقوم الساعة ، فيجمع اللّه بين الشمس والقمر ، ويكوران ويرميان فى النار ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ أي : وكلهم فى فلك يسبحون

يسيرون فالتنوين للعوض والضمير للشمس والقمر فإنّ اختلاف الأحوال يوجب تعددا ما فى الذات ، أو : للكواكب فإن ذكر النيرين مشعر بها وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ يقرأ مقلوبا ومرتبا ، ففيه نوع من البديع.
الإشارة : وآية لهم ليل الغفلة نسلخ منه نهار اليقظة ، ونهار اليقظة ، نسلخ منه ليل الغفلة ، فلا يزال العبد بين غفلة ويقظة ، حتى تشرق عليه شمس العرفان ، وتستقر فى قلبه ، فلا غروب لها ، وإليه الإشارة بقوله : وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَها ، ومستقرها : قلوب العارفين. وقمر الإيمان قدّرناه منازل ، ينقص ويزيد ، بزيادة التفرغ والتوجه ونقصانه ، حتى تطلع عليه شمس العرفان ، فينسخ نوره ، فلا زيادة ولا نقصان. قال القشيري : فشبيه الشمس عارف أبدا فى ضياء معرفته ، صاحب تمكين ، غير متلوّن ، شرف فى بروج سعادته قائما ، لا يأخذه كسوف ، ولا يستره سحاب. وشبيه القمر عبد تلون أحواله فى التنقل ، صاحب تلوين ، له من البسط ما يرقيه إلى حدّ الوصال ، ثم يردّ إلى الفترة ، ويقع فى القبض مما كان فيه من صفاء الحال ، فيتناقص ، ويرجع إلى نقص أمره ، إلى أن يدفع قلبه عن وقته ، ويجود عليه الحقّ سبحانه ، فيوفّقه لرجوعه عن فترته ، وإفاقته من سكرته ، فلا يزال تصفوا أحواله ، إلى أن يقرب من الوصال ، ويرزق صفة الكمال ، ثم بعد ذلك يأخذ فى النقص والزوال ، كذلك حاله إلى أن يحقّ له بالمقسوم ارتحاله ، وأنشدوا :

كلّ يوم تتلون غير هذا بك أجمل. «١» هـ.

ثم ذكر دليلا آخر ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤١ الى ٤٤]

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلاَّ رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ (٤٤)

---

(١) غنته جارية فى قصة. انظرها فى الرسالة القشيرية/ ١٥٦. وورد فى الكبريت الأحمر (٢/ ١٤٧) : [غير هذا بك أحسن].

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٢

يقول الحق جل جلاله : وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ أولادهم ، الذين يبعثونهم إلى تجاراتهم ، أو صبيانهم ونسائهم الذين يستصحبونهم فإن الذرّية تقع عليهن لأنهن مزارعها. وتخصيصهم لأن استقرارهم فى السفن أشق ، وتماسكهم فيها أعجب ، أو خصهم لضعفهم عن السفر ، فالنعمة فيهم أظهر. فحملناهم فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ : المملوء ، والظاهر : أن الضمير فى «ذريتهم» للجنس. كأنه

قال : ذريات جنسهم ونوعهم. قال ابن عباس وجماعة : يريد بالذريّات المحمولين : أصحاب نوح فى السفينة ، ويريد بقوله : وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ : السفن الموجودة فى جنس بنى آدم إلى يوم القيامة ، وإياها عنى بقوله : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ .. إلخ.

وأما إطلاق الذرية على الآباء ، فقال ابن عطية : لا يعرف لغة ، وإنما المراد بالذرية الجنس ، أو حقيقة ما تقدم.

وعليه يكون قوله : وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ يراد به الإبل فإنها سفن العرب.

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ إذا اركبوا سفن البحر ، فَلا صَرِيخَ لَهُمْ فلا مغيث ، أو : لا مستغيث لهم ، وهو أبلغ ، أي : لم تبق لهم قدرة على الاستغاثة. وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ ينجون من الموت ، إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتاعاً إِلى حِينٍ أي : لا ينقذون إلا لرحمة منا ، ولتمتيع بالحياة إلى انقضاء الأجل. فهما مفعولان له. وقال بعضهم : الاستثناء راجع لثلاث جمل : «نغرقهم» ، «فلا صريخ لهم» ، «ولا هم ينقذون».

الإشارة : إذا عامت أفكار العارفين ، فى بحار التوحيد ، وأسرار التفريد ، تلاطمت عليها أمواج الدهش من كبرياء اللّه ، فإن سبق لها سابق عناية الاعتدال أوت إلى سفينة الشريعة ، بعد ركوبها فى فلك الحقيقة ، وإليه الإشارة فى قوله : حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ، وَخَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ. وإن لم تسبق له عناية ، غرق فى بحر الزندقة والإلحاد ، كما قال تعالى : وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ من شيخ كامل ، ولا هم ينقذون إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين الكمال ، فيعتدل. قال القشيري : الآية إشارة إلى حمل الخلق فى سفينة السلامة ، فى بحار التقدير ، عند تلاطم أمواجها ، بفنون من التغيير والتأثير ، وكم من عبد غرق فى أشغاله ، فى ليله ونهاره ، لا يستريح لحظة فى كدّ أفعاله ، ومقاساة التعب من أعماله ، وجمع ماله ، بنسيان عاقبته ومآله. ثم قال فى قوله تعالى :

وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ : لو لا صفة جوده وفضله لحلّ بهم من البلاء ما حلّ بأمثالهم ، لكنه لحسن إفضاله ، حفظهم فى جميع أحوالهم. هـ.

(٥٧٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٣

ثم ذكر كفرهم لهذه النعم ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٥ الى ٤٧]

وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (٤٧)

قلت : جواب «إذا» محذوف ، أي : أعرضوا ، فدل عليه قوله : «معرضين».

يقول الحق جل جلاله : وَإِذا قِيلَ لَهُمُ أي : كفار قريش : اتَّقُوا ما بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَما خَلْفَكُمْ أي : ما تقدّم من ذنوبكم ، وما تأخّر مما أنتم تعملونه بعد ، أو : ما بين أيديكم : ما سلف من مثل الوقائع التي حلّت بالأمم المكذبة قبلكم ، وما خلفكم من أمر الساعة ، أو : ما بين أيديكم من فتنة الدنيا ، وما خلفكم من عذاب الآخرة.

لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ لتكونوا فى رجاء رحمة اللّه ، فإذا قيل لهم ذلك أعرضوا.

قال تعالى : وَما تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ الدالة على وحدانية تعالى ، وصدق رسوله ، إِلَّا كانُوا عَنْها مُعْرِضِينَ لا يلتفتون إليها ، ولا يرفعون لها رأسا ، ف «من» الأولى لتأكيد النفي ، والثانية للتبعيض ، أي : دأبهم الإعراض عن كل آية وموعظة.

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ أي : تصدّقوا على الفقراء ، قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا من مشركى مكة لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : كان بمكة زنادقة ، فإذا أمروا بالصدقة على المساكين ، قالوا : لا واللّه ، أيفقره اللّه ونطعمه نحن؟! «١». قيل : سبب الآية : أن قريشا لمّا أسلم ضعفاؤهم ، قطعوا عنهم صلاتهم ، فندبهم بعض المؤمنين إلى ذلك ، فقالوا تلك المقالة.

وقيل : إن قريشا شحّت - بسبب أزمة نزلت بهم - على المساكين ، مؤمنهم وكافرهم ، فندبهم النبي صلى اللّه عليه وسلم إلى النفقة على المساكين ، فقالوا على سبيل الجهل : أنطعم قوما أراد اللّه فقرهم وتعذيبهم. ومن أمثالهم : كن مع اللّه على المدبر ، حتى كان الرجل يرعى إبله ، فيجعل السمان فى الخصب ، والمهازيل فى الجدب ، فإذا قيل له فى ذلك ، قال :

---

(١) انظر : البحر المحيط (٧/ ٣٢٥) وتفسير القرطبي (٦/ ٥٦٤١).

أكرم ما أكرم اللّه ، وأهين ما أهان اللّه. ويحتمل أن يكون قولهم ذلك استهزاء ، فكأنهم قالوا : لم لا يرزقهم إلهك الذي تزعم.

قال الكواشي : قد يتمسك بهذه الآية بعض البخلاء ، فيقول : لا أعطى من حرمه اللّه. وليس هذا بصحيح لأن اللّه تعالى أغنى وأفقر ، وجعل للفقير جزءا من مال الغنى كما يشاء. وفى الإحياء : أن المراد بالصدقة وشرعها :

التخلص من رذيلة البخل ، وذلك نفع يعود على المتصدق ، بإخراجه عن حب الدنيا ، وتعلق قلبه بها ، الصادّ عن اللّه ، وهؤلاء لم يفهموا حكمة اللّه ، فقالوا ما قالوا. هـ. ثم قال : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ فى أمركم لنا بالنفقة ، أو فى غير ذلك من دينكم ، أو : يكون من قول اللّه تعالى للكفرة.

الإشارة : وإذا قيل للعامة : اتقوا ما بين أيديكم ، من شدائد الدنيا ، وما خلفكم ، من أهوال الآخرة ، لعلكم ترحمون فيهما فإن التقوى الكاملة تحفظ الرجل فى حياته وبعد مماته ، وربما يسرى الحفظ إلى عقبه ، كما هو مشاهد فى عقب أولياء اللّه. أو : إذا قيل لهم : اتقوا خواطر التدبير فيما بين أيديكم إذ ليس أمره بيدكم ، فجل ما تبنيه من التدبير تهدمه رياح التقدير ، وخواطر التدبير ، فيما سلف قبلكم ، إذ فيه تحصيل الحاصل ، وتعطيل الوقت بلا فائدة. لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ بمقام الرضا ، وسكون القلب وراحته تحت مجارى القضاء ، أعرضوا وانهمكوا فى أودية الغفلة والخواطر. وما تأتيهم من آية دالة على وحدانيته تعالى ، وانفراده بالخلق والتدبير ، إلا كانوا عنها معرضين.

قال القشيري : هذه صفة من سيّبهم فى أودية الخذلان ، ووسمهم بسمة الحرمان ، وأصمّهم عن سماع الرّشد ، وصدّهم بالخذلان عن سلوك القصد ، فلا تأتيهم آية فى الزّجر إلا قابلوها بإعراضهم ، وتجافوا عن الاعتبار بها ، على دوام انقباضهم ، وإذا أمروا بالإنفاق والإطعام عارضوا بأنّ اللّه رازق الأنام ، وإذا شاء نظر إليهم بالإنعام. هـ.

ثم ذكر استعجالهم البعث ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٤٨ الى ٥٤]

وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (٤٨) ما يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٥

يقول الحق جل جلاله : وَيَقُولُونَ – استهزاء – : مَتى هذَا الْوَعْدُ أي : وعد البعث والقيامة إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ فيما تقولون. خطاب للنبى صلى اللّه عليه وسلم ، وأصحابه. قال تعالى : ما يَنْظُرُونَ ينتظرون إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً هى : النفخة الأولى ، تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ يختصمون ، يخصم بعضهم بعضا فى المعاملات ، لا يخطر ببالهم أمرها ، فتأتيهم بغتة. وقرأ حمزة – بسكون الخاء – من : خصمه : إذا

غلبه فى الخصومة. وفتح الباقون ، مع الاختلاس والنقل وعدمهما. فَلا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً فلا يستطيعون أن يوصوا فى أمورهم بشىء ، وَلا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ولا يقدرون على الرجوع إلى منازلهم ، بل يموتون حيث يسمعون الصيحة.

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ النفخة الثانية ، بعد خلو الأرض أربعين سنة. والصور : القرن ، أو : جمع صورة. فَإِذا هُمْ مِنَ الْأَجْداثِ القبور إِلى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ يسرعون فى المشي إلى المحشر.

قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا من أنشرنا مِنْ مَرْقَدِنا مضجعنا؟. قال مجاهد وأبيّ بن كعب : للكفار هجعة يجدون فيها طعم النوم ، فإذا صيح بأهل القبور ، قالوا يا ويلنا من بعثنا؟ وأنكره ابن عطية ، وقال : إنما هو استعارة ، كما تقول فى قتيل : هذا مرقده إلى يوم القيامة. فتقول الملائكة فى جوابهم : هذا ما وَعَدَ الرَّحْمنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ، أو يقوله المؤمنون ، أو : الكفار ، يتذكرون ما سمعوه من الرسل ، فيجيبون به أنفسهم ، أو بعضهم بعضا. و«ما» : مصدرية ، أي : هذا وعد الرحمن وصدق المرسلين ، على تسمية الموعود والمصدوق فيه بالوعد والصدق. أو : موصولة ، أي : هذا الذي وعده الرحمن والذي صدقه المرسلون ، أي : والذي صدق فيه المرسلون.

إِنْ كانَتْ النفخة الأخيرة إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ للحساب ، ثم يقال لهم فى ذلك اليوم : فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ من خير أو شر.

الإشارة : إذا كبر يقين العبد صارت عنده الأمور المستقبلة واقعة ، والآجلة عاجلة ، فيستعد لها قبل هجومها ، ويتأهب للقائها قبل وقوعها ، أولئك الأكياس ، الذين نظروا إلى باطن الدنيا ، حين نظر الناس إلى ظاهرها ، واهتموا بآجالها ، حين اغتر الناس بعاجلها ، كما فى الحديث فى صفة أولياء اللّه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٦

ثم بيّن الحق تعالى مآلهم ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٥٥ الى ٥٩]

إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ عَلَى الْأَرائِكِ مُتَّكِؤُنَ (٥٦) لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ (٥٧) سَلامٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)

قلت : «سلام» : بدل من «ما» ، أو : خبر عن مضمر ، أو : مبتدأ حذف خبره ، أو : من ذلك سلام ، وهو أظهر ليكون عاما ، أي : ولهم كل ما يتمنون ، كقوله : وَلَكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ «١» ومن جملة ذلك : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ فيوقف على «ما يدّعون». و«قولا» : منصوب على

المصدر المحذوف ، أي : يقال لهم «قولا» ، وقيل :
على الاختصاص.
يقول الحق جل جلاله : إِنَّ أَصْحابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ – بضم الغين وسكونها «٢» – أي : فى شغل لا يوصف لعظم بهجته وجماله. فالتنكير للتعظيم ، وهو افتضاض الأبكار ، على شط الأنهار ، تحت الأشجار ، أو سماع الأوتار فى ضيافة الجبار. وعن أبى هريرة وابن عباس – رضى اللّه عنهما – قيل : يا رسول اللّه أنفضي إلى نسائنا فى الجنة ، كما نفضى إليهن فى الدنيا؟. قال : «نعم ، والذي نفس محمد بيده إن الرجل ليفضى فى الغداة الواحدة إلى مائة عذراء» «٣» وعن أبى أمامة : سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل يتناكح أهل الجنة؟ فقال : «نعم ، بذكر لا يملّ ، وشهوة لا تنقطع ، دحما دحما» «٤». قال فى القاموس : دحمه – كمنعه : دفعه شديدا. وعن أبى سعيد الخدري قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عادوا أبكارا» «٥» ، وفى رواية أبى الدرداء : «ليس فى الجنة منّى» ، وفى رواية : «بول أهل الجنة عرق يسيل تحت أقدامهم مسكا» «٦» وعن إبراهيم النخعي : جماع ما شئت ، ولا ولد. هـ. فإذا اشتهى الولد كان بلا وجع ، فقد روى الحاكم والبيهقي عنه – عليه الصلاة والسلام – : «إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد ، كما يشتهى ، فيكون حمله وفصاله وشبابه فى ساعة واحدة». انظر البدور السافرة.

---

(١) من الآية ٣١ من سورة فصلت.
(٢) قرأ ابن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر (شغل) بضم الغين ، وقرأ الباقون بالسكون. انظر الإتحاف (٢/ ١٠٢).
(٣) أخرج حديث أبى هريرة : البزار (كشف الأستار ح ٣٥٢٥). قال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٤١٦) : (رواه البزار والطبراني ، ورجال هذه الرواية رجال الصحيح ، غير محمد بن ثواب ، وهو ثقة). وحديث ابن عباس عزاه فى المجمع لأبى يعلى.
(٤) عزاه فى المجمع (١٠/ ٤١٦) للطبرانى.
(٥) أخرجه البراز (كشف الأستار ح ٣٥٢٧). وقال الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٤١٧) : رواه البزار ، والطبراني فى الصغير ، وفيه معلى ابن عبد الرحمن ، وهو كذاب.
(٦) عزاه فى المجمع (١٠/ ٤١٦) للطبرانى فى الأوسط وفى الكبير ، بنحوه ، عن زيد بن أرقم.

قلت : والتحقيق أن شغل أهل الجنة مختلف ، فمنهم من هو مشتغل بنعيم الأشباح ، من حور ، وولدان ، وأطعمة ، وأشربة ، على ما يشتهى ، ومنهم من هو مشتغل بنعيم الأرواح ، كالنظر لوجه اللّه العظيم ، ومشاهدة الحبيب ، ومناجاة ومكالمات ، ومكاشفات ، وترقّيات فى معاريج الأسرار كل ساعة. ومنهم من يجمع له بين النعيمين ، وسيأتى فى الإشارة. وقوله تعالى : فاكِهُونَ أي : متلذذون فى النعمة ، والفاكه والفكه : المتنعم ، ومنه : الفكاهة لأنه مما يتلذّذ به ، وكذا الفاكهة.

ثم قال تعالى : هُمْ وَأَزْواجُهُمْ فِي ظِلالٍ جمع ظل ، وهو : الموضع الذي لا تقع عليه الشمس. وفى قراءة «ظلل» بالضم ، جمع ظلة ، كبرمة وبرام ، وهو ما يسترك عن الشمس ، وظل أهل الجنة لا تنسخه شمس ، قال تعالى : وَظِلٍّ مَمْدُودٍ «١» عَلَى الْأَرائِكِ : جمع أريكة ، وهى السرير فى الحجلة. فالأرائك : السرر المفروشة ، بشرط أن تكون عليها الحجلة ، وإلا فليست بأريكة ، والحجلة : ما يستر السرير من ثوب الحرير. وهم مُتَّكِؤُنَ عليها كالملوك على الأسرة. لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ كثيرة مما يشتهون. وَلَهُمْ ما يَدَّعُونَ أي : كل ما يدعونه يأتيهم فورا ، فوزنه : يفتعلون ، من الدعاء ، أو : ما يتمنون من نعيم الأشباح والأرواح ، من قولهم : ادّع علىّ ما شئت ، أي : تمنّه. وقال الفراء : هو من الدعوى ، ولا يدّعون إلا ما يستحقون.

سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ أي : من أهم ما يدعون : سلام يقال لهم قولا من رب رحيم ، بلا واسطة مبالغة فى تعظيمهم ، وذلك غاية متمناهم ، مضافا لرؤيته ، ومن مقتضى الرحمة : الإبقاء عليهم مع ذلك. قال القشيري : يسمعون كلامه وسلامه بلا واسطة ، وأكّد بقوله : قَوْلًا. وبقوله : مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ليعلم أنه ليس على لسان سفير ، والرحمة فى تلك الحالة أن يرزقهم الرؤية فى حال التسليم عليهم ، ليكمل لهم النعمة هـ. وفى الحديث عنه صلى اللّه عليه وسلم : «بينا أهل الجنة فى نعيمهم ، إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم ، فإذا الربّ قد أشرف عليهم من فوقهم ، فيقول : السلام عليكم يا أهل الجنة ، فينظر إليهم ، وينظرون إليه» «٢».

ثم ذكر أهل البعد والحجاب ، فقال : وَامْتازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ أي : انفردوا عن المؤمنين وكونوا على حدة ، وذلك حين يحشر المؤمنون ، ويساق بهم إلى الجنة. وقال قتادة : عزلوا عن كل خير. وعن الضحاك : لكل كافر بيت من النار ، يكون فيه ، لا يرى ولا يرى أبدا. هـ.

---

(١) الآية ٣٠ من سورة الواقعة.

(٢) أخرجه ابن ماجه فى (المقدمة ، باب فيما أنكرت الجهمية ١/ ٦٦ ، ح ١٨٤) وزاد السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٠١) عزوه لابن أبى الدنيا ، فى صفة الجنة ، والبزار ، وابن أبى حاتم ، والآجرى فى الرؤية ، وابن مردويه ، عن سيدنا جابر رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٨

الإشارة : إنّ أصحاب الجنة المعجّلة لأوليائه ، اليوم ، فى شغل كبير ، لا تجدهم إلا مشتغلين باللّه ، بين شهود واستبصار ، وتفكر واعتبار ، فى محل المشاهدة والمكالمة ، والمناجاة والمسارة ، أوقاتهم محفوظة ، وحركاتهم وسكناتهم بالإخلاص ملحوظة ، فهم فى شغل شاغل عن الدنيا وأهلها ، هم ومن تعلق بهم فى ظلال الرضا ، وبرد التسليم يرتادون ، وفى مشاهدة وجه الحبيب يتنعمون. قال القشيري : إن أصحاب الجنة اليوم ، أي : طلابها ، والساعون لها ، والعاملون لنيلها ، ولمثل ذلك فليعمل العاملون ، فهم فى الدنيا فى طلب الجنة عن المنعم بها ، كما جاء فى الحديث : «أكثر أهل الجنة البله» «١» ، ومن كان فى الدنيا عن الدنيا حرّا ، فلا يبعد أن يكون فى الجنة عن الجنة حرا ، «يختص برحمته من يشاء» – قلت : فالبله هم أهل الحجاب ، الذين يعبدون اللّه لطلب الجزاء ، ويقنعون بالنعيم الحسى – ثم قال : ويقال : الحقّ تعالى لا يتعلّق به حقّ ولا باطل ، فلا تنافى بين اشتغالهم بلذاتهم مع أهليهم ، وبين شهودهم مولاهم ، كما أنهم اليوم مستديمون لمعرفته ، بأى حالة كانت. ولا يقدح اشتغالهم باستيفاء حظوظهم ، فى معارفهم. هـ. مختصرا.

قلت : وما فى سورة الواقعة ، من ذكر نعيم السابقين ، يدلّ على أنهم يجتمع لهم نعيم الحور والولدان ، مع نعيم العيان والرضوان لأنهم فى الدنيا جمعوا بين القيام بوظائف الشريعة ، ومعاينة أسرار الحقيقة. واللّه تعالى أعلم.

قوله تعالى : سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ قال ابن عطاء : السلام جليل عظيم الخطر ، وأجلّه خطرا ما كان وقت المشاهدة والمصافحة ، حين يقول : سلام قولا من رب رحيم. قال القشيري : الرحمة فى ذلك الوقت أن يبقهم فى حال سماع السلام ، أو حال اللقاء ، لئلا تصحبهم دهشة ، ولا تلحقهم حيرة. هـ. وقال الورتجبي : سلام اللّه أزلى الأبد ، غير منقطع عن عباده الصالحين ، فى الدنيا والآخرة ، لكن فى الجنة ترفع عن آذانهم جميع الحجب ، فسمعوا كلامه ، ونظروا إلى وجهه كفاحا. هـ. قلت : وقد يرفع فى دار الدنيا ، فيسمع سلام اللّه على عباده ، كما وقع لبعض الأولياء – . قيل : وفى قوله : رَحِيمٍ إشارة إلى عدم حجبهم عن جماله أبدا ، مع الإبقاء عليهم فى حال السلام واللقاء ، فلا تصحبهم دهشة ، كما تقدم. وقيل : الإشارة فى الرحيمية : أن ذلك الوصول ليس باستحقاق ولا سبب من فعل العبد ، وإنما هو بالرحمة ، فيكون للعاصى فيه نفس ومساغ للرجاء. قاله المحشى.

---

(١) أخرجه البيهقي فى شعب الإيمان (٢/ ١٢٠ – ١٢٦ ، ح ١٣٦٦) من حديث جابر رضي اللّه عنه قال البيهقي معقبا : هذا الحديث بهذا الإسناد منكر.

كما أخرجه البيهقي فى الموضع نفسه (ح ١٣٦٧) والديلمي (الفردوس ح ١٤٦٣) ، وعزاه فى الكنز (ح ٣٩٢٨٣) للبزار ، من حديث أنس بن مالك. وقال العراقي فى المغني (٣/ ٢٠) : أخرجه البزار ، من حديث أنس وضعّفه ، وصححه القرطبي فى التذكرة ، وليس كذلك ، فقد قال ابن عدى : إنه منكر. راجع الكامل لابن عدى (٣/ ١١٦٠) والعلل المتناهية (٢/ ٩٣٤).

قلت : قال فى النهاية فى غريب الحديث (١/ ١٥٥) : «البله» هو جمع الأبله. وهو الغافل عن الشر ، المطبوع على الخير ، وقيل : هم الذين غلبت عليهم سلامة الصدور وحسن الظن بالناس لأنهم أغفلوا أمر دينهم ، فجهلوا حذق التصرف فيها ، وأقبلوا على آخرتهم ، فشغلوا أنفسهم بها ، فاستحقوا أن يكونوا أكثر أهل الجنة. فأما الأبله ، وهو الذي لا عقل له ، فغير مراد فى الحديث.

[.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٧٩

وقوله : وَامْتازُوا الْيَوْمَ إشارة إلى أن غيبة الرقيب من أتم النعمة ، وإبعاد العدوّ من أجلّ العوارف ، فالأولياء فى إيجاب القربة ، والأعداء فى العذاب والحجبة. انظر القشيري.

ثم ذكر توبيخ أعدائه يوم القيامة ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٠ الى ٦٥]

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤)

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥)

يقول الحق جل جلاله ، فى توبيخ الكفرة يوم القيامة : أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ، يقال : عهد إليه : إذا وصّاه. وهذا العهد إما على ألسنة الرسل ، أو : يوم : «ألست بربكم» ، أو : ما نصبه لهم من الحجج العقلية ، والدلائل السمعية ، الآمرة بعبادته ، الزاجرة عن عبادة غيره. وعبادة الشيطان :

طاعته فيما يوسوس به إليهم ، ويزيّنه لهم. وَأَنِ اعْبُدُونِي : عطف على «ألّا تعبدوا» ، أي : عهدنا إليكم ألّا تطيعوا الشيطان ووحّدونى ، وأطيعونى ، هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ إشارة إلى ما عهد إليهم فيه من معصية الشيطان ، وطاعة الرحمن ، أي : هذا طريق بليغ فى الاستقامة ، لا طريق أقوم منه. وفيه إشارة إلى جنايتهم على أنفسهم بعد النصح التام ، فلا حجة بعد الإعذار ، ولا ظلم بعد التذكير والإنذار.

وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا أي : خلقا كَثِيراً – وفيه لغات مذكورة فى كتب القراءات – أي : ولقد أتلف الشيطان عن طريقى المستقيم خلقا كثيرا ، بأن أشركوا معى غيرى ، أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ، قرّعهم على تركهم الانتفاع بالعقل ، الذي ركّبه فيهم ، حيث استعملوه فيما يضرهم ، من تدبير حظوظهم وهواهم.

هذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ بها ، اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ أي : ادخلوا واحترقوا فيها ، بكفركم وإنكاركم لها.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ أي : نمنعهم من الكلام ، وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ.

يروى : أنهم يجحدون ، ويخاصمون ، فتشهد عليهم جيرانهم ، وأهاليهم ، وعشائرهم ، فيحلفون : ما كانوا

(٥٧٩/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٠

مشركين ، فحينئذ يختم على أفواههم ، وتتكلم أيديهم وأرجلهم. وفى الحديث : «يقول العبد يوم القيامة : إنى لا أجيز علىّ إلا شاهدا من نفسى ، فيختم على فيه ، ويقال لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ، ثم يخلّى بينه وبين الكلام ، فيقول : بعدا لكنّ ، وسحقا ، فعنكنّ كنت أناضل» «١».

الإشارة : كل من آثر حظوظه ومناه ، ولم يقدر على مجاهدة هواه ، حتى مات محجوبا عن اللّه ، يلحقه شيء من هذا التقريع. والصراط المستقيم : هو طريق التربية ، التي توّصل إلى الحضرة ، التي قام بيانها الأولياء العارفون باللّه. ولقد أضلّ الشيطان عنها خلقا كثيرا ، حملهم على طلب الدنيا والرئاسة والجاه ، فلم يقدروا على التفرغ لذكر اللّه ، ولم يحطوا رؤوسهم لمن يعرّفهم باللّه ، فيقال لهم : هذه نار القطيعة التي كنتم توعدون ، إن بقيتم مع حظوظهم ورئاستكم ، اصلوها اليوم بكفركم بطريق التربية ، اليوم نختم على أفواههم ، فلا مناجاة بينهم وبين حبيبهم ، وتكلمنا أيديهم ، وتشهد أرجلهم – بلسان الحال أو المقال – بما كانوا يكسبون من التقصير.

قال القشيري : قوله : وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ .... إلخ ، فأمّا الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مؤبدة ، وأما العصاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم أعضاؤهم بالعصيان ، ولكن تشهد عليهم بعض أعضائهم بالإحسان ، وأنشدوا :

بينى وبينك يا ظلوم الموقف والحاكم العدل ، الجواد المنصف.

وفى بعض الأخبار المروية : أن عبدا شهدت أعضاؤه عليه بالزّلّة ، فتطير شعرة من جفن عينه ، فتشهد له بالشهادة. فيقول الحق تعالى : يا شعره جفن عبدى احتجّى عن عبدى ، فتشهد له بالبكاء من خوفه ، فيغفر له ، وينادى مناد : هذا عتيق اللّه بشعرة. هـ.

ثم هددهم فى دار الدنيا ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٦ الى ٦٨]

وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلى مَكانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ (٦٨)

---

(١) أخرجه مسلم فى (الزهد ، ٤/ ٢٨٨٠ ، ح ٢٩٦٩) من حديث سيدنا أنس بن مالك رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨١

يقول الحق جل جلاله : وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلى أَعْيُنِهِمْ اليوم ، أي : أعميناهم وأذهبنا أبصارهم. والطمس : سد شق العين حتى تعود ممسوخة. فَاسْتَبَقُوا الصِّراطَ ، على حذف الجار ، وإيصال الفعل ، أي :

فاستبقوا إلى الطريق الذي اعتادوا سلوكه ، وبادروا إليه لما يلحقهم من الخوف ، فَأَنَّى يُبْصِرُونَ فكيف يبصرون حينئذ من جهة سلوكهم ، فيضلون فى طريقهم عن بلوغ أملهم.

وَلَوْ نَشاءُ لَمَسَخْناهُمْ قردة ، وخنازير ، أو حجارة ، عَلى مَكانَتِهِمْ : على منازلهم ، وفى ديارهم ، حيث يأمنون من المكاره. والمكانة والمكان واحد ، كالمقامة والمقام. فَمَا اسْتَطاعُوا مُضِيًّا وَلا يَرْجِعُونَ فلم يقدروا على ذهاب ومجيء ، أو : مضيا أمامهم ، ولا يرجعون خلفهم. والمعنى : أنهم لكفرهم ونقضهم ما عهد إليهم أحقاء بأن نفعل بهم ذلك ، لكنا لم نفعل لشمول الرحمة لهم ، واقتضاء الحكمة إمهالهم.

وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نطل عمره نُنَكِّسْهُ «١» فِي الْخَلْقِ نقلبه فيه. وقرأ عاصم وحمزة بالتشديد. والنكس والتنكيس : جعل الشيء أعلاه أسفله. والمعنى : من أطلنا عمره نكسنا خلقه ، وهو نوع من المسخ ، فصار بدل القوة ضعفا ، وبدل الشباب هرما ، وذلك أنا خلقناه على ضعف فى جسده ، وخلو من عقل وعلم ، ثم جعلناه يتزايد إلى أن يبلغ أشده ، ويستكمل قوته ، ويعقل ، ويعلم ما له وعليه ، فإذا انتهى نكّسناه فى الخلق ، فجعلناه يتناقص حتى يرجع إلى حال شبيهة بحال الصبىّ ، فى ضعف جسده ، وقلّة عقله ، وخلوّه من العلم ، كما ينكس السهم ، فيجعل أعلاه أسفله. قال تعالى : وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ «٢». قال ابن عباس :

«من قرأ القرآن – أي وعمل به – لم يرد إلى أرذل العمر». أَفَلا يَعْقِلُونَ أنّ من قدر أن ينقلهم من

الشباب إلى الهرم ، ومن القوة إلى الضعف ، ومن رجاحة العقل إلى الخرف وقلة التمييز ، قادر على أن يطمس على أعينهم ، ويمسخهم على مكانتهم ، ويبعثهم بعد الموت.

الإشارة : ولو نشاء لطمسنا على أعينهم ، فلا يهتدون إلى طريق السلوك ، ولا يسلكونها ، فيبقوا فى الحجاب على الدوام. ولو نشاء لمسخنا قلوبهم على مكانتهم ، من رجاحة العقل والفهم ، فلا يتدبرون إلا فى الأمور الحسية ،

---

(١) قرأ عاصم وحمزة «ننكسه» بضم الأول ، وفتح الثاني ، وتشديد الثالث وكسره ، مضارع : (نكّس) ، للتكثير ، وقرأ الباقون بفتح الأول ، وإسكان الثاني ، وضم الثالث ، وتخفيفه. مضارع «نكسه» كنصره. انظر الإتحاف (٢٠/ ٤٠٤).

(٢) الآية ٧٠ من سورة النحل.

فلا يستطيعون مضيا فى بلاد المعاني ، ولا رجوعا عن الحسيات. ومن نعمّره من هؤلاء ننكّسه فى الخلق ، فيلحقه الخرف والضعف ، وأما من اهتدى إلى طريق السير ، وسلك بلاد المعاني ، فلا يزيده طول العمر إلا رجاحة فى العقل ، وقوة فى العلم ، وتمكينا فى المعاني والمعرفة.

قال القشيري : ومن نعمّره ننكّسه فى الخلق : نرده إلى العكس ، فكما كان يزداد فى القوة ، يأخذ فى النقصان ، إلى أن يبلغ أرذل العمر ، فيصير إلى مثل حال الطفولية من الضعف ، ثم لا يبقى بعد النقصان شيء ، كما أنشدوا :

طوى العصران ما نشراه منى فأبلى جدتى نشر وطى

أرانى كلّ يوم فى انتقاص ولا يبقى مع النقصان شئ «١»

وهذا فى الجثة والمباني ، دون الأحوال والمعاني ، فإن الأحوال – فى حق الجثة – فى الزيادة إلى بلوغ حد الخرف ، فيختلّ رأيه وعقله. وأصحاب الحقائق تشيب ذوائبهم ، ولكنّ محابّهم ومعانيهم فى عنفوان شبابها ، وطراوة جدّتها. هـ.

ثم أنكر على من رمى القرآن بكونه شعرا ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٦٩ الى ٧٠]

وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ وَما يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكافِرِينَ (٧٠)

يقول الحق جل جلاله : وَما عَلَّمْناهُ الشِّعْرَ أي : وما علّمنا نبينا محمدا الشعر ، حتى يقدر أن يقول شعرا ، فيتهم على القرآن ، أو : وما علّمناه بتعلم القرآن الشعر ، على معنى : أن القرآن ليس بشعر ، فإنه غير مقفّى ولا موزون ، وليس معناه ما يتوقاه الشعراء من التخييلات المرغبة والمنفرة ونحوها. فأين الوزن فيه؟ وأين التقفية؟

فلا مناسبة بينه وبين كلام الشعراء ، وَما يَنْبَغِي لَهُ أي : وما يليق بحاله ، ولا يتأتى له لو طلبه ، أي : جعلناه بحيث لو أراد قرض الشعر لم يتأتّ له ، ولم يسهل ، كما جعلناه أمّيا لم يهتد إلى الخط لتكون الحجة أثبت ، والشبهة أدحض.

---

(١) نسب البيتان إلى محمد بن يعقوب بن إسماعيل ، كما فى كتاب الوافي بالوفيات (٥/ ٢٢٢). ونسبا إلى أبى بكر بن أبى الدنيا ، كما فى تاريخ بغداد (١٤/ ٣١١).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٣

وأما قوله – عليه الصلاة والسلام – : «أنا النّبىّ لا كذب ، أنا ابن عبد المطّلب» «١» ، وقوله : «هل أنت إلّا إصبع دميت ، وفى سبيل اللّه ما لقيت» «٢» ، فهو مما اتفق وزنه من غير قصد ، كما يتفق فى خطاب الناس ورسائلهم ومحاوراتهم ، ولا يسمى شعرا إلا ما قصد وزنه.

ولمّا نفى القرآن أن يكون من جنس الشعر ، قال : إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ أي : ما الذي يعلّم ويقوله إلا ذكر من اللّه ، يوعظ به الإنس والجن ، وَقُرْآنٌ أي : كتاب سماوى ، يقرأ فى المحاريب ، ويتلى فى المتعبّدات ، وينال بتلاوته والعمل به أعلا الدرجات. فكم بينه وبين الشعر ، الذي هو من همزات الشيطان؟!.

أنزلناه إليك لِتُنْذِرَ بِهِ «٣» يا محمد ، أو : لينذر القرآن مَنْ كانَ حَيًّا بالإيمان ، أو عاقلا متأملا فإن الغافل كالميت ، أو : من سبق فى علم اللّه أنه يحيى فإن الحياة الأبدية بالإيمان ، وتخصيص الإنذار به لأنه المنتفع به ، وَيَحِقَّ الْقَوْلُ أي : تجب كلمة العذاب عَلَى الْكافِرِينَ المصرّين على الكفر ، وجعلهم فى مقابلة من كان حيا إشعار بأنهم بكفرهم فى حكم الأموات ، كقوله : وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ «٤».

الإشارة : أما النبي – عليه الصلاة والسلام – فنفى اللّه عنه صنعة الشّعر ، والقوة عليه ، لئلا يتهم فيما يقوله ، وأما الأولياء فكثير منهم تكون له القوة عليه ، ويصرف ذلك فى أمداح الخمرة الأزلية ، والحضرة القدسية ، أو فى الحضرة النبوية ، وينالون بذلك تقريبا ، ورتبة كبيرة ، وأما قوله – عليه

الصلاة والسلام – : «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا يريه خير من أن يمتلئ شعرا» «٥» فالمراد به شعر الهوى ، الذي يشغل عن ذكر اللّه ، أو يصرف القلب عن حضرة اللّه. قيل لعائشة – رضى اللّه عنها – أكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يتمثل بشيء من الشعر؟ فقالت : لم يتمثل بشيء من الشعر إلا بيت طرفة ، أخى بنى قيس :

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد.

وربما عكسه فقال : «ويأتيك من لم تزود بالأخبار» «٦». وباللّه التوفيق.

---

(١) أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من قاد دابة غيره فى الحرب ، ح ٢٨٦٤) ومسلم فى (الجهاد ، باب فى غزوة حنين ، ٣/ ١٤٠٠ ، ح ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب من ينكب فى سبيل اللّه ، ح ٢٨٠٢) وفى (الأدب ، باب ما يجوز من الشعر والرجز) ومسلم فى (الجهاد ، باب لقى النبي صلى اللّه عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين ، ٣/ ١٤٢١ ، ح ١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

(٣) قرأ نافع ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، ويعقوب «لتنذر» بالخطاب. وقرأ الباقون «لينذر» بالغيب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٤).

(٤) من الآية ٢٢ من سورة فاطر.

(٥) أخرجه البخاري فى (الأدب ، باب ما يكره أن يكون الغالب على الإنسان الشعر حتى يصدّه عن ذكر اللّه ، ح ٦١٥٥) ومسلم فى (كتاب الشعر ، ٤/ ١٧٦٩ ح ٢٢٥٧).

(٦) أخرجه بنحوه ، وبدون ذكر بيت الشعر ، الطبري فى تفسيره (٢٣/ ٢٧) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٠٥) لعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم. وانظر : تفسير البغوي (٧/ ٢٧) وتفسير ابن كثير (٣/ ٥٧٩).

ثم ذكّرهم بالنعم ، عليهم ينقادوا بملاطفة الإحسان فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧١ الى ٧٣]

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَمِنْها يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ وَمَشارِبُ أَفَلا يَشْكُرُونَ (٧٣)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَوْا أي : أعملوا ولم يعلموا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أي :

أظهرته قدرتنا ، ولم يقدر على إحداثه غيرنا. وذكر الأيدى ، وإسناد العمل إليها ، استعارة ، تفيد مبالغة فى الاختصاص والتفرد بالإيجاد ، أَنْعاماً ، خصّها بالذكر لما فيها من بدائع الحكمة والمنافع الجمة.

فَهُمْ لَها مالِكُونَ أي : خلقناها لأجلهم ، فملكناها إياهم ، فهم يتصرفون فيها تصرّف المالك ، مختصّون بالانتفاع بها. أو :

فهم لها حافظون قاهرون.

وَذَلَّلْناها لَهُمْ وصيّرناها منقادة لهم. وإلا فمن كان يقدر عليها لو لا تذليله وتسخيره لها. وبهذا أمر الراكب أن يشكر هذه النعمة ، ويسبح بقوله : سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ «١» فَمِنْها رَكُوبُهُمْ أي : مركوبهم ، وهو ما يركب منها ، وقرىء بضم الراء ، أي : ذو ركوبهم. أو : فمن منافعها ركوبهم. وَمِنْها يَأْكُلُونَ ما يأكلون لحمه ، أي : سخرناها لهم ليركبوا ظهرها ويأكلوا لحمها. وَلَهُمْ فِيها مَنافِعُ من الجلود ، والأوبار ، والأصواف ، وغير ذلك ، وَمَشارِبُ من اللبن ، على تلونه من المضروب وغيره ، وهو جمع : مشرب ، بمعنى : موضع الشرب. أو : المصدر ، أي : الشرب. أَفَلا يَشْكُرُونَ نعم اللّه فى ذلك؟ إذ لو لا إيجاده إيها لها ما أمكن الانتفاع بها.

الإشارة : قوم نظروا إلى ما منّ اللّه إليهم من المبرة والإكرام ، فانقادوا إليه بملاطفة الإحسان ، فعرفوا المنعّم ، وشكروا الواحد المنان ، فسخّر لهم الكون وما فيه ، وقوم لم ينجع فيهم سوابغ النعم ، فسلّط عليهم المصائب والنقم ، فانقادوا إليه قهرا بسلاسل الامتحان ، «عجب ربك من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل» «٢» ، وكل هؤلاء سبقت لهم

---

(١) الآية ١٣ من سورة الزخرف.

(٢) لفظ حديث ، أخرجه البخاري فى (الجهاد ، باب الأسارى فى السلاسل ، ح ٣٠١٠) من حديث سيدنا أبى هريرة رضي اللّه عنه.

من اللّه العناية. وقوم لم ينجح فيهم نعم ولا نقم ، قد سبق لهم الخذلان ، فأصروا على العصيان ، ولم يشكروا اللّه على ما أسدى من سوابغ الإحسان ، وإلى هؤلاء توجه الخطاب بقوله :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٤ الى ٧٦]

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ وَما يُعْلِنُونَ (٧٦)

يقول الحق جل جلاله : وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً ، أشركوها معه فى العبادة ، بعد ما رأوا منه تلك القدرة الباهرة ، والنعم المتظاهرة ، وتحققوا أنه المنفرد بها ، فعبدوا الأصنام ، لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ بها إذا حزبهم أمر. والأمر بالعكس ، لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ أبدا ، وَهُمْ لَهُمْ أي : الكفار للأصنام جُنْدٌ أي : أعوان وشيعة مُحْضَرُونَ يخدمونهم ، ويذبّون عنهم ، ويعكفون على عبادتهم. أو : اتخذوهم لينصروهم عند اللّه ، ويشفعوا لهم ، والأمر على خلاف ما توهموا ، فهم يوم القيامة جند معدّون لهم ، محضرون لعذابهم لأنهم يجعلون وقودا للنار ، التي يحترقون بها.

ثم سلّى نبيه مما يسمع بقوله : فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ فلا يهمنّك تكذيبهم ، وأذاهم ، وما تسمع منهم من الإشراك والإلحاد. إِنَّا نَعْلَمُ ما يُسِرُّونَ من عداوتهم وكفرهم ، وَما يُعْلِنُونَ ، فيجازيهم عليه ، فحقّ مثلك أن يتسلّى بهذا الوعيد ، ويستحضر فى نفسه صورة حاله وحالهم فى الآخرة ، حتى ينقشع عنهم الهمّ ، ولا يرهقه حزن. وهو تعليل للنهى على طريق الاستئناف ، ولذلك لو قرئ «أنّا» بالفتح ، على حذف لام التعليل ، لجاز ، خلافا لمن أنكره وأبطل صلاة من قرأ به. انظر النسفي.

الإشارة : كل من ركن إلى شيء دون اللّه ، فهو فى حقه صنم ، كائنا ما كان ، علما ، أو عملا ، أو حالا ، أو غير ذلك. ولذلك قال القطب ابن مشيش لأبى حسن الشاذلى – رضى اللّه عنهما – لمّا قال : بم تلقى اللّه يا أبا الحسن؟

فقال له : بفقري ، قال : إذا تلقاه بالصنم الأعظم ، أي : وإنما يلقى اللّه باللّه ، ويغيب عما سواه.

وقوله تعالى :

فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ فيه تسلية لمن أوذى فى جانب اللّه. قال القشيري : إذا علم العبد أنه بمرأى من الحق ، هان عليه ما يقاسيه ، لا سيما إذا كان فى اللّه. هـ.

(٥٨٥/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٦

ثم أبطل دعوى من أنكر البعث ، وهو من جملة قولهم ، الذي أمر نبيه بالتسلى عنه ، فقال :

[سورة يس (٣٦) : الآيات ٧٧ الى ٨٣]

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ (٨١)

إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ (٨٣)

يقول الحق جل جلاله : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ مذرة ، خارجة من الإحليل ، الذي هو قناة النجاسة ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ بيّن الخصومة ، أي : فهو على مهانة أصله ، ودناءة أوله ، يتصدّى لمخاصمة ربه ، وينكر قدرته على إحياء الميت بعد ما رمّت عظامه. وهى تسلية ثانية له صلى اللّه عليه وسلم ، وتهوين ما يقولونه فى جانب الحشر ، وهو توبيخ بليغ حيث عجّب منه ، وجعله إفراطا فى الخصومة بيّنا فيها.

روى أن أبىّ بن خلف أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم بعظم بال ، ففتّه بيده ، وقال : يا محمد أترى اللّه يحيى هذا بعد ما رمّ؟

فقال صلى اللّه عليه وسلم : «نعم ويبعثك ويدخلك جهنم» «١» فنزلت الآية.

وَضَرَبَ لَنا مَثَلًا ، أمرا عجيبا ، بأن جعلنا مثل الخلق العاجزين ، فنعجز عما عجزوا عنه من إحياء الموتى ، وَنَسِيَ خَلْقَهُ من المنىّ المهين ، فهو أغرب من إحياء العظم الرميم. و«خلقه» : مصدر مضاف للمفعول ، أي : خلقنا إياه ، قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ بال مفتت ، وهو اسم لما بلي من العظام ، لا صفة ، ولذلك لم يؤنّث. وقد وقع خبرا لمؤنث ، وقيل : صفة بمعنى مفعول ، من : رممته ، فيكون كقتيل وجريح. وفيه

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٣٠) والواحدي فى أسباب النزول (ص ٣٧٩) عن قتادة. وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٠٨) لسعيد بن منصور ، وابن المنذر ، والبيهقي فى البعث ، عن أبى مالك. وأخرج الحاكم (٢/ ٤٢٩) وصححه ووافقه الذهبي عن ابن عباس : أن الآية نزلت فى العاص بن وائل. والآية عامة ، والألف واللام فى قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسانُ للجنس ، يعم كل منكر للبعث.

(٥٨٦/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٧

دليل على أن العظم تحله الحياة ، فإذا مات صار نجسا ، وهو مذهب مالك والشافعي ، وقال أبو حنيفة : لا تحلّه الحياة ، فهو طاهر كالشعر والعصب.

قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها خلقها أَوَّلَ مَرَّةٍ أي : ابتداء ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ مخلوق عَلِيمٌ لا يخفى عليه أجزاؤه ، وإن تفرقت فى البر أو البحر ، فيجمعه ، ويعيده كما كان.

ثم ذكر برهان إحيائه الموتى بقوله : الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ ، كالمرخ والعفار ، ناراً ، فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ تقدحون ، ولا تشكون أنها نار خرجت منه ، فمن قدر على إحداث النار من الشجر

الأخضر ، مع ما فيه من المائية ، المضادة للنار ، كان أقدر على إيجاد الحياة والغضاضة فيما غضا ويبس ، وهى الزناد عند العرب ، وأكثرها من المرخ والعفار ، وفى أمثالهم : «فى كلّ شجر نار ، واستمجد المرخ والعفار» أي :

استكثر فى هذين الصنفين. وكان الرجل يقطع منهما غصنين مثل السواكين ، وهما خضراوان ، يقطر منهما الماء ، فيسحق المرخ – وهو ذكر – على العفار – وهى أنثى ، فينقدح النار بإذن اللّه تعالى.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه :

ليس من الشجر شجرة إلا وفيها نار ، إلا العناب لمصلحة الدقّ للثياب.

والمرخ – ككتف : شجر سريع الورى. قاله فى الصحاح. وهو المسمى عندنا بالكلخ. وفى القاموس : عفار كسحاب : شجر يتخذ منه الزناد. قال ابن عطية : النار موجودة فى كل عود ، غير أنها فى المتحلحل ، المفتوح المسام ، أوجد ، وكذلك هو المرخ والعفار. هـ.

أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مع كبر جرمهما ، وعظم شأنهما بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ مثل أجسامهم فى الصّغر والحقارة ، بالإضافة إلى السموات والأرض ، أو : أن يعيدهم مثل ما كانوا عليه فى الذات والصفات لأن المعاد مثل المبدأ ، بل أسهل ، بَلى أي : قل : بلى هو قادر على ذلك ، وَهُوَ الْخَلَّاقُ كثير الخلق والاختراع ، الْعَلِيمُ بأحوال خلقه ، أو : كثير المخلوقات والمعلومات.

إِنَّما أَمْرُهُ شأنه إِذا أَرادَ شَيْئاً يكونه أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فيحدث ، أي : فهو كائن موجود ، لا محالة. وهو تمثيل لتأثير قدرته فى الأشياء ، بأمر المطاع للمطيع فى حصول المأمور ، من غير امتناع وتوقف ، من غير أن يحتاج إلى كاف ولا نون ، وإنما هو بيان لسرعة الإيجاد ، كأنه يقول : كما لا يثقل عليكم قول «كن» ، فكذلك لا يصعب على اللّه إنشاؤكم وإعادتكم. قال الكواشي : ثم أومأ إلى كيفية خلقه الأشياء المختلفة فى الزمان المتحد ، وذلك ممتنع على غيره ، فقال : إِنَّما أَمْرُهُ ... الآية ، فيحدث من غير توقف ، فمن رفع «فيكون» ،

(٥٨٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٨

فلأنه جملة من مبتدأ وخبر ، أي : فهو يكون. ومن نصب فللعطف على «يقول». والمعنى : أنه ليس ممن يلحقه نصب ولا مشقة ، ولا يتعاظمه أمر ، بل إيجاد المعدومات ، وإعدام الموجودات ، عليه أسرع من لمح البصر هـ.

فَسُبْحانَ تنزيها له مما وصفه به المشركون ، وتعجيب مما قالوا ، الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ أي : ملك كُلِّ شَيْءٍ والتصرف فيه على الإطلاق. وزيادة الواو والتاء للمبالغة ، أي : مالك كلّ شىء ، وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

بالبعث للجزاء والحساب.

الإشارة : أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة مهينة ، فإذا هو خصيم لنا فى تدبيرنا واختيارنا ، وينازعنا فى مرادنا من خلقنا ، ومرادنا منهم : ما هم عليه. فاستحى أيها الإنسان أن تخاصم اللّه فى حكمه ، أو تنازعه فى تقديره وتدبيره ، وسلّم الأمور لمن بيده الخلق والأمر. بكى بعض الصالحين أربعين سنة على ذنب أذنبه. قيل له : وما هو؟

قال : (قلت لشىء كان : ليته لم يكن). فارض بما يختاره الحق لك ، جلاليا كان أو جماليا ولا تختر من أمرك شيئا ، واللّه يعلم وأنتم لا تعلمون. وكل من اهتم بأمر نفسه ، واشتغل بتدبير شئونها ، فقد ضرب للّه مثلا ، بأن أشرك نفسه معه ، ونسى خلقه ، ولو فكر فى ضعف أصله ، وحاله ، لاستحيا أن يدبّر لنفسه مع ربه ، وفى الإشارات عن اللّه تعالى : أيها العبد لو أذنت لك أن تدبر لنفسك لكنت تستحيى منى أن تدبر لها ، فكيف وقد نهيتك عن الندية!.

وكما قدر على إحياء العظام الرميمة ، يقدر على إحياء القلوب الميتة ، ومن قدر على استخراج النار من محل الماء ، يقدر على استخراج العلم من الجهل ، واليقظة من الغفلة ، ومن كان أمره بين الكاف والنون ، بل أسرع من لحظ العيون ، ينبغى أن يرجع إليه فى جميع الشئون. قال القشيري : فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء ، فلا يحدث شيء – قلّ أو كثر – إلا بإبداعه وإنشائه ، ولا يبقى منها شيء إلا بإبقائه ، فمنه ظهر ما يحدث ، وإليه يصير ما يخلق. هـ.

قال النسفي : قال صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ يس يريد بها وجه اللّه غفر اللّه له ، وأعطى من الأجر كمن قرأ القرآن اثنتين وعشرين مرة» وباللّه التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلى العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا ومولانا محمد ، وآله وصحبه ، وسلم.

(٥٨٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٨٩

سورة الصّافّات

مكية. وهى مائة وإحدى ، أو اثنتان ، وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها : أنها رد على المشركين فى عبادة الأصنام ، وانكارهم البعث ، المختتم بهما السورة قبلها ، فقال فى صدر هذه : إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ ، ثم قال :

وَقالُوا إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ أَإِذا مِتْنا ... «١» إلخ. قال تعالى :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١ الى ١٠]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِراتِ زَجْراً (٢) فَالتَّالِياتِ ذِكْراً (٣) إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ (٤)
رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ (٧) لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جانِبٍ (٨) دُحُوراً وَلَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ (٩)
إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ (١٠)

يقول الحق جل جلاله : وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ، فَالزَّاجِراتِ زَجْراً ، فَالتَّالِياتِ ذِكْراً ، أقسم بطوائف الملائكة ، الصافين أقدامهم فى مراتب العبادة ، كل على ما أمر به ، فالزجرات السحاب سوقا إلى ما أراد اللّه ، أو :

عن المعاصي بإلهام الخير. أو : الشياطين عن التعرض لهم. (فالتاليات ذكرا) لكلام اللّه تعالى من الكتب المنزلة وغيرها ، قاله ابن عباس وابن مسعود وغيرهما. وفيه رد على ابن الصلاح ، حيث قال فى فتاويه : إن الملائكة لا تقرأ القرآن ، وإنما قراءته كرامة أكرم اللّه بها البشر. قال : فقد ورد أن الملائكة لم تعط ذلك ، فهى حريصة لذلك على استماعه من الإنس ، كما نقله عنه فى الإتقان ، فانظره.

أو : بنفوس العلماء والعمال ، الصافات أقدامها فى التهجد وسائر الصلوات ، فالزاجرات بالمواعظ والنصائح ، فالتاليات آيات اللّه ، والدراسات شرائعه. أو : بنفوس الغزاة فى سبيل اللّه ، التي تصف الصفوف ، وتزجر الخيل للجهاد ، وتتلو الذكر مع ذلك ، لا يشغلهم عنه مبارزة العدو. و(صفا) : مصدر مؤكد ، وكذلك (زجرا) ، والفاء تدلّ على الترتيب ، فتفيد فضل المتقدم على المتأخر ، فتفيد الفضل للصف ، ثم للزجر ، ثم للتلاوة ، أو بالعكس.

---

(١) الآية ١٥ من سورة الصافات. [.....]

وجواب القسم : إِنَّ إِلهَكُمْ لَواحِدٌ لا شريك معه يستحق أن يعبد ، رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ ، وهو خبر بعد خبر ، أو : خبر عن مضمر ، أي : هو رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَرَبُّ الْمَشارِقِ أي : مطالع الشمس ، وهى ثلاث مائة وستون مشرقا ، وكذلك المغارب. تشرق الشمس كلّ يوم فى مشرق منها ، وتغرب فى مغرب ، ولا تطلع ولا تغرب فى واحد يومين. وأما : رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ «١» فإنه أريد مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما. وأما : رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ «٢» فإنه أريد به الجهة ، فالمشرق جهة ، والمغرب جهة. قال الكواشي : لم يذكر المغارب لأن المشارق تدل عليها.

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا القربى منكم ، تأنيث الأدنى ، بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ بالإضافة ، أي : بأن زينتها الكواكب ومن قرأ بالتنوين والخفض «٣» فبدل ، أي : هى الكواكب ، ومن قرأ بالنصب فعلى إضمار «أعنى» ، أو : بدل من محل «بزينة» ، أي : زيّنا الكواكب ، أو : على إعمال المصدر منونا فى المفعول ، أي : بتزين الكواكب. قال البيضاوي : وركوز الثوابت فى الكوة الثامنة ، وما عدا القمر من السيارات فى الست المتوسطة بينهما وبين سماء الدنيا إن تحقق لم يقدح فى ذلك ، فإن أهل الأرض يرونها بأسرها كجواهر مشرقة ، متلألئة على سطحها الأزرق. هـ.

وَحِفْظاً من الشياطين ، كما قال : وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِمَصابِيحَ وَجَعَلْناها رُجُوماً لِلشَّياطِينِ «٤» أو : بإضمار فعله ، أي : حفظناها حفظا مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ خارج عن الطاعة ، فيرمى بالشهب. لا يَسَّمَّعُونَ «٥» إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلى : استئناف لبيان حالهم ، بعد بيان حفظ السماء منهم ، ولا يجوز وصفه لكل شيطان لأنه يقتضى أن يكون الحفظ من شياطين لا يسمعون. والضمير لكلّ باعتبار المعنى لأنه فى معنى شياطين ، وتعدية (يسمعون) بإلى لتضمنه معنى الإصغاء مبالغة فى نفيه ، وتهويلا لما يمنعهم عنه. ومن قرأ بالتشديد فأصله : «يتسمّعون» فأدغم. والتسمّع : طلب السماع. يقال : تسمّع فسمع أو لم يسمع إذا منعه مانع. والملأ الأعلى هم : الملائكة لأنهم فى السموات العلى ، والإنس والجن هم الملأ الأسفل لأنهم سكان الأرض ، وَيُقْذَفُونَ يرمون بالشهب ، مِنْ كُلِّ جانِبٍ من جميع جوانب السماء ، من أىّ جهة صعدوا للاسترواق.

---

(١) الآية ١٧ من سورة الرحمن.

(٢) الآية ٩ من سورة المزمل.

(٣) قرأ حفص ، وحمزة ، بتنوين (زينة) وجر (الكواكب). وقرأ أبو بكر بتنوين (زينة) ونصب (الكواكب). والباقون بحذف التنوين ، على إضافة «زينة» للكواكب. انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٨).

(٤) الآية ٥ من سورة الملك.

(٥) قرأ حفص ، وحمزة ، والكسائي ، بتشديد السين والميم ، والأصل «يتسمعون» فأدغمت التاء. وقرأ الباقون بالتخفيف.

انظر الإتحاف (٢/ ٤٠٨).

دُحُوراً مفعول له ، أي : ويقذفون للدحور ، وهو الطرد ، أو : مدحورين ، على الحال ، أو : لأن القذف

والطرد متقاربان فى المعنى ، فيكون مصدرا له ، فكأنه قيل : ويقذفون قذفا ، وَلَهُمْ عَذابٌ آخر واصِبٌ دائم ، أو :

شديد ، وهو عذاب الآخرة ، أو : عذاب الدنيا لأنه دائم الوجوب لأنهم فى الدنيا مرجمون بالشهب دائما ، إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ ، «من» : بدل من ضمير «يسمعون» ، أي : لا يتسمع الشياطين إلا الشيطان الذي خطف الخطفة ، أي : اختلس شيئا من كلام الملائكة بسرعة ، فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ أي : نجم مضيء يثقبه ، أو يحرقه ، أو يخبله ، ومنه تكون الغيلان. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : أقسم الحق تعالى بصفوف الذاكرين ، الزاجرين للخواطر عن قلوبهم ، فى طلب الحضور ، التالين لذكر ربهم لرفع الستور ، إنه منفرد فى ألوهيته ، متوحد فى ربوبيته إذ هو ربّ كل شيء ، ربّ سموات الأرواح ، وربّ أرض النفوس والأشباح ، وربّ مشارق أنوار العرفان ، وهى قلوب أهل العيان ، ولم يذكر المغارب لأن شمس القلوب إذا طلعت ليس لها مغيب.

قوله تعالى : إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا .. إلخ ، قال القشيري : زيّن السماء بالنجوم ، وزيّن قلوب أوليائه بنجوم المعارف والأحوال. هـ. وقوله تعالى : وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطانٍ مارِدٍ ، قال القشيري : كذلك حفظ القلوب بأنوار التوحيد ، فإذا قرب منها الشيطان رجمها بنجوم معارفهم ، إلا من خطف الخطفة ، كذلك إذا اغتنم الشيطان من الأولياء أن يلقى شيئا من وساوسه تذكّروا ، فإذا هم مبصرون. هـ.

وقال فى لطائف المنن : إن اللّه تعالى إذ تولى وليّا صان قلبه من الأغيار ، وحرسه بدوام الأنوار ، حتى لقد قال بعض العارفين : إذا كان سبحانه قد حرس السماء بالكواكب والشهب كى لا يسترق السمع منها ، فقلب المؤمن أولى بذلك ، لقول اللّه سبحانه ، فيما يحكيه عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لم تسعنى أرضى ولا سمائى ، ووسعني قلب عبدى المؤمن». هـ. والمراد : المؤمن الكامل ، الذي تولى اللّه حفظه ، وهو الولي العارف.

ثم ردّ على من أنكر البعث بعد هذه الدلائل الباهرة ، فقال :

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ ...

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١١]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمْ مَنْ خَلَقْنا إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ (١١)

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَفْتِهِمْ أي : فاستخبر كفّار مكّة أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أي : أقوى خلقا وأعظم ، أو : أصعب خلقا وأشقه. أَمْ مَنْ خَلَقْنا يعنى ما ذكر من السماء والأرض وما بينهما ، وما يعمرهما من

الملائكة والكواكب ، والشّهب الثواقب؟. وجيء ب «من» تغليبا للعقلاء. ويدلّ عليه قراءة من قرأ : (أم من عددنا) بالتشديد والتخفيف. والقصد : الرد على منكرى البعث ، فإنّ من قدر على خلق هذه العوالم ، على عظمها ، كان على بعثهم أقدر.

ثم ذكر ضعف أصلهم بقوله : إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ لاصق باليد ، أو : لازم. وقرئ به ، أي : يلزم من جاوره ويلصق به. وهذا شاهد عليهم بالضعف لأن ما يصنع من الطين غير موصوف بالصلابة والقوة. أو :

احتجاج عليهم بأن الطين اللازب الذي خلقوا منه إنما هو تراب ، فمن أين استنكروا أن نخلق من تراب مثله خلقا آخر؟ حيث قالوا : أَإِذا كُنَّا تُراباً «١» إلخ ، وهذا المعنى يعضده ما يتلوه بعد من ذكر إنكارهم البعث.

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٢]

بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢)

بَلْ عَجِبْتَ من تكذيبهم إيّاك ، وإنكارهم البعث ، وَيَسْخَرُونَ هم منك ، ومن تعجبك ، أو : من أمر البعث ، قال الكواشي : ولمّا لم تؤثّر فيهم البراهين ، أمر نبيّه – عليه الصلاة والسلام – بالإضراب عنهم ، والإعجاب منهم ، حيث لم يؤمنوا به وبالبعث ، والمعنى : إنك تعجبت من تكذيبهم ، وهم يسخرون منك ومن تعجبك. هـ. قال قتادة : لمّا نزل القرآن عجب منه النبي صلى اللّه عليه وسلم ، واعتقد أنه لا يسمعه أحد إلا آمن به ، فلما سمعه المشركون ، ولم يؤمنوا ، وسخروا ، تعجّب من ذلك «٢». هـ. وذكر ابن عطية وغيره : أن الآية نزلت فى ركانة ، الذي صرعه صلى اللّه عليه وسلم «٣» ، وذكر ابن عبد البر : أنه أسلم يوم الفتح. هـ.

وقرأ الأخوان «عجبت» بضم التاء ، أي : استعظمت. والعجب : روعة تعترى الإنسان عند استعظام الشيء لخفاء سببه ، وهو فى حقه تعالى محال ، ومعناه : التعجب لغيره ، أي : كل من يرى حالهم يقول : عجبت ، ونحوه : قوله صلى اللّه عليه وسلم : «عجب اللّه من شاب ليست له صبوة» «٤». وهو عبارة عما يظهره اللّه فى جانب المتعجب منه ، من التعظيم أو التحقير ، أو : قل يا محمد : عجبت ويسخرون.

---

(١) الآية ٥ من سورة الرعد.

(٢) أخرجه الطبري (٢٣/ ٤٤).

(٣) حديث صرع النبي صلى اللّه عليه وسلم للركانة ، أخرجه الترمذي فى (اللباس ، باب العمائم على القلانس ٤/ ٢١٧ ح ١٧٨٤) وأبو داود فى (اللباس ، باب فى العمائم ٤/ ٣٤١ ح ٤٠٧٨) عن أبى ركانة.

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١) والطبراني فى الكبير (١٧/ ٣٠٩) من حديث عقبة بن عامر. قال

الهيثمي فى المجمع (١٠/ ٢٧٠) :

وإسناده حسن.

(٥٩٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٩٣

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٣]

وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ (١٣)

وَإِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ أي : ودأبهم أنهم إذا وعظوا بشيء لا يتعظون به.

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٤]

وَإِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ (١٤)

وَإِذا رَأَوْا آيَةً معجزة ، كانشقاق القمر ، ونحوه ، يَسْتَسْخِرُونَ يبالغون فى السخرية ، ويقولون : إنه سحر ، ويستدعى بعضهم بعضا أن يسخر منها ،

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٥]

وَقالُوا إِنْ هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥)

وَقالُوا إِنْ هذا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ظاهر سحريته ،

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٦]

أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦)

أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أي : أنبعث إذا كنا ترابا وعظاما؟

[سورة الصافات (٣٧) : آية ١٧]

أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)

أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ ، فمن فتح الواو عطف على محلّ «إنّ» واسمها ، والهمزة للإنكار ، أي : أو يبعث أيضا آباؤنا الأولون الأقدمون ، على زيادة الاستبعاد ، يعنون أنهم أقدم ، فبعثهم أبعد وأبطل. ومن سكّن «١» فمن عطف أحد الشيئين ، أي : أيبعث واحد منا ، على المبالغة فى الإنكار.

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٨ الى ٢١]

قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ داخِرُونَ (١٨) فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ فَإِذا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩) وَقالُوا يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هذا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢١)

قُلْ نَعَمْ تبعثون وَأَنْتُمْ داخِرُونَ صاغرون.

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واحِدَةٌ أي : صيحة واحدة ، وهى النفحة الثانية ، والفاء : جواب شرط مقدر ، أي : إذا

كان كذلك فما هى إلا صيحة واحدة ، وهى مبهمة ، يفسرها خبرها. أو : فإنما البعثة زجرة واحدة.
والزجرة : الصيحة ، من قولك : زجر الراعي الإبل والغنم : إذا صاح عليها ، فَإِذا هُمْ أحياء يَنْظُرُونَ إلى سوء أعمالهم ، أو :
ينظرون ما يحلّ بهم.
وَقالُوا يا وَيْلَنا ، الويل : كلمة يقولها القائل وقت الهلكة ، هذا يَوْمُ الدِّينِ اليوم الذي يدان فيه العباد ، ويجازون بأعمالهم. هذا يَوْمُ الْفَصْلِ أي : يوم القضاء والفرق بين فرق الهدى والضلالة ، الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ، يحتمل أن يكون قوله : هذا يَوْمُ الدِّينِ من كلام الكفرة ، بعضهم مع بعض ، وأن يكون من كلام الملائكة لهم ، وأن يكون يا وَيْلَنا هذا يَوْمُ الدِّينِ من كلام الكفرة ، وما بعده كلام الملائكة ، جوابا لهم. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : الإنسان فيه عالمان ، عالم فى غاية الضعف والخسة ، وهى بشريته الطينية ، أصلها من ماء مهين.
وعالم فى غاية القوة والكمال ، وهى روحانيته السماوية النورانية ، فإذا حييت الروح بالعلم بالله ، واستولت على البشرية ، استيلاء النار على الفحمة ، أكسبتها القوة والشرف ، وإذا ماتت الروح بالغفلة والجهل ، واستولت عليه البشرية أكسبتها الضعف والذل ، والعارف الكامل هو الذي ينزل كل شىء فى محله ، فينزل الضعف فى ظاهره ، والقوة فى باطنه ، فظاهره يمتد من الوجود بأسره ، وباطنه يمد الوجود بأسره. فمن نظر إلى أصل ظاهره تواضع وعرف قدره ، ولذلك قال سيدنا على كرم اللّه وجهه : ما لابن آدم والفخر ، وأوله نطفة مذرة ، وآخره جيفة قذرة ، وفيما بينهما يحمل العذرة. هـ.

---

(١) قرأ قالون ، وابن عامر ، وأبو جعفر ، بإسكان الواو ، وقرأ الباقون بالفتح. انظر الإتحاف (٢/ ٤١٠).

ومن نظر إلى باطنه تاه على الوجود بأسره ، لكن من آداب العبد : ألا يظهر بين يدى سيده إلا ما يناسب العبودية ، من الضعف ، والذل ، والفقر ، فإذا تحقق بوصفه مدّه اللّه بوصفه. وبالله التوفيق.
ثم ذكر مثال أهل الكفر ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٢٢ الى ٣٤]
احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْواجَهُمْ وَما كانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ

(٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ (٢٤) ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٢٧) قالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ (٣١)

فَأَغْوَيْناكُمْ إِنَّا كُنَّا غاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤)

يقول الحق جل جلاله للملائكة يوم القيامة : احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا أي : اجمعوا الذين كفروا وَأَزْواجَهُمْ وأشباههم ، فيحشر عابد الصنم مع عبدة الأصنام ، وعابد الكواكب مع عبدتها. أو : نساءهم الكافرات ، أو : قرناءهم من الشياطين. و«الواو» بمعنى «مع» ، أو : عاطفة. وَما كانُوا يَعْبُدُونَ ، مِنْ دُونِ اللَّهِ أي : الأصنام ، اجمعوها معهم ، فَاهْدُوهُمْ إِلى صِراطِ الْجَحِيمِ أي : دلّوهم على طريقها ، وعرّفوهم بها. وعن الأصمعي : يقال : هديته فى الدين هدى ، وهديته الطريق هداية.

وَقِفُوهُمْ : احبسوهم إِنَّهُمْ مَسْؤُلُونَ عن أقوالهم وأفعالهم وعقائدهم ، ما لَكُمْ لا تَناصَرُونَ لا ينصر بعضكم بعضا. وهذا توبيخ لهم بالعجز عن التناصر ، بعد ما كانوا يتناصرون فى الدنيا ، أو : استهزاء بهم.

وقيل : هو جواب لأبى جهل ، حيث قال يوم بدر : نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ «١» ، وجملة النفي : حال ، أي : ما لكم غير متناصرين ، بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ منقادون لما يراد بهم لعجزهم ، وانسداد أبواب الحيل عليهم ، أو : قد أسلم بعضهم بعضا وخذله.

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ أي : التابع على المتبوع يَتَساءَلُونَ يتخاصمون ، ويسأل بعضهم بعضا سؤال توبيخ وتسخط ، قالُوا أي : الأتباع للمتبوعين : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنا عَنِ الْيَمِينِ أي : تصدوننا عن

---

(١) كما حكت الآية ٤٤ من سورة القمر.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٩٥

الحق والإيمان ، قاله الحسن. وبيانه : أن العرب كانت تتيمن بالسانح «١» عن اليمين من الطير ، ويناسبه ما ذكره ابن عطية فى جملة التأويلات بقوله : ومنها : أن يريد باليمين اليمن ، أي : تأتوننا من جهة النصائح ، والعمل الذي يتيمن به. هـ. قلت : والأحسن : أن يقدر معلق الجار ، أي : تأتوننا وتصرفوننا عن طريق أهل اليمين.

قالُوا أي : الرؤساء : بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ أي : بل أنتم أبيتم الإيمان ، وأعرضتم عنه مع تمكّنكم منه ، مختارين للكفر ، غير ملجئين إليه ، أو : بل أنتم سبقت منكم الضلالة على إغوائنا ، وإنما نشأ عن إغوائنا دوام كفركم لا استئنافه. وَما كانَ لَنا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ

وقهر ، نسلبكم به تمكّنكم واختياركم ، بَلْ كُنْتُمْ قَوْماً طاغِينَ أي : بل كنتم قوما مختارين للطغيان ، فَحَقَّ عَلَيْنا أي : لزمنا جميعا قَوْلُ رَبِّنا إِنَّا لَذائِقُونَ ، يعنى : حقت علينا كلمته بأنا ذائقون لعذابه. ولو حكى الوعيد على ما هو لقال : إنكم لذائقون ، لكنه عدل به إلى لفظ المتكلم لأنهم يتكلّمون بذلك عن أنفسهم. ثم قالوا لضعفائهم : فَأَغْوَيْناكُمْ فدعوناكم إلى الغي إِنَّا كُنَّا غاوِينَ فأردنا إغواءكم لتكونوا مثلنا ، فَإِنَّهُمْ أي : الأتباع والمتبوعين جميعا ، يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ كما كانوا مشتركين فى الغواية. إِنَّا كَذلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ المشركين ، أي : مثل ذلك الفعل نفعل بكل مجرم.

الإشارة : ويقال على طريق العكس : احشروا الذين أحسنوا واتقوا ربهم ، وأزواجهم ، ومن انتسب إليهم ، فاهدوهم إلى طريق الجنان ، وقفوهم يشفعوا فيمن تعلّق بهم ، إنهم مسؤولون عن أصحابهم وعشائرهم ، حتى يخلصوهم من ورطة الحساب. ما لكم لا تناصرون ، فينصر بعضكم بعضا فى هذا الموطن الهائل ، بل هم اليوم منقادون لأمر اللّه ، حتى يأذن لهم فى الشفاعة. وفى الحديث : «اتّخذوا يدا عند الفقراء ، فإن لهم دولة يوم القيامة» «٢» ودولتهم :

الشفاعة فيمن أحبهم وأحسن إليهم. والفقراء هم المتوجهون إلى اللّه تعالى ، حتى وصلوا إلى حضرته. ومن صدّ الناس عن طريقه وصحبتهم ، يتعلق به المخذول عنهم ، فيقول له : (إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ...) الآية.

ثم ذكر سبب ورودهم العذاب ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٣٥ الى ٣٩]

إِنَّهُمْ كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَما تُجْزَوْنَ إِلاَّ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩)

---

(١) السانح : ما أتاك عن يمينك من ظبى أو طائر ، أو غير ذلك ، والبارح : ما أتاك من ذلك عن يسارك. انظر اللسان (سنح ٣/ ٢١١٢).

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ١٠٤) لأبى نعيم فى الحلية ، عن الحسين بن على رضي اللّه عنه. والحديث ضعفه السيوطي.

يقول الحق جل جلاله : إِنَّهُمْ أي : المشركين كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ ، هو أعم من إذا قيل لهم : قولوها ، أو : ذكرت بمحضرهم ، يَسْتَكْبِرُونَ أي : يتعاظمون عن قولها ، أي : كانوا فى الدنيا إذا سمعوا كلمة التوحيد استكبروا عنها ، وأبوا إلا الشرك ، وَيَقُولُونَ أَإِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ ، يعنون نبينا محمدا صلى اللّه عليه وسلم ، بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ لكونه مصدّقا لما بين يديه من الرسل. وهو ردّ عليهم بأن ما جاء به الحق من التوحيد قد قام عليه البرهان ، وتطابق عليه المرسلون.

فقوله تعالى : بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ مقابل لقولهم :

«شاعر» لأن الشاعر فى الغالب كذوب ، وتصديق المرسلين فى مقابلة مجنون لأنه لا يكون إلا من العاقل. قال تعالى لهم : إِنَّكُمْ لَذائِقُوا الْعَذابِ الْأَلِيمِ بالإشراك وتكذيب الرسول وَما تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إلا مثل ما عملتم بلا زيادة ولا نقصان ، فعذبتم ، على الكفر والتكذيب ، وخلدتم ، على نيتكم الدوام عليه.

الإشارة : ينبغى للمؤمن إذا سمع كلمة التوحيد ، وهى «لا إله إلا اللّه» أن يخشع قلبه ، وتهتز جوارحه ، فرحا بها ، ويخضع لمن جاء بها ، ودلّ عليها ، حتى يدخله فى بحار معانيها ، وهو التوحيد الخاص ، أعنى : توحيد أهل العيان ، وهم خلفاء الرسول صلى اللّه عليه وسلم فى التربية النبوية. قال القشيري : .. كانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ..

إلخ. احتجابهم بقلوبهم أوقعهم فى وهدة عذابهم ، وذلك أنهم استكبروا عن الإقرار بربوبيته ، ولو عرفوا لافتخروا بعبوديته قال تعالى : إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِهِ .. «١» وقال : نْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لِلَّهِ ..

«٢» ، فمن عرف اللّه فلا لذة له إلا فى طاعته وعبوديته ، قال قائلهم :

ويظهر فى الورى عزّ الموالي فيلزمنى له ذلّ العبيد

ولمّا لم يحتشموا من وصفه – سبحانه – بما لا يليق بجلاله ، لم يبالوا بها أطلقوا من المثالب فى جانب أنبيائه. هـ.

ثم استثنى المخلصين ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٤٠ الى ٥٠]

إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ (٤١) فَواكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ (٤٤)

يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيها غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩)

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (٥٠)

---

(١) من الآية ٢٠٦ من سورة الأعراف. [.....]
(٢) من الآية ١٧٣ من سورة النساء.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٥٩٧
يقول الحق جل جلاله : إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ – بفتح اللام ، وكسرها «١» – أي : لكن عباد اللّه المخلصين فى أعمالهم ، أو : الذين أخلصهم اللّه ونجاهم من الشرك ، فليسوا مع أولئك المعذّبين ، بل أُولئِكَ المخلصون لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، يأتيهم بكرة وعشيا ، كحال المياسير فى الدنيا ، فهو معلوم الوقت لأن النفس إليه أسكن. قال القشيري : قد كان فى وقت الرسول صلى اللّه عليه وسلم من له رزق معلوم ، فهو من جملة المياسير ، وهذه صفة أهل الجنة ، لهم فى الآخرة رزق معلوم لأبشارهم وأسرارهم ، فالأغنياء – اليوم – لهم رزق معلوم لأبشارهم ، والفقراء لهم رزق معلوم لقلوبهم وأسرارهم. هـ.
ثم فسّره بقوله : فَواكِهُ : جمع فاكهة ، وهى كل ما يتلّذذ به ، فليس قوتهم لحفظ الصحة ، بل رزقهم كله فواكه لأنهم مستغنون عن حفظ الصحة بالأقوات لأن أجسامهم نورانية مخلوقة للأبد ، فما يأكلونه إنما هو للتلذذ.
أو : معلوم ، أي : منعوت بخصائص خلق عليها من طيب طعم ، ورائحة ، ولذّة ، وحسن منظر ، وَهُمْ مُكْرَمُونَ :
معظّمون. قال القشيري : من ذلك : ورد الرسل عليهم من قبل اللّه – عزّ وجلّ – فى كل وقت ، وكذلك اليوم الخطاب وارد على قلوب الخواص فى كل وقت بكلّ أمر. هـ.
وقوله : فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ، إما ظرف لمكرمون ، أو : حال ، أو : خبر ، أي : فى جنة ليس فيها إلا النعيم المقيم. وكذا عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ : يقابل بعضها بعضا ، إن استوت درجتهم ، فالتقابل أتم للسرور ، وآنس.
يُطافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ إناء من زجاج فيه شراب ، ولا يكون كأسا حتى يكون فيه شراب ، وإلا فهو إناء. وقد تسمّى الخمر كأسا. قال الأخفش : كل كأس فى القرآن فهو خمر. ومثل لابن عباس. مِنْ مَعِينٍ من خمر معين ، أي : جارية فى أنهار ظاهرة للعيون ، وصف بما وصف به الماء لأنه يجرى فى الجنة أنهارا ، كما يجرى الماء ، قال تعالى : وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ «٢». وقوله : بَيْضاءَ صفة للكأس ، أي : صافية فى نهاية اللطافة.
لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ أي : لذيذة للشاربين ، وصفت باللذة ، كأنها نفس اللذة وعينها. أو : ذات لذة. لا فِيها

غَوْلٌ أي : لا تغتال عقولهم فتذهب بها ، كخمر الدنيا ، وهو من : غاله يغوله : إذا أهلكه وأفسده. أو : لا فيها غول : إثم ، أو وجع بطن أو صداع ، وهو وجع الرأس ، أي : لا ينشأ عنها شيء مما ذكر.

وَلا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ يسكرون ، من :

نزف الشارب : إذا ذهب عقله. ويقال للسكران : نزيف ، ومنزوف. ومن قرأ بكسر الزاى «٣» فمعناه : لا ينفد شرابهم ، يقال : أنزف الرجل فهو منزف : إذا فنيت خمرته.

---

(١) قرأ نافع ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر ، «المخلصين» بفتح اللام.

(٢) من الآية ١٥ من سورة سيدنا محمد.

(٣) قرأ بذلك حمزة ، والكسائي. وقرأ الباقون بفتح الزاى .. انظر الإتحاف (٢/ ٤١١).

وَعِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ أي : حور قصرت أبصارهنّ على أزواجهن ، لا يمددن طرفا إلى غيرهم عِينٌ : جمع عيناء ، أي : نجلاء ، واسعة العين. يقال : رجل أعين ، وامرأة عيناء ، ورجال ونساء عين. كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ مصون مستور. شبههنّ ببيض النعام المكنون من الريح والغبار ، فى الصفاء والبياض.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ فى الجنة ، تساؤل راحة وتنعم. والمعنى : أنهم يشربون ويتحادثون على الشرب ، كعادة الشّرب «١». قال الشاعر :

وما بقيت من اللّذّات إلّا أحاديث الكرام على المدام

أو : أقبل بعضهم على بعض يتساءلون عما جرى عليهم فى الدنيا. وجيء به ماضيا على ما عرف فى أخباره المحققة الوقوع.

الإشارة : المخلصين – بالفتح – أبلغ من المخلصين – بالكسر – المخلصين : أخلصهم اللّه واصطفاهم ، والمخلصى : ن طالبين الإخلاص ، مجتهدين فيه ، الأولون مجذوبون ، والآخرون سالكون ، الأولون محبوبون ، والآخرون محبون ، الأولون واصلون ، والآخرون سائرون. قال القشيري :

والإخلاص : إفراد الحقّ – سبحانه – بالعبودية ، فالذى يشوب عمله برياء ليس بمخلص. ويقال : الإخلاص : تصفية العمل ، لا توفيقه ، وفى الخبر :

«يا معاذ : أخلص العمل ، يكفك القليل منه» «٢». ويقال : الإخلاص : فقد رؤية الأشخاص. هـ.

أُولئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ للمخلصين – بالفتح – رزق أرواحهم وأسرارهم ، من النظر إلى وجه الحبيب فى كل ساعة. وللمخلصين ، رزق أشباحهم مما يشتهون. وقد يجتمع لهما ، ويغلب لكل واحد ما كان

الغالب على همته فى الدنيا. وهم مكرمون بالتقريب والمشاهدة ، على قدر سعيهم هنا ، ويشربون كأس المحبة والاصطفاء على قدر شربهم هنا خمرة المعاني ، وشرب خمرة المعاني على قدر الغيبة عن حس الأوانى والزهد فى بهجتها.

وقوله تعالى : فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ ، كان من تمام نعميهم فى الشرب : التحادث عليها بما يناسب حالها ، ومدحها ، كما قال الشاعر :

وإذا جسلت إلى المدام وشربه فاجعل حديثك كله فى الكأس

---

(١) الشّرب : القوم يشربون ، ويجتمعون على الشراب ، جمع شارب ، كركب ورجل. انظر اللسان (شرب ٤/ ٢٢٢).

(٢) عزاه السيوطي فى الجامع الصغير (ح ٢٩٨) لابن أبى الدنيا فى الإخلاص ، والحاكم ، عن معاذ.

كذلك العارف إذا جلس مجلس الفكرة ، وغاب فى الشهود والنظرة ، لا يجول إلا فى عظمة الذات ، وأسرارها ، وبهائها ، وجمالها ، لا يخطر على باله غيرها ، فحديث روحه وسره كله فى الخمرة الأزلية. هذه هى الفكرة الصافية ، والنظرة الشافية ، متعنا اللّه بها على الدوام. آمين.

ثم ذكر حال من يعوق عن شرب هذه الخمرة ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٥١ الى ٦١]

قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَواءِ الْجَحِيمِ (٥٥)

قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ (٥٦) وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠)

لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ (٦١)

يقول الحق جل جلاله : قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ أي : من أهل الجنة إِنِّي كانَ لِي قَرِينٌ فى الدنيا ، قيل : كان شيطانا ، وقيل : من الإنس ، ففيه التحفظ من قرناء السوء ، وقيل : كانا شريكين بثمانية آلاف دينار ، أحدهما :

قطروس ، وهو الكافر ، والآخر : يهوذا ، المؤمن ، فكان أحدهما مشغولا بعبادة اللّه ، وكان الآخر مقبلا على ماله ، فحلّ الشركة مع المؤمن ، وبقي وحده لتقصير المؤمن فى التجارة ، وجعل الكافر كلما

اشترى شيئا من دار ، أو جارية ، أو بستان ، عرضه على المؤمن ، وفخر عليه ، فيمضى المؤمن ، ويتصدق بنحو ذلك ، ليشترى به من اللّه تعالى فى الجنة. فكان من أمرهما فى الجنة ما قصّه اللّه تعالى فى هذه الآية «١». قال السهيلي : هما المذكوران فى سورة الكهف بقوله : وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ..»

إلخ.

يَقُولُ أي : قرين السوء ، لقرينه المؤمن فى الدنيا : أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ بالبعث؟ أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَدِينُونَ لمحاسبون ومجزيون بأعمالنا؟ من : الدين ، وهو الجزاء.

---

(١) ذكر السيوطي القصة بطولها فى الدر (٥/ ٥١٨ – ٥١٩) وعزاها لعبد الرزاق ، وابن المنذر ، عن عطاء الخراسانى ، وأخرجها الطبري (٢٣/ ٥٦) عن فرات بن ثعلبة البهراني. وقد ذكر الشيخ ابن عجيبة – رحمه اللّه تعالى – القصة كاملة عند تفسير الآية ٣٢ من سورة الكهف.

(٢) الآية ٣٢ وما بعدها من سورة الكهف.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٠٠

قالَ ذلك القائل لمن معه فى الجنة : هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ معى إلى النار ، لأريكم حال ذلك القرين. قيل : إن فى الجنة كوى ينظر أهلها منها إلى أهل النار. قلت : حال الجنة كله خوارق ، فيكشف لهم عن حال أهل النار كيف شاء. وقيل : القائل : هو اللّه ، أو : بعض الملائكة. يقول لهم : هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار ، لأريكم ذلك القرين ، أو : لتعلموا منزلتكم من منزلتهم. قال الكواشي : أو : إن المؤمن يقول لإخوانه من أهل الجنة : هل أنتم ناظرون أخى فى النار؟ ، فيقولون له : أنت أعرف به منا ، فانظر إليه. فَاطَّلَعَ على أهل النار فَرَآهُ أي :

قرينه فِي سَواءِ الْجَحِيمِ فى وسطها.

قالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ لتهلكنى بإغوائك. و«إن» مخففة ، واللام : فارقة ، أي : إنه قربت لتهلكنى ، وَلَوْ لا نِعْمَةُ رَبِّي علىّ بالهداية ، والعصمة ، والتوفيق للتمسك بعروة الإسلام ، لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ معك ، أو : من الذين أحضروا العذاب ، كما أحضرته أنت وأمثالك.

أَفَما نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ، إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ، الفاء للعطف على محذوف ، أي : أنحن مخلّدون فما نحن بميتين ولا معذّبين. وعلى هذا يكون الخطاب لرفقائه فى الجنة ، لما رأى ما نزل بقرينه ، ونظر إلى حاله وحال رفقائه فى الجنة ، تحدّثا بنعمة اللّه. أو : قاله بمرأى من قرينه ومسمع

ليكون توبيخا له ، وزيادة تعذيب ، ويحتمل أن يكون الخطاب لقرينه ، كأنه يقول : أين الذي كنت تقول في الدنيا من أنّا نموت ، وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ كقوله : إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى «١» والتقدير : أكما كنت تزعم هو ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى ، وما نحن بمعذّبين ، بل الأمر وقع خلافه ، وكان يقال له : نحن نموت ونسأل في القبر ، ثم نموت ونحيا ، فيقول :
ما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذّبين.
وقوله تعالى : إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ .. إلخ ، يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه ، وأن يكون من خطاب اللّه تعالى لنبيه – عليه الصلاة والسلام ، أي : إن هذا النعيم الذي نحن فيه لهو الفوز العظيم. ثم قال اللّه – عز وجل : لِمِثْلِ هذا فَلْيَعْمَلِ الْعامِلُونَ أي : لنيل مثل هذا يجب أن يعمل العاملون ، لا للحظوظ الدنيوية ، المشوبة بالآلام ، السريعة الانصرام. أو : لمثل هذا فليجتهد المجتهدون ، مادام يمكنهم الاجتهاد ، فإنّ الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، فبقدر ما يزرع هنا يحصد ثمّ ، وسيندم المفرط إذا حان وقت الحصاد.

---

(١) الآية ٣٥ من سورة الدخان.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٠١
الإشارة : تنسحب الآية من طريق الإشارة على من رام النهوض إلى اللّه ، بصحبة الرجال في طريق التجريد ، فينهاه رفقاؤه ، فيخالفهم ، وينهض إلى اللّه ، فإذا كان يوم القيامة رفع مع المقربين ، فيقول لهم : إني كان قرين ينكر طريق الخصوص ، وينهاني عن صحبتهم ، فيطلع عليه ، فيراه في أسفل الجنة ، مع عامة أهل اليمين ، فيحمد اللّه على مخالفته ، ويقول : لو لا نعمة ربي لكنت من المحضرين معك. قال القشيري : فيقول الوليّ له : إن كدتّ لتردين ، لو لا نعمة ربي. نطقوا بالحق ، ولكنهم لم يصرّحوا بعين التوحيد إذ جعلوا الفضل واسطة ، والأولى أن يقول : ولو لا ربي لكنت من المحضرين. ثم يقول : لمثل هذا فليعمل العاملون. ثم قال : فإذا بدت شظية ، من الحقائق ، أو ذرة من نسيم القربة ، فبالحريّ أن يقول القائل : لمثل هذا الحال تبذل الأرواح ، وأنشدوا :
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وإن بات من ليلى على اليأس طاويا «١». هـ.
ثم قال تعالى :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٦٢ الى ٧٤]
أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ

الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ (٧٠) وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١)
وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢) فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤)
يقول الحق جل جلاله : أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ أي : أنعيم الجنة وما فيها من اللذات ، والطعام ، والشراب ، خير نزلا أم شجرة الزقوم؟ النزل : ما يقدم للنازل من الرزق. و«نزلا» : تمييز ، وفى ذكره : تنبيه على أن ما ذكر من النعيم لأهل الجنة بمنزلة ما يقدم للنازل ، ولهم من وراء ذلك ما تقصر عنه الأفهام ، وكذلك الزقوم لأهل النار. قال ابن عطية : فى البلاد الجدبة المجاورة للصحارى شجرة ، مرّة ، مسمومة ، لها لبن ، إن مسّ جسم أحد تورّم ومات منه ، فى غالب الأمر ، تسمّى شجرة الزقوم. والتزقم : البلع على شدة وجهد. هـ. وفى

---

(١) البيت لمجنون ليلى. انظر : ديوانه : / ٢٩٦ وتزيين الأسواق/ ١٢٨. وجاء فى لطائف الإشارات : (سلمى) بدل (ليلى).

الحديث : «لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معايشهم. فكيف بمن يكون الزقوم طعامه!» «١». وقال ابن عرفه : هذه الشجرة يحتمل أن تكون واحدة بالنوع ، فيكون كل جهة من جهات جهنم فيها شجرة ، أو : تكون واحدة بالشخص. هـ.
إِنَّا جَعَلْناها فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ محنة وعذابا لهم فى الآخرة ، وابتلاء لهم فى الدنيا. وذلك أنهم قالوا : كيف تكون فى النار شجرة ، والنار تحرق الشجر؟ ولم يعلموا أن من قدر على خلق حيوان يعيش فى النار ويتلذذ بها – وهو السمندل – «٢» كيف لا يقدر على خلق شجر فى النار ، وحفظه من الإحراق؟
إِنَّها شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ، قيل : منبتها فى قعر جهنم ، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها ، وهذا يؤيد أنها واحدة بالشخص.
طَلْعُها أي : حملها كَأَنَّهُ رُؤُسُ الشَّياطِينِ ، الطلع للنخلة ، فاستعير لما يطلع من شجرة الزقوم من حملها ، وشبه برؤوس الشياطين للدلالة على تناهيه فى الكراهة ، وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح فى طباع الناس لاعتقادهم أنه شرّ محض. وقيل : الشياطين : حيّات هائلة ، قبيحة المنظر ، لها أعراف يقال لها شياطين. وقيل : شبه بما استقر فى النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها ، وإن كانت لا

ترى ، كما شبهوا سنان الرماح بأنياب أغوال ، كما قال امرؤ القيس :

أيقتلني والمشرفيّ مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال «٣»

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْها أي : من طلع تلك الشجرة ، فَمالِؤُنَ مِنْهَا الْبُطُونَ مما يبلغهم من الجوع الشديد ، فيملؤون بطونهم منها مع تناهى بشاعتها ، ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْها على أكلها ، أي : بعد ما شبعوا منها ، وغلبهم العطش ، وطال استقاؤهم ، لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ أي : لشرابا من غساق ، أو : حديد ، مشوبا بماء حار ، يشوى وجوههم ، ويقطع أمعاءهم ، فى مقابلة ما قال فى شراب أهل الجنة : وَمِزاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ «٤» وأتى ب «ثم» لما فى شرابهم من مزيد البشاعة والكراهة فإنّ الزقوم حار محرق ، وشرابهم أشد حرا وإحراقا.

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه فى (صفة جهنم ، باب ما جاء فى صفة شراب أهل النار ، ٤/ ٦٠٩ ، ح ٢٥٨٥) ، وابن ماجة فى (الزهد ، باب صفة النار ، ٢/ ٤٤٦ ، ح ٤٣٢٥) وابن حبان (ح ٧٤٧٠) والحاكم (٢/ ٢٩٤) وصححه ، من حديث ابن عباس – رضى اللّه عنهما.

(٢) السمندل : طائر إذا انقطع نسله ، وهرم ، ألقى نفسه فى الجمر ، فيعود إلى شبابه. وقيل : هو دابة يدخل النار فلا تحرقه. انظر اللسان (سمندل ، ٣/ ٢١٠٥).

(٣) انظر : ديوان امرئ القيس (ص ٣٣). والكامل (٣/ ٩٦) ..

(٤) الآية ٢٧ من سورة المطففين. [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٠٣

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ أي : إنهم يخرجون من مقارهم فى الجحيم – وهو الدركات التي أسكنوها – إلى شجرة الزقوم ، فيأكلون منها إلى أن يتملّوا. ويشربون بعد ذلك ، ثم يرجعون إلى دركاتهم ، كما تورد الإبل ، ثم ترد إلى وطنها. ومعنى التراخي فى ذلك ظاهر.

ثم ذكر سبب عذابهم ، فقال : إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آباءَهُمْ ضالِّينَ ، فَهُمْ عَلى آثارِهِمْ يُهْرَعُونَ ، علّل استحقاقهم للوقوع فى تلك الشدائد بتقليد آبائهم فى الضلال ، وترك اتباع الدليل. والإهراع : الإسراع الشديد. كأنهم يزعجون ويحثّون حثّا. وفيه إشعار بأنهم بادروا إلى اتباعهم من غير توقف ولا نظر. وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ قبل قومك قريش أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ، يعنى الأمم الماضية ، بالتقليد وترك النظر. وَلَقَدْ أَرْسَلْنا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ أنبياء ، حذّروهم العواقب. فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ الذين أنذروا ، وحذّروا ، فقد أهلكوا جميعا ، إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي : إلا الذين آمنوا ، وأخلصوا دينهم لله ، أو : أخلصهم اللّه لدينه ،

على القراءتين «١».

الإشارة : إذا قامت القيامة انحاز الجمال كله إلى أهل الإيمان والإحسان ، وانحاز الجلال كله إلى أهل الكفر والعصيان ، فيرى المؤمن من جماله تعالى وبره وإحسانه ما لا تفى به العبارة ، ويرى الكافر من جلاله تعالى وقهره ما لا يكيف. وأما فى دار الدنيا فالجمال والجلال يجريان على كل أحد ، مؤمنا أو كافرا ، كان من الخاصة أو العامة ، غير أن الخاصة يزيدون إلى اللّه تعالى فى الجلال والجمال لمعرفتهم فى الحالتين. وأما العامة فلا يزيدون إلا بالجمال لإنكارهم فى الجلال. والمراد بالجلال : كل ما يقهر النفس ويذلها. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر أول المنذرين من أولى العزم ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٧٥ الى ٨٢]

وَلَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلامٌ عَلى نُوحٍ فِي الْعالَمِينَ (٧٩)

إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ نادانا أي : دعانا نُوحٌ ، حين أيس من قومه بقوله : أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ «٢» أو : دعانا لننجيه من الغرق ، فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ أي : فأجبناه أحسن الإجابة ، ونصرناه على أعدائه ،

---

(١) فى «المخلصين» ، وقد قرأ بفتح اللام : نافع وعاصم ، وحمزة ، والكسائي ، وأبو جعفر. وقرأ الباقون بالكسر.

(٢) الآية ١٠ من سورة القمر.

وانتقمنا منهم بأبلغ ما يكون ، فو اللّه لنعم المجيبون نحن ، فحذف القسم لدلالة اللام عليه. وحذف المخصوص ، والجمع دليل العظمة والكبرياء. وَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ ومن آمن به وأولاده المؤمنين مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ، وهو غمّ الغرق ، أو : إذاية قومه ، وَجَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ ، وقد فنى غيرهم. قال قتادة : الناس كلهم من ذرية نوح ، وكان لنوح عليه السّلام ثلاثة أولاد : سام – وهو أبو العرب وفارس والروم ، وحام – وهو أبو السودان ، من المشرق إلى المغرب – ويافث – وهو أبو الترك ويأجوج وماجوج «١». وقد نظمه بعضهم ، فقال :

العرب والروم وفارس اعلمن أولاد سام فيهم الخير كمن
من نسل حام نشا السودان شرقا وغربا ، ذا له برهان
يأجوج مأجوج مع الصقالبة ليافث ، لا خير فيهم قاطبه.
وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أي : وأبقينا عليه الثناء الحسن فى الأمم الآخرين ، الذين يأتون بعده من الأنبياء والأمم إلى يوم القيامة ، سَلامٌ عَلى نُوحٍ : مبتدأ وخبر ، استئناف ، فِي الْعالَمِينَ ، يعنى : أنهم يسلّمون عليه تسليما ، ويدعون له ، أي : ثبتت هذه التحية فيهم ، ولا يخلو أحد منهم منها ، كأنّ اللّه أثبت التسليم على نوح وأدامه فى الملائكة والثقلين ، يسلّمون عليه عن آخرهم. إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، فنكرمهم ونحييهم ، وهو تعليل لما فعل بنوح من التكرمة السنية ، بأنه مجازاة له على إحسانه ، إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ علّل كونه محسنا بأنه كان عبدا مؤمنا ليريك جلالة محلّ الإيمان. ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ أي : الكافرين.
ذكر فى كتاب حياة الحيوان ، عن القشيري : أن العقرب والحية أتيا نوحا عليه السّلام فقالتا : احملنا معك ، ونحن نعاهدك ألا نضر أحدا ذكرك ، فحملهما. فمن قرأ ، حين يخاف مضرتهما ، حين يمسى وحين يصبح : سلام على نوح فى العالمين ، ومحمد فى المرسلين ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إنه من عبادنا المؤمنين ، ما ضرتاه. هـ. وقال نبينا – عليه الصلاة والسلام : «من قال حين يمسى وحين يصبح : أعوذ بكلمات اللّه التامات من شرّ ما خلق ، لم يضره شى ء» «٢».
الإشارة : إذا تحقق الإيمان والإحسان فى عبد أعطى ثلاث خصال : نفوذ الدعوة ، والثناء الحسن بعده ، والبركة فى الذرية ، كل ذلك مقتبس من قضية نوح عليه السّلام.

---

(١) قاله سعيد بن المسيب ، كما فى تفسير ابن كثير (٤/ ١٣).
(٢) أخرجه ، بنحوه ، مسلم فى : (الذكر والدعاء ، باب فى التعوذ من سوء القضاء ، ٤/ ٢٠٨٠ ، ح ٢٧٠٨ ، ٢٧٠٩) من حديث سعد بن أبى وقاص ، وأبى هريرة – رضى اللّه عنهما.

ثم ذكر خليله إبراهيم عليه السّلام ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٨٣ الى ٨٧]
وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْراهِيمَ (٨٣) إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ (٨٧)

قلت : (أ ئفكا) : مفعول له ، و(آلهة) : مفعول «تريدون» ، أي : أتريدون آلهة من دون اللّه إفكا وزورا. وإنما قدّم المفعول به على الفعل للعناية له ، وقدّم المفعول له على المفعول به لأنه كان الأهم عنده أن يكافحهم بأنهم على إفك وباطل فى شركهم. ويجوز أن يكون «إفكا» مفعولا به ، أي : أتريدون إفكا. ثم فسّر الإفك بقوله : آلِهَةً دُونَ اللَّهِ على أنها إفك فى نفسها ، أو : حالا ، أي : أتريدون آلهة من دون اللّه آفكين.

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ أي : نوح لَإِبْراهِيمَ ، أي : ممن شايعه على أصول الدين ، وإن اختلفا فى الفروع ، أو : شايعه على التصلب فى دين اللّه ، ومصابرة المكذّبين. وكان بين نوح وإبراهيم ألفان وستمائة وأربعون سنة ، وما كان بينهما إلا نبيّان هود ، وصالح. إِذْ جاءَ رَبَّهُ : متعلق بما فى الشيعة من معنى المشايعة ، أي : وممن شايعه على دينه إبراهيم ، حين جاء ربه بِقَلْبٍ سَلِيمٍ من الشرك ، أو : من آفات القلوب ، ومعنى المجيء بقلبه ربه : أنه أخلص لله قلبه ، وعلم ذلك منه.

إِذْ قالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ ما ذا تَعْبُدُونَ ، «إذ» : بدل من الأولى ، أو : ظرف لجاء ، أو : لسليم ، أَإِفْكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ أتريدون آلهة تعبدونها من دون اللّه إفكا وزورا وباطلا. فَما ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعالَمِينَ يفعل بكم إذا لقيتموه ، وقد عبدتم غيره ، فما تقولون ، وكيف بكم فى مقام الخجل الذي بين أيديكم ، وإن كنتم اليوم غائبين عنه؟. أو : أىّ شيء ظنكم بمن هو حقيق بالعبادة لكونه رب العالمين ، حتى تركتم عبادته ، وأشركتم معه غيره ، أو أمنتم عذابه؟.

الإشارة : لا يكون العبد إبراهيميا حنيفيا حتى يقدس قلبه مما سوى اللّه ، ويرفض كلّ ما عبده الناس من دون اللّه ، كحب الدنيا ، والرئاسة ، والجاه ، فيجئ إلى اللّه بقلب سليم ، أي : مقدس من شوائب الطبيعة ، فهو سالم مما دون اللّه لاتصاله بالله. قال القشيري : «بقلب سليم» لا آفة فيه. ويقال : لديغ من محبة الأغيار ، أو : من الحظوظ ، أو : من الاختيار والمنازعة. والله تعالى أعلم.

(٦٠٥/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٠٦

ثم ذكر كسره الأصنام ، وما ترتب عليه ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٨٨ الى ٩٨]

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فَقالَ أَلا تَأْكُلُونَ (٩١) ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ (٩٢)

فَراغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ (٩٦) قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْياناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)

فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨)

يقول الحق جل جلاله : فَنَظَرَ إبراهيم نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ، وذلك أن قومه كانوا يتعاطون علم النجوم ، فعاملهم بما يعلمون لئلا ينكروا عليه تخلّفه. وكانو يقولون : إذا طلع سهيل مقابل الزهرة سقم من نظر إليه ، فاعتلّ عليهم لأنه نظر إليه ليتركوه. وذلك أنه كان لهم من الغد عيد ومجمع ، وكانوا يدخلون على أصنامهم ، فيقربون إليها القرابين ، ويضعون بين أيديها الطعام ، قبل خروجهم إلى عيدهم ، لتبارك عليه ، فإذا قدموا أكلوه. فلما نظر إلى النجوم ، قال : إِنِّي سَقِيمٌ إنى مشارف للسقم – وهو الطاعون ، وكان أغلب الأسقام عليهم ، وكانوا يخافون العدوى – ليتفرقوا عنه ، فهربوا منه إلى عيدهم ، وتركوه فى بيت الأصنام ، ليس معه أحد ، ففعل بالأصنام ما فعل. قيل : إن علم النجوم كان حقا ثم نسخ الاشتغال به. والكذب حرام إلا إذا عرّض. والذي قاله إبراهيم عليه السّلام معراض من الكلام ، أي : سأسقم ، أو : من فى عنقه الموت سقيم ، أو : سقيم مما أرى من مخالفتكم وعبادتكم الأصنام. وعلى كل حال لم يلم إبراهيم بشيء من الكذب ، وإنما عرّض. وأيضا : إنما كان لمصلحة ، وقد أبيح لها ، كالجهاد ونحوه. وفى الحديث : «ما كذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، ما منها واحدة إلا وهو يناضل عن دينه لقوله : إِنِّي سَقِيمٌ ، وقوله : فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ «١» ، وقوله لسارة : هى أختى» «٢».

قال السدى : خرج معهم إلى بعض الطريق ، فوقع فى نفسه كيده آلهتهم ، فقال : إنى سقيم أشتكى رجلى.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ أعرضوا عنه مولين الأدبار ، فَراغَ إِلى آلِهَتِهِمْ فمال إليها سرّا ، وكانت اثنتين وسبعين صنما من خشب ، وحديد ، ورصاص ، ونحاس ، وفضة ، وذهب ، وكان كبيرهم من ذهب ، فى عنقه

---

(١) من الآية ٦٣ من سورة الأنبياء.

(٢) أخرجه بنحوه البخاري فى (أحاديث الأنبياء ، باب : قول اللّه تعالى : وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْراهِيمَ خَلِيلًا ، ح ٣٣٥٨) ومسلم فى (الفضائل ، باب من فضائل إبراهيم الخليل عليه السّلام ٤/ ١٨٤٠ ح/ ٢٣٧١) من حديث أبى هريرة رضي اللّه عنه.

ياقوتتان ، فَقالَ لها ، استهزاء : أَلا تَأْكُلُونَ من الطعام الذي وضع عندكم ، ما لَكُمْ لا تَنْطِقُونَ؟.

والجمع بالواو والنون لأنه خاطبها خطاب من يعقل. فَراغَ عَلَيْهِمْ فمال إليهم سرا ، فضربهم ضَرْباً بِالْيَمِينِ أي : ضربا شديدا بالقوة لأن اليمين أقوى الجارحتين وأشدّهما ، أو : بالقوة والمتانة ، أو :

بسبب الحلف الذي سبق منه بقوله : وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنامَكُمْ «١».

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ إلى إبراهيم يَزِفُّونَ : يسرعون ، من : الزفيف ، وهو الإسراع. وكان قد رآه بعضهم يكسرها. فأخبرهم ، فلما جاء من لم يره قال لمن رآه : مَنْ فَعَلَ هذا بِآلِهَتِنا «٢» فأجابوه على سبيل التعريض : سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ «٣» ، ثم قالوا بأجمعهم : نحن نعبدها وأنت تكسرها؟ ، فأجابهم بقوله :

قالَ أَتَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ : ما تنجرونه بأيديكم من الأصنام؟ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ أي : وخلق ما تعملونه من الأصنام. أو : «ما» مصدرية ، أي : وخلق أعمالكم. وهو دليلنا فى خلق الأفعال لله تعالى ، أي : اللّه خالقكم وخالق أعمالكم ، فلم تعبدون غيره؟!.

قالُوا ابْنُوا لَهُ أي : لأجله بُنْياناً من الحجر ، طوله ثلاثون ذراعا ، وعرضه عشرون ذراعا ، فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فى النار الشديدة : وقيل : كل نار بعضها فوق بعض فهو جحيم. فبنوه وملؤوه حطبا ، وأضرموه نارا ، فَأَرادُوا بِهِ كَيْداً بإلقائه فى النار ، فَجَعَلْناهُمُ الْأَسْفَلِينَ المقهورين عند إلقائه ، حين خرج من النار سالما ، فعلاهم بالحجة والنصرة. قيل : ذكر أسفل ، هنا لمناسبة ذكر البناء ، بخلاف سورة الأنبياء «٤».

الإشارة : كلّ عبد مأمور بكسر صنمه ، وهو : ما تركن إليه نفسه من حظ ، أو هوى ، أو علم ، أو عمل ، أو حال ، أو مقام. وفى الإشارات عن اللّه تعالى : لا تركنن لشيء دوننا ، فإنه وبال عليك ، وقاتل لك ، فإن ركنت إلى العلم تتبعناه عليك ، وإن أويت إلى العمل رددناه إليك ، وإن وثقت بالحال وقفناك معه ، وإن أنست بالوجد استدرجناك فيه ، وإن لحظت إلى الخلق وكلناك إليهم ، وإن اعتززت بالمعرفة نكرناها عليك ، فأىّ حيلة لك ، وأىّ قوة معك؟

فارضنا لك ربا حتى نرضاك لنا عبدا. هـ. ولا بأس أن يتعلل لنفسه ، ويحتال عليه بحيل ، كما تعلل الخليل للقعود لكسر الأصنام ، لعلها توافقه على ترك ما تهواه وتركن إليه ، كما قال القائل «٥» :

فاحتل على النفس قربّ حيله أنفع فى النصرة من قبيله.

---

(١) الآية ٥٧ من سورة الأنبياء.

(٢) الآية ٥٩ من سورة الأنبياء.

(٣) الآية ٦٠ من سورة الأنبياء.

(٤) فى قوله تعالى : وَأَرادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْناهُمُ الْأَخْسَرِينَ الآية ٧٠.

(٥) وهو ابن البنا السرقسطي ، فى المباحث الأصلية (ص ٥٠٥).

ثم ذكر هجرة إبراهيم ، وما امتحن به ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ٩٩ الى ١١١]

وَقالَ إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَما وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ (١٠٩) كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١)

قلت : «معه» : يتعلق بمحذوف ، أي : بلغ السعى يسعى معه ، ولا يتعلق ببلغ لأنه يقتضى الاشتراك فى البلوغ ، ولا بالسعي لأن المصدر لا يتقدم عليه معموله ، إلا أن يقال : يتسع فى الظروف ما لا يتسع فى غيرها.

يقول الحق جل جلاله : وَقالَ إبراهيم : إِنِّي ذاهِبٌ إِلى رَبِّي إلى موضع أمرنى ربى بالذهاب إليه ، وهو الشام ، أو : إلى مرضاة ربى ، بامتثال أمره بالهجرة ، أو : إلى المكان الذي أتجرد فيه إلى عبادة ربى ، سَيَهْدِينِ أي : سيرشدنى إلى ما فيه صلاح دينى ، أو : إلى مقصدى ، وإنما بتّ القول لسبق وعده لأن اللّه وعده بالهداية ، أو : لفرط توكله ، أو : للبناء على عادته معه. ولم يكن كذلك حال موسى عليه السّلام حيث عبّر بما يقتضى الرجاء «١».

ثم قال : رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ بعض الصالحين ، يعيننى على الدعوة والطاعة ، ويونسى فى الغربة.

يريد الولد لأن لفظ الهبة غلب على الولد. فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ، انطوت البشارة على ثلاث : على أنّ الولد ذكر ، وأنه يبلغ أوان الحلم لأن الصبىّ لا يوصف بالحلم ، وأنه يكون حليما ، وأىّ حليم أعظم من حلمه ، حيث عرض عليه أبوه الذبح وهو مراهق ، فقال : سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ «٢» ، ثم استسلم. وقيل : ما نعت اللّه نبيا بالحلم إلا إبراهيم وابنه لمعزّة وجوده.

---

(١) حيث قال : عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ الآية ٢٢ من سورة القصص.

(٢) الآية ١٠٢ من سورة الصافات.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ أي : فلما وجد وبلغ أن يسعى مع أبيه فى أشغاله وحوائجه ، أي : الحدّ الذي يقدر على السعى مع ابنه ، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة. وقيل : سبع سنين. قالَ يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ أي : قيل له فى المنام : اذبح ابنك ، ورؤيا الأنبياء وحي ، كاليقظة. قال الكواشي : لم ير أنه يذبحه فى النوم ، ولكنه أمر فى النوم بذبحه ، بدليل قوله : افْعَلْ ما تُؤْمَرُ. وقيل : رأى أنه يعالج ذبحه ، ولم ير إراقة الدم.

وقال قتادة : رؤيا الأنبياء حق ، إذا رأوا شيئا فعلوه «١». وفى رؤيا ذلك فى النوم وتحققه إياه حتى عمل بما رأى ، إيذان بأن الأنبياء قد تجوهرت نفوسهم ، فلا مجال للكذب فيما يوحى إليهم ، وفيما يصدر عنهم ، فهم صادقون مصدّقون ، فليس للشيطان عليهم سبيل ، وإيذان بأن من كان فى منامه صادقا كان يقظته أولى بالصدق. هـ.

وإنما لم يقل : «رأيت» لأنه رأى مرة بعد أخرى ، فقد قيل : رأى ليلة التروية كأنّ قائلا يقول له : إن اللّه يأمرك بذبح ابنك هذا ، فلما أصبح روّى فى ذلك من الصباح إلى الرواح ليعلم أمن اللّه هذا الحلم ، أم لا ، فسمّى يوم التروية ، فلما أمسى رأى مثل ذلك ، فعرف أنه من اللّه ، فسمّى يوم عرفة ، ثم رأى مثله فى الليلة الثالثة ، فهم بنحره ، فسمّى يوم النحر «٢».

واختلف من المخاطب المأمور بذبحه ، فقال أهل الكتابين : هو إسحاق ، وبه قال عمر ، وعلىّ ، وابن مسعود ، والعباس ، وابنه عبد اللّه ، وكعب الأحبار ، وسعيد بن جبير ، وقتادة ، ومسروق ، وعكرمة ، والقاسم بن أبى برّة ، وعطاء ، ومقاتل ، والزهري ، والسدى. قال سعيد بن جبير : أرى إبراهيم ذبح إسحاق فى المنام ، فسار به على البراق مسيرة شهر فى غداة واحدة ، حتى أتى المنحر بمنى ، فلما صرف عنه الذبح ، وأمره أن يذبح الكبش ، وذبحه ، سار به مسيرة شهر فى روحة واحدة ، طويت له الأودية والجبال. هـ.

واحتج أهل هذا القول بأنه ليس فى القرآن أن إبراهيم بشّر بولد إلا بإسحاق ، وقال هنا : فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ فتعيّن أنه إسحاق إذ هو المبشّر به فى غير هذه الآية ، وبأن الذي كان يسعى معه فى حوائجه وأشغاله إنما هو إسحاق ، وأما إسماعيل فإنما كان بمكة غائبا عنه ، ولم يثبت فى الصحيح أن إبراهيم قدم مكة إلا ثلاث مرات وإسماعيل متزوج. وبما روى أن موسى عليه السّلام قال : يا رب الناس يقولون : إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فبم ذلك؟

فقال : إن إبراهيم لم يعدل بي شيئا قط إلا اختارني ، وإن إسحاق جاد لى بالذبح ، وهو لى بغير ذلك أجود ، وإن يعقوب كلما زدته بلاء زاد لى حسن ظن «٣». وقال يوسف للملك : أترغب أن تأكل معى ، وأنا – واللّه – يوسف بن

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٢٨) لعبد بن حميد. [.....]

(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ٤٨).

(٣) أخرجه الطبري فى تفسيره (٢٣/ ٨٢) وعزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٣٠) لابن أبى شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، والبيهقي فى الشعب ، عن عبد اللّه بن عمير.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٠

يعقوب ، نبى اللّه ، ابن إسحاق ، ذبيح اللّه ، ابن إبراهيم ، خليل اللّه «١». وبما روى أن نبينا – عليه الصلاة والسلام – سئل : أي النسب أشرف؟ فقال : «يوسف صدّيق اللّه ، ابن يعقوب إسرائيل اللّه ، ابن إسحاق ذبيح اللّه ، ابن إبراهيم خليل اللّه» «٢». وفى الجامع الصغير : «الذبيح إسحاق» رواه الدار قطنى عن ابن مسعود ، والبزار وابن مردويه عن العباس ، وأبى هريرة «٣».

وقال آخرون : هو إسماعيل ، وبه قال عمر ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة ، وسعيد من المسيب ، والشعبي ، ويوسف ابن مهران ، ومجاهد ، وابن عباس أيضا ، وغيرهم. واحتجوا بأن البشارة بإسحاق متأخرة عن قصة الذبح. وبقوله عليه السلام : «أنا ابن الذبيحين» «٤» فأحدهما : جده إسماعيل ، والآخر : أبوه ، فإن عبد المطلب نذر أن يذبح ولدا إن سهل له حفر زمزم ، أو بلغ بنوه عشرا ، فلما سهل ، أقرع بينهم ، فخرج السهم على عبد اللّه ، ففداه بمائة من الإبل ، ولذلك سنت الدية مائة. وبأن ذلك كان بمكة ، وكان قرنا الكبش معلّقين بالكعبة حتى احترقا معها فى أيام ابن الزبير ، ولم يكن إسحاق ثمة. هـ.

وقد يجاب بأن البشارة أولا كانت بولادته ، والثانية بنبوته ، أو : بسلامته. وبأن الثانية تفسير للأولى ، كأنه قال بعد ما فرغ من ذكر المبشر به : وكانت تلك البشارة بإسحاق. قاله الفاسى فى حاشيته. وعن الحديث بأن العم يطلق عليه أبا ، كقوله تعالى : نَعْبُدُ إِلهَكَ وَإِلهَ آبائِكَ إِبْراهِيمَ وَإِسْماعِيلَ وَإِسْحاقَ «٥» وكان عمّا له ، وتقدم عن ابن جبير أن إبراهيم سار بابنه على البراق إلى مكة وحيث كان الذبح بها بقي القربان فيها. واللّه تعالى أعلم بغيبه «٦».

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٨٣) عن أبى ميسرة.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٣١) للطبرانى ، وابن مردويه ، عن ابن مسعود رضي اللّه عنه.

(٣) حديث رقم (٤٣٤٩) وعبارة السيوطي : « (قط) فى الإفراد ، عن ابن مسعود ، والبزار وابن مردويه ، عن العباس بن عبد المطلب ، وابن مردويه عن أبى هريرة ، والحديث ضعّفه السيوطي.

(٤) أخرج ابن جرير (٢٣/ ٨٥) والحاكم فى المستدرك (٢/ ٥٥٤) عن الصّنابحى ، قال : كنا عند

معاوية بن أبى سفيان ، فذكروا الذبيح ، إسماعيل أو إسحاق ، فقال : على الخبير سقطتم ، كنا عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فجاءه رجل ، فقال : يا رسول اللّه عد عليّ مما أفاء اللّه عليك يا ابن الذبيحين ، فضحك عليه الصلاة والسلام ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، وما الذبيحان؟ فقال : إن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم ...» إلخ. والحديث ضعفه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٢٩).

(٥) من الآية ١٣٣ من سورة البقرة.

(٦) الصواب فى هذه المسألة : أن الذبيح هو سيدنا إسماعيل عليه السّلام ، وهذا هو المروي عن جمهرة الصحابة والتابعين – كسيدنا عليّ ، وابن عمر ، وسعيد بن المسيب ، والربيع بن أنس ، والشعبي ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم ، واستدلوا على ذلك بأدلة كثيرة ، منها :

أن اللّه تعالى لمّا ذكر قصة إبراهيم وابنه الذبيح فى هذه السورة (الصافات ، الآيات ١٠٠ – ١١١) عطف على ذلك فقال :

وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ فهذه بشارة من اللّه تعالى ، شكرا له على صبره على ما أمر به.

وهذا ظاهر جدا فى أن المبشر به غير الأول ، بل هو كالنص فيه ، وغير معقول أن يبشر بإسحاق بعد قصة يكون فيها هو الذبيح.

ولمّا قال له : إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ، فَانْظُرْ ما ذا تَرى قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ به سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ على الذبح. روى أن إبراهيم قال لابنه : انطلق بنا نقرب قربانا لله تعالى ، فأخذ سكينا وحبلا ، ثم انطلق معه ، حتى إذا ذهب بين الجبال ، قال له الغلام : يا أبت أين قربانك؟ فقال : يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى فِي الْمَنامِ ... الآية ، فقال : يا أبت خذ بناصيتي ، واجلس بين كتفى ، حتى لا أؤذيك إذا أصابتنى الشفرة ، ولا تذبحنى وأنت تنظر لوجهى لئلا ترحمنى ، واجعل وجهى إلى الأرض. وفى رواية واذبحني وأنا ساجد ، واقرأ على أمي السلام ، وإن رأيت أن تردّ قميصى إلى أمي فافعل ، عسى أن يسليها عنى. قال إبراهيم : نعم العون أنت على أمر اللّه تعالى. فربطه إبراهيم عليه السّلام ثم جعل يقبله ، وهو يبكى ، والابن يبكى ، حتى استنقعت الدموع تحت خده.

فَلَمَّا أَسْلَما أي : انقادا لأمر اللّه وخضعا. وعن قتادة : أسلم هذا ابنه ، وهذا نفسه. وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ صرعه على جنبه ، ووضع السكين على حلقه ، فلم تعمل ، ثم وضع السكين على قفاه فانقلب السكين ، ونودى :

فإن قيل : فالبشارة الثانية وقعت على نبوته ، أي : لمّا صبر الأب على ما أمر به ، وأسلم الولد لأمر اللّه ، جازاه اللّه على ذلك بأن أعطاه النبوة.

قيل : البشارة وقعت على المجموع على ذاته ووجوده ، وأن يكون نبيا ، ولهذا نصب «نبيا» على الحال المقدر ، أي : مقدرا نبوته ، فلا يمكن إخراج البشارة أن تقع على الأصل ، ثم تخص بالحال التابعة الجارية مجرى الغفلة ، هذا محال من الكلام ، بل إذا وقعت البشارة على نبوته ، فوقوعها على وجوده أولى وأحرى.

أن البشارة بإسحاق وقعت مقرونة بولادة يعقوب ، على ما هو الظاهر من قوله : فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ ، وَمِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ سورة هود/ ٧١ ، ولا يتصور أن يبشر بالولد وولد الولد دفعة ، ثم يؤمر بذبح الولد قبل ولادة ولده.

وأيضا : فلا ريب أن الذبيح كان بمكة ، ولذلك جعلت القرابين يوم النحر بها ، كما جعل السعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، تذكيرا لشأن إسماعيل وأمه ، وإقامة لذكر اللّه ، ومعلوم أن إسماعيل وأمه هما اللذان كانا بمكة ، دون إسحاق وأمه. وكان النحر بمكة من تمام حج البيت ، ولو كان الذبح بالشام – كما يزعم أهل الكتاب – لكانت القرابين والنحر بالشام ، لا بمكة.

وفى هذا الشأن نقل عن الأصمعى أنه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح ، فقال : يا أصمعى أين عقلك ، ومتى كان إسحاق بمكة؟ وإنما كان إسماعيل بمكة ، وهو الذي بنى البيت مع أبيه ، والمنحر بمكة.

أما من نقل من أخبار من أن الذبيح هو إسحاق فهو منقول عن أهل الكتاب ، وحال أهل الكتاب ، لا يخفى عل ذوى الألباب ، ونقل ابن القيم فى زاد المعاد (١/ ٧١) عن الشيخ ابن تيمية – رحمهما اللّه – قوله : هذا القول إنما هو متلقى عن أهل الكتاب ، مع أنه باطل بنص كتابهم ، فإن فيه : إن اللّه أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره ، وفى لفظ : «وحيده» ولا يشك أهل الكتاب مع المسلمين أن إسماعيل هو بكر أولاده ، والذي غرّ أصحاب هذا القول أن فى التوراة ، التي بأيديهم : اذبح ابنك إسحاق. وقال : وهذه الزيادة من تحريفهم وكذبهم ، لأنها تناقض قوله : (اذبح بكرك ووحيدك) ، ولكن اليهود حسدت بنى إسماعيل على هذا الشرف ، وأحبوا أن يكون لهم ، وأن يسوقوه إليهم ، ويختاروه لأنفسهم دون العرب ، ويأبى اللّه إلا أن يجعل فضله لأهله».

للمزيد فى هذه المسألة انظر : مفاتيح الغيب (٣/ ٢٤٧) – تفسير ابن كثير (٤/ ١٧ – ١٩) زاد المعاد لابن القيم (١/ ٧١ – ٧٥) القول الفصيح ، للسيوطى ، ضمن كتاب الحاوي (١/ ٣١٨ – ٣٢٢) – الإسرائيليات والموضوعات ، للدكتور أبى شهبة (٢٥٢ – ٢٦٠).

يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا. روى أنّ ذلك المكان عند الصخرة التي بمنى. وجواب «لما» محذوف ، أي : فلما أسلما رحما وسعدا. وقال بعض الكوفيين : الجواب : (و تله) ، والواو : زائدة. وقال الكسائي : الجواب : (و ناديناه). والواو زائدة. وقال الخليل وسيبويه : الجواب محذوف ، أي : فلما أسلما سلما. وقدّر الراضي : فلما أسلما كان من لطف اللّه مالا يوصف. هـ.

وَنادَيْناهُ أَنْ يا إِبْراهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا أي : حققت ما أمرناك به فى المنام ، من تسليم الولد للذبح ، وبالعزم والإتيان بالمقدمات ، إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ تعليل لما خوّلهما من الفرج بعد الشدة. والحاصل : أن الجزاء هو الوقاية من الذبح ، مع إمرار السكين ، ولم تقطع ، جزاء على إحسانهما ، وقد ظهرت الحكمة بصدقهما ، فإن المقصود إخلاء السر من عادة الطبيعة ، لا تحصيل الذبح ، روى أنه لما أمرّ السكين فلم تقطع ، تعجّب ، فنودى : يا إبراهيم كان المقصود من هذا استسلامكما ، لا ذبح ولدك.

إِنَّ هذا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ الاختبار البيّن ، الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. أو : المحنة البيّنة الصعبة ، فإنه لا محنة أصعب منها. وَفَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ : ضخم الجثة سمين. قال ابن عباس : هو الكبش الذي قرّبه هابيل فقبل منه ، وكان يرعى فى الجنة حتى فدى به ولد إبراهيم. وعنه : لو تمت تلك الذبيحة لصارت سنّة ، وذبح الناس أولادهم. روى أن الكبش هرب من إبراهيم عند الجمرة ، فرماه سبع حصيات ، حتى أخذه ، فبقيت سنّة فى الرمي. قلت : والجمهور : أن الشيطان تعرض له عند ذهابه لذبح ولده ، ثلاث مرات ، فرماه سبع حصات عند كل مرة ، فبقيت سنّة فى الرمي. وروى أنه لما ذبحه ، قال جبريل : اللّه أكبر ، فقال الذبيح : لا إله إلا اللّه ، واللّه أكبر ، فقال إبراهيم : اللّه أكبر وللّه الحمد ، فبقيت سنّة صبيحة العيد.

قال البيضاوي : واحتج به من جوز النسخ قبل الفعل ، فإنه عليه السّلام كان مأمورا بالذبح ، لقوله : افْعَلْ ما تُؤْمَرُ ولم يحصل. هـ. قال سيدى عبد الرحمن الفاسى فى الحاشية : ولمّا بذل إبراهيم وسعه ، وفعل ما يفعله الذابح من ضجعه على شقه ، وإمرار الشفرة على حلقه ، لم يكن هذا من النسخ قبل الفعل ، وإن كان ورود النسخ قبل الفعل جائز ، لكن هذه الآية ليست منه فى شىء لأنه عليه السّلام باشر الفعل بقدر الإمكان وبذل المجهود ، ولم يكن منه تقصير ، ولو لم يمنع مانع القدرة الإلهية لتم الذبح المأمور به ، لهذا قال تعالى : صَدَّقْتَ الرُّؤْيا. وإنما احتيج إلى الفداء لتحصيل حقيقة الذبح فيه نيابة عن المفدى شرعا ، وعلامة على غاية القبول والرضا عنهما ، وعوض عن ذلك ما هو كرامة لهما ، ولمن بعدهما إلى غابر الدهر. هـ.

وقيل : إن هذه الآية نسخ بها الأمر بالذبح قبل التمكين من الفعل ، بناء على أن إبراهيم لم يمر الآلة. وعزاه المحلى فى جمع الجوامع لمذهب أهل السنة. وعليه ينزل الفداء ، ثم قال : والحق : أن الآية

من المنسوخ قبل تمام الفعل وكماله ، لا قبل الأخذ فيه ومعالجته. ثم اعترض كلام ابن عطية ، وقال : فيه تدافع ، فانظره.

(٦١٢/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٣

وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ أي : الثناء الحسن فى الأمم الآخرين ، سَلامٌ عَلى إِبْراهِيمَ ، سبق بيانه فى نوح «١» كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، لم يقل : إنا كذلك ، هنا ، كما فى غيره لأنه قد سبق فى القصة ، فاكتفى هنا عن ذكره. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ، فيه تنويه بشأن الإيمان لأنه أساس لكل ما يبنى عليه من معرفة وإحسان.

الإشارة : قال إنى ذاهب إلى ربى بالتوجه والعزم ، سيهدين إلى صريح معرفته ، ومكافحة رؤيته ، ودوام شهوده. فالذهاب إليه يفضى إلى الذهاب فيه ، وهو غيبة العبد عن شهود نفسه ، بشهود محبوبه ، وهذه الحالة متبوعة للامتحان إذ امتحان كل عبد على قدر مقامه ، فكلما علا المقام عظم الامتحان. فامتحن الخليل بأربع محن : تسليم بدنه للنيران ، وولده للقربان ، ورمى آخر عند البيت فى يد الرحمن ، «٢» وذهاب زوجه للجبّار ، فوقع اللطف فى الجميع ، واصطفى خليلا للرحمن. وأيضا : الحق غيور ، لا يحب أن يرى فى قلب خليله أو وليّه شيئا سواه ، فأمر بذبح ولده لإخراجه من قلبه ، كما فرّق بين يوسف ووالده ، وامتحن حبيبه صلى اللّه عليه وسلم فى عائشة صدّيقته ، وهذه عادة اللّه مع أصفيائه. قال القشيري : يقال فى القصة : أنه رآه راكبا على فرس أشهب ، فاستحسنه ، ونظر إليه بقلبه ، فأمر بذبحه ، فلما أخرجه من قلبه ، واستسلم لذبحه ، ظهر الفداء. وقيل له : كان المقصود من هذا فراغ قلبك منه ، لا ذبحه. ويقال فى القصة : أنه أمر أباه أن يشدّ يديه ورجليه لئلا يضطرب إذا مسّه ألم الذبح ، فيعاتب ، ثم لمّا همّ بذبحه قال : افتح القيد عنى ، فإنى لا أتحرك ، فإنى أخشى أن أعاتب ، فيقول : أمشدود اليد جئتنى؟ وأنشدوا :

ولو بيد الحبيب سقيت سمّا لكان السّمّ من يده يطيب

قيل : إن الولد كان أشدّ بلاء ، لأنه وجد الذبح من يد أبيه ، ولم يتعوّد منه إلا التربية بالجميل ، فكان البلاء منها «٣» أشد إذ لم يتوقعه منها. وقيل : بل إبراهيم أشد بلاء لأنه كان يحتاج أن يذبح ابنه بيده ، ويعيش بعده ، ولم يأت الولد بالدعوى ، بل قال : إن شاء اللّه ، فتأدب بلفظ الاستثناء. ثم قال : ويقال : إنّ اللّه ستر عليهما ما علم أنه أريد منهما فى حال البلاء ، وإنما كشف لهما بعد مضىّ وقت المحنة ، لئلا يبطل معنى الابتلاء ، وهو توجع القلب

---

(١) راجع تفسير الآية ٧٩ من هذه السورة.
(٢) هذا على أن الذبيح هو إسحاق ، وقد مر آنفا أن الصحيح أنه سيدنا إسماعيل عليه السّلام.
(٣) أي : من اليد.

بالقهرية ، وكذلك لما ألقى فى النار أخفى عنه المراد منه ، وهو السلامة منها ليحصل معنى الابتلاء. وهكذا يكون الحال فى حال البلاء ، [ينسد عيون التهدى إلى الحال] «١». وكذلك كان حال نبينا صلى اللّه عليه وسلم فى الإفك ، وأيوب عليه السّلام ، وإنما تبين الأمر بعد ظهور أجر المحنة وزوالها ، وإلّا لم تكن حينئذ محنة ، ولكن مع استعجام الحال وانبهامه إذ لو كشف الأمر عن صاحبه لم يكن حينئذ بلاء. هـ. ملخصا.
ثم قال تعالى :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٢ الى ١١٣]
وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣)
قلت : «نبيا» : حال مقدرة من «إسحاق» ، ولا بد من تقدير مضاف محذوف ، أي : وبشرناه بوجود إسحاق نبيّا ، أي : بأن يوجد مقدرا نبوته ، فالعامل فى الحال : الوجود ، لا فعل البشارة ، قاله الكواشي وغيره.
يقول الحق جل جلاله : وَبَشَّرْناهُ أي : إبراهيم بِإِسْحاقَ بعد امتحانه ، نَبِيًّا أي : يكون نبيا.
قال قتادة : بشّره بنبوة إسحاق بعد ما امتحنه بذبحه. قالوا : ولا يجوز أن يبشّر بنبوته وذبحه معا لأن الامتحان لا يصح مع كونه عالما بأن سيكون نبيا. هـ. قلت : لا يبعد أن يبشّر بهما معا قبل المحنة لأن العارف لا يقف مع وعد ولا وعيد لاتساع علمه ، فإن الوعد قد يكون متوقفا على شروط ، قد لا يلم العبد بها ، وراجع ما تقدم عند قوله : حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا «٢» بالتخفيف ، وعند قوله : وَزُلْزِلُوا زِلْزالًا شَدِيداً «٣». ثم قال قتادة : وهذه حجة لمن يقول : إن الذبيح كان إسحاق. ومن قال : كان إسماعيل الذبيح ، قال : بشّر إبراهيم بولد يكون نبيا بعد القصة لطاعته. هـ. وذكر ابن عطية عن مالك أنه نزع بهذه الآية لكون الذبيح إسماعيل ، انظر بقية كلامه. وتقدم الجواب عنه ، فإنّ الأولى بولادته ، وهذه بنبوته. انظر الحاشية.
وقوله : مِنَ الصَّالِحِينَ : حال ثانية ، وورودها على سبيل الثناء لأن كل نبىّ لا بد أن يكون من

الصالحين.
قال ابن عرفه : الصلاح مقول بالتشكيك ، فصلاح النبي أعظم من صلاح الولي. هـ. وَبارَكْنا عَلَيْهِ وَعَلى إِسْحاقَ أي : أفضنا عليهم بركات الدين والدنيا. وقيل : باركنا على إبراهيم فى أولاده ، وعلى إسحاق بأن أخرجنا

---

(١) عبارة القشيري : (تنسد الوجوه فى الحال).
(٢) الآية ١١٠ من سورة يوسف. [.....]
(٣) الآية ١١ من سورة الأحزاب.

من صلبه ألف نبيّ ، أولهم يعقوب ، وآخرهم عيسى عليه السّلام. وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِما أي : إبراهيم وإسحاق ، وليس لإسماعيل هنا ذكر ، استغناء بذكر ترجمته فى مريم «١» ، مُحْسِنٌ مؤمن وَظالِمٌ لِنَفْسِهِ بالكفر مُبِينٌ ظاهر كفره. أو : محسن إلى الناس ، وظالم لنفسه بتعديه عن حدود الشرع.
وفيه تنبيه على أن الخبيث والطيب لا يجرى أمرهما على العرق والعنصر ، فقد يلد البرّ الفاجر ، والفاجر البرّ.
وهذا مما يهدم الطبائع والعناصر ، وتنبيه على أن الظلم فى أعقابهما لم يعد عليهما بعيب ، وأن المرء إنما يعاب بسوء فعله ، ويعاقب بما كسبت يداه ، لا على ما وجد من أصله وفرعه. قاله النسفي. قلت : قاعدة «العرق نزاع» أغلبية ، لا كلية. وقيل : هو حديث ، فيكون أغلبيا ، فالشجرة الطيبة لا تنبت فى الغالب إلا الطيب ، إلا لعارض ، والشجرة الخبيثة لا تجد فروعها إلا مثلها ، إلا لسبب. واللّه تعالى أعلم.
الإشارة : البشارة الكبيرة ، والبركة العظيمة ، إنما تقع فى الغالب بعد الامتحان الكبير ، فبقدر الامتحان يكون الامتكان ، وبقدر الجلال يعظم الجمال ، فإنّ مع العسر يسرا. فبقدر الفقر يعقب الغنى ، وبقدر الذل يعقب العز ، إن كان فى جانب اللّه. وقس على هذا .. ويسرى ذلك فى العقب ، كما هو مشاهد فى عقب الصالحين والعلماء والأولياء. وباللّه التوفيق.
ثم ذكر موسى وهارون ، فقال :
[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١١٤ الى ١٢٢]
وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلى مُوسى وَهارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْناهُمْ فَكانُوا

هُمُ الْغالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ (١١٧) وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِما فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢)

يقول الحق جل جلاله : وَلَقَدْ مَنَنَّا أنعمنا عَلى مُوسى وَهارُونَ بالنبوة وغيرها من المنافع الدينية والدنيوية ، وَنَجَّيْناهُما وَقَوْمَهُما بنى إسرائيل ، مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ من الغرق والدهش الذي

---

(١) فى قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولًا نَبِيًّا ، وَكانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ وَكانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا الآيتان : ٥٤ – ٥٥.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٦

أصابهم ، حين طلعت خيل فرعون عليهم ، أو : من سلطان فرعون وقومه وعنتهم. وَنَصَرْناهُمْ أي : موسى وهارون وقومهما ، فَكانُوا هُمُ الْغالِبِينَ على فرعون وقومه. وَآتَيْناهُمَا الْكِتابَ الْمُسْتَبِينَ البليغ فى بيانه ، وهو التوراة ، وَهَدَيْناهُمَا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيمَ صراط أهل الإسلام ، وهو الطريق الذي يوصل إلى الحق ، وَتَرَكْنا عَلَيْهِما الثناء الحسن فِي الْآخِرِينَ الآيتين بعدهما ، سَلامٌ عَلى مُوسى وَهارُونَ ، إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ، إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ الكاملين فى الإيمان.

الإشارة : منّ عليهما أولا بالخصوصية ، ثم امتحنهما عليها بالكرب العظيم ، كما هى عادته فى أهل الخصوصية ، ثم منّ عليهم بالفرج والنصر والعز ، ثم هداهما إلى طريق السير إليه ، فى الظاهر والباطن ، بإنزال الكتاب ، وبيان طريق الرشد والصواب ، فالطريق المستقيم هى طريق الوصول إلى الحضرة ، وشهود عين التوحيد الخاص ، ثم ينشر الصيت والذكر الحسن فى الحياة والممات. واللّه تعالى أعلم.

ثم ذكر إلياس ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٢٣ الى ١٣٢]

وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ (١٢٤) أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ (١٢٥) اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٢٧) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ (١٣٠) إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، وهو إلياس بن ياسين بن العيزار ، من سبط هارون عليه السّلام. قال ابن إسحاق : لمّا قبض اللّه حزقيل النبي ، عظمت الأحداث فى بنى إسرائيل ، ونسوا

عهد اللّه ، وعبدوا الأوثان ، فبعث اللّه إلياس «١» ، وبنو إسرائيل حينئذ متفرقون فى أرض الشام ، وفيهم ملوك كثيرة. وذلك أن يوشع لمّا فتح الشام بعد موسى عليه السّلام وملكها ، بوأها بنى إسرائيل ، وقسمها بينهم ، وأحلّ سبطا منهم ببعلبك ونواحيها. ومنهم السبط الذي نشأ منهم إلياس. انظر الثعلبي.

وقيل : إلياس هو إدريس. وقرأ ابن مسعود – رضى اللّه عنه – : «وإن إدريس» موضع إلياس.

والمشهور ما تقدم.

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ٩٢) عن ابن إسحاق ، عن وهب بن منبه.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٧

إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ألا تخافون اللّه ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا ، هو علم لصنم ، كان من ذهب ، وكان طوله عشرين ذراعا ، وكان له أربعة أوجه ، فافتتنوا به وعظّموه ، حتى أخدموه أربعمائة سادن ، وجعلوهم أنبياءه.

وكان الشيطان يوسوس إليهم شريعة من الضلالة ، وكان موضعهم يسمى «بك» فركب معه وصار «بعلبكّ» ، وهو من بلاد الشام ، قلت : ويسمونه اليوم عكا ، وفيه قبر صالح عليه السّلام ، وقيل : إن إلياس والخضر حيان ، يلتقيان كل سنة بالموسم «١» ، فيأخذ كل واحد من شعر صاحبه. قيل : إن إلياس وكّل بالفيافي ، والخضر وكّل بالبحار. وقيل : إن اللّه قطع عنه لذة المطعم والمشرب ، وأليس الريش ، وطار مع الملائكة ، فصار إنسيا ملكيا ، أرضيا سماويا. فهو مازال حيا. فاللّه أعلم.

ثم قال : وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ أي : تعبدون صنما جامدا ، وتتركون عبادة اللّه الذي هو أحسن الخالقين.

اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ «٢». من نصب الثلاثة فبدل ، ومن رفعها فمبتدأ وخبر. فَكَذَّبُوهُ فسلط اللّه عليهم ، بعد رفعه ، أو موته ، عدوا ، فقتل ملكهم وكثيرا منهم ، فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ فى النار ، وإنما أطلقه اكتفاء بالقرينة ، أو : لأن الإحضار المطلق مخصوص بالشر. إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ من قومه ، فإنهم ناجون من حضور العذاب ، وَتَرَكْنا عَلَيْهِ الثناء الحسن فِي الْآخِرِينَ. سَلامٌ عَلى إِلْ ياسِينَ «٣» ، وهو إلياس وأهله لأن «ياسين» اسم أبيه. وقرأ أكثر القراء : إلياسين ، بكسر الهمزة ووصل اللام ، أي : إلياس وقومه المؤمنين ، كقولهم : الخبيبون والمهلّبون ، يعنون عبد اللّه بن الزبير وقومه. والمهلّب وأتباعه. إِنَّا كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا الْمُؤْمِنِينَ وقيل : آل ياسين هو نبينا محمد صلى اللّه عليه وسلم وأهله ، والسياق يأباه.

الإشارة : يؤخذ من قوله تعالى : أَلا تَتَّقُونَ ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا .. إلخ ، أن مدار التقوى هو توحيد اللّه ، والانحياش إليه ، والبعد عن كل ما سواه ، والرجوع إلى اللّه فى كل شىء ، والاعتماد عليه فى كل حال. ويؤخذ من قوله : سلام على آل ياسين فى قراءة المد ، أن الرجل الصالح ينتفع به أهله وأقاربه ، وهو كذلك فإن عظم صلاحه تعدت منفعته إلى جيرانه وقبيلته ، فإذا كبر جاهه شفع فى الوجود بأسره.

---

(١) عزاه فى الدر المنثور (٥/ ٥٣٧) لابن عساكر ، عن ابن شوذب ، والحسن.

(٢) قرأ حفص ، وحمزة ، والكسائي بنصب الأسماء الثلاثة ، وقرأ الباقون بالرفع. انظر الحجة للفارسى (٦/ ٦٣).

(٣) قرأ نافع ، وابن عامر ، ويعقوب : (آل ياسين) بفتح الهمزة ، مشبعة ، وكسر اللام ، مفصولة عما بعدها ، والمراد : ولد ياسين وأصحابه ، قرأ الباقون «على إلياسين ، بكسر الهمزة ، وسكون اللام ، موصولة بما بعدها ، كلمة واحدة ، جمع «إلياس». انظر الإتحاف (٢/ ٤١٦).

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٨

ثم ذكر لوطا عليه السّلام ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٣٣ الى ١٣٨]

وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧)

وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ، إِذْ نَجَّيْناهُ أي : واذكر إذ نجيناه وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ، إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ فى الباقين لأنها شاركتهم فى عصيانهم ، فحقّ عليهم العذاب مثل ما حق عليهم ، ثُمَّ دَمَّرْنَا

: أهلكنا الْآخَرِينَ ،

وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ

داخلين فى الصباح ، وَبِاللَّيْلِ

أي : ومساء ، أو : نهارا وليلا. ولعل مدينتهم الخالية كانت قريب منزل ينزل به المسافر ، فيغدوا منه ذهابا ، ويروح إليه إيابا ، فكانت قريش تنزل به وتروح عنه فى متاجرهم إلى الشام ، فتشاهد آثارهم والدارسة ، وديارهم الخالية.

أَفَلا تَعْقِلُونَ

أفما فيكم عقول تعتبرون بها؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام ، كما ختم قصص من قبلهما لأن اللّه تعالى قد سلّم على جميع المرسلين فى آخر السورة ، أو : تفرقة بينهما وبين أرباب الشرائع ، من أولى العزم.

الإشارة : ينبغى لمن له عقل إذا مرّ بآثار من سلف قبله أن يعتبر ، وينظر كيف كان حالهم ، وإلى ما صار إليه مآلهم ، وأنه عن قريب لا حق بهم ، فيتأهب للسفر ، ويتزود للمسير. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر قصة يونس ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٣٩ الى ١٤٨]

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْناهُ بِالْعَراءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (١٤٨)

(٦١٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦١٩

يقول الحق جل جلاله : وَإِنَّ يُونُسَ

بن متى ، اسم أبيه ، لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ

إلى أهل نينوى ، فكذّبوه ، فوعدهم بالعذاب ، فلما رأى أمارات العذاب هرب عنهم ، وهى معنى قوله : إِذْ أَبَقَ

هرب. والإباق : الهرب إلى حيث لا يهتدى إليه الطلب ، فسمى هربه من قومه – بغير إذن ربه – إباقا ، مجازا. روى أنه لمّا فرّ عنهم ، وقف فى مكان ينتظر نزول العذاب بهم ، وكان يحب ذلك لتكذيبهم إياه ، فلما رأوا مخايل العذاب تابوا وخرجوا إلى الصحراء ، يجأرون إلى اللّه تعالى ، فكشف عنهم ، فلما رأى يونس العذاب انكشف عنهم ، كره أن يرجع إليهم ، فركب البحر ، فأوى إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

: المملوء بالناس والمتاع ، فلما ركب معهم وقفت السفينة ، فقالوا :

هاهنا عبد آبق من سيده. وفيما يزعم أهل البحر : أن السفينة إذا كان فيها آبق لم تجر ، فاقترعوا ، فخرجت القرعة على يونس ، فقال : أنا الآبق ، وزجّ بنفسه فى البحر ، فذلك قوله : فَساهَمَ : فقارعهم مرة – أو ثلاثا – بالسهام ، فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

المغلوبين بالقرعة. فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ فابتلعه وَهُوَ مُلِيمٌ داخل فى الملامة ، أو : آت بما يلام عليه ، ولم يلم فإذا ليم كان مألوما.

فَلَوْ لا أَنَّهُ كانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ من الذاكرين كثيرا بالتسبيح ، أو : من القائلين : لا إِلهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ «١» أو : من المصلين قبل ذلك قال ابن عباس رضي اللّه عنه : كل تسبيح فى القرآن فهو صلاة. قال الحسن : ما كان له صلاة فى بطن الحوت ، ولكنه قدّم عملا صالحا فنجّاه ، وإنّ العمل الصالح يرفع صاحبه ، إذا عثر وجد متكئا. هـ «٢». أي : فلو لا طاعته قبل ذلك لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قيل : للبث حيّا إلى يوم البعث.

وعن قتادة : لكان بطن الحوت قبرا له إلى يوم القيامة. وقد لبث فى بطنه ثلاثة أيام ، أو : سبعة أو : أربعين يوما.

وعن الشعبي : التقمه ضحوة ، ولفظه عشية. قيل : أوحى اللّه تعالى إل الحوت : إنى جعلت بطنك ليونس سجنا – وفى رواية : مسجدا – ولم أجعله لك طعاما «٣». هـ.

فَنَبَذْناهُ أي : أخرجناه بِالْعَراءِ بالمكان الخالي ، لا شجر فيه ولا نبات. أو : بالفضاء ، وَهُوَ سَقِيمٌ عليل مطبوخ ، مما ناله من بطن الحوت. قيل : إنه عاد بدنه كبدن الصبى حين يولد. وَأَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً أي : أنبتناها فوقه ، مظلة له ، كما يظلّب البيت على الإنسان ، مِنْ يَقْطِينٍ ، الجمهور على أنه القرع ،

---

(١) الآية ٨٧ من سورة الأنبياء.

(٢) انظر : تفسير البغوي (٧/ ٦٠).

(٣) قال الحافظ ابن حجر : «لم أجده». وذكره الزيلعى فى تخريج أحاديث الكشاف (٥٣٥) وعزاه لابن مردويه ، عن ابن مسعود ، فى قصة يونس. وانظر الفتح السماوي (٣/ ٩٥٧).

وفائدته : أن الذباب لا تجتمع عنده ، وأنه أسرع الأشجار نباتا ، وامتدادا ، وارتفاعا ، وأن ورقه باطنها رطبة. وقيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إنك لتحب القرع ، فقال : «أجل ، هى شجرة أخى يونس» «١» ، قلت : ولعلها النوع الذي يسمى اليوم «السلاوى» لأنه هو الذي ورقه لينة ، وفيه منافع. روى أن ظبية كانت تختلف إليه ، فيشرب من لبنها بكرة وعشية ، حتى نبت لحمه ، وأرسل اللّه تعالى على اليقطين دابة تقرض ورقها ، فتساقطت حتى أذته الشمس ، فشكاها إلى اللّه تعالى. وفى رواية : فحزن عليها ، فقيل له : أنت الذي لم تخلق ، ولم تسق ، ولم تنبت ، تحزن عليها وأنا الذي خلقت

مائة ألف من الناس أو يزيدون تريد منى أن أستأصلهم فى ساعة واحدة ، وقد تابوا ، وتبت عليهم ، فأين رحمتى يا يونس ، أنا أرحم الراحمين «٢». هـ.

وَأَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ ، المراد به القوم الذين بعث إليهم قبل الالتقام ، فتكون «قد» مضمرة ، أَوْ يَزِيدُونَ فى مرأى الناظر ، أي : إذا رأها الرائي قال : هى مائة ألف أو أكثر. وقال الزجّاج : «أو» بمعنى «بل». وقيل : بمعنى الواو. قال ابن عباس : زادوا على مائة ألف عشرين ألفا. وقال الحسن : بضعا وثلاثين ألفا.

وقال ابن جبير : سبعين ألفا. وقيل : وأرسلناه بعد الالتقام إلى مائة ألف. وقيل : قوما آخرين. فَآمَنُوا به ، وبما أرسل به ، فَمَتَّعْناهُمْ بالحياة إِلى حِينٍ منتهى أجلهم ، ولم يعاجلوا ، حيث تابوا وآمنوا.

الإشارة : فى قصة يونس نكتة صوفية ، ينبغى الاعتناء بها ، وهو أن العبد إذا زلّت قدمه ، وانحط عن منهاج الاستقامة ، لا ييأس ولا يضعف عن التوجه ، بل يلزم قرع الباب ، ويتذكر ما سلف له من صالح الأعمال ، فإن اللّه تعالى يرعى ذمام عبده ، كما يرعى العبد ذمام سيده ، وفى حال البعد والغضب يظهر المحب الصادق من الكذّاب ، وفى ذلك يقول ابن وفا رضي اللّه عنه :

ونحن على العهد نرعى الذمام وعهد المحبين لا ينقضى
صددت فكنت مليح الصدود وأعرضت أفديك من معرض
وفى حالة السخط لا فى الرضا بيان المحب من المبغض.

---

(١) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٤٤) لعبد بن حميد ، وابن جرير ، عن شهر بن حوشب.

(٢) عزاه السيوطي فى الدر (٥/ ٥٤٤ - ٥٤٦) لعبد الرزاق ، وأحمد فى الزهد ، وعبد بن حميد ، عن وهب.

وفيها أيضا : الحث على الشفقة على عباد اللّه ، وإن كانوا عصاة. قال القشيري : وفى القصة : أن اللّه تعالى أوحى إلى يونس بعد نجاته : قل لفلان الفخّار : يكسر من الجرات ما عمله فى هذه السنة كلّها ، فقال يونس : يا ربّ ، إنه تعنى مدة فى إنجاز ذلك ، فكيف آمره أن يكسرها كلّها؟ فقال له : يا يونس ، يرقّ قلبك لخزاف يتلف عمل سنة ، وأردت أن أهلك مائة ألف من عبادى؟ لم تخلقهم ، ولو خلقتهم لرحمتهم. هـ.

ثم وبّخ قريشا على قولهم : الملائكة بنات اللّه - بعد ذكر هلاك من كفر من الأمم قبلهم ، تهديدا ،

فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٤٩ الى ١٦٠]

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ (١٥٠) أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَباً وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلاَّ عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠)

يقول الحق جل جلاله : فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَناتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ، أمر رسوله أولا فى أول السورة باستفتاء قريش على وجه إنكار البعث ، بقوله : فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقاً «١» ، ثم أمره هنا باستفتائهم [عن] «٢» وجه القسمة الضّيزى التي قسموها ، بأن جعلوا لله الإناث ، ولهم الذكور فى قولهم : الملائكة بنات اللّه ، مع كراهتهم لهن ، واستنكافهم من ذكرهن ، وليس من باب العطف النحوي ، خلافا للزمخشرى.

أَمْ خَلَقْنَا الْمَلائِكَةَ إِناثاً وَهُمْ شاهِدُونَ حاضرون حتى تحققوا أنهم إناث. وتخصيص علمهم بالمشاهدة استهزاء بهم ، وتجهيل لهم ، لأنهم كما لم يعلموا ذلك مشاهدة ، لم يعلموه بخلق اللّه علمه فى قلوبهم ، ولا بإخبار صادق ، ولا بطريق استدلال ونظر ، بل بمجرد ظن وتخمين ، وإلقاء الشيطان إليهم. أو : معناه : أنهم يقولون ذلك عن طمأنينة نفس لإفراط جهلهم ، كأنهم شاهدوا خلقهم.

---

(١) الآية ١١ من سورة الصافات.

(٢) فى الأصول [على].

أَلا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ فى قولهم. أَصْطَفَى الْبَناتِ عَلَى الْبَنِينَ ، الهمزة للاستفهام الإنكارى ، وحذفت همزة الوصل استغناء عنها بهمزة الاستفهام ، والاصطفاء : أخذ صفوة الشيء ، ما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ هذا الحكم الفاسد ، الذي لا يرتضيه عقل ولا نقل ، أَفَلا تَذَكَّرُونَ فتعرفوا أنه منزّه عن ذلك أَمْ لَكُمْ سُلْطانٌ مُبِينٌ حجة واضحة نزلت عليكم من السماء بأن الملائكة بنات اللّه؟ فَأْتُوا بِكِتابِكُمْ

الذي أنزل عليكم ، إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ

فى دعواكم.

وَجَعَلُوا بَيْنَهُ بين اللّه وَبَيْنَ الْجِنَّةِ الملائكة – لاستتارهم ، نَسَباً وهو زعمهم أنهم بنات اللّه.

أو : قالوا : إن اللّه صاهر الجن ، تزوج سرواتهم فولدت له الملائكة «١» ، تعالى اللّه عن قولهم علوا كبيرا. وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ أي : ولقد علمت الملائكة إن الذين قالوا هذا القول لمحضرون فى النار. أو : لقد علمت الملائكة إنهم سيحضرون للحساب من جملة العباد ، فكيف تكون بنات اللّه؟. سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ، نزّه نفسه عما يصفه الكفرة من الولد والصاحبة ، إِلَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ، استثناء منقطع من «المحضرين» ، أي : لكن المخلصون ناجون من النار. و«سبحان اللّه» : اعتراض بين الاستثناء وبين ما وقع منه ، ويجوز أن يقع الاستثناء من واو «يصفون» ، أي : عما يصفه هؤلاء الكفرة لكن المخلصون برءاء من أن يصفوه بذلك.

الإشارة : الحق تعالى فى عالم القدرة منزه عن الولد والصاحبة ، وتصور الاثنينية ، وإنما سر الازدواج والتولد خاص بعالم الحكمة فى حضرة الأشباح ، فليكن للعارف عينان عين تنظر لعالم القدرة فى حضرة أسرار الذات ، فتوحّد اللّه ، وتنزهه عن الاثنينية ، وعين تنظر لعالم الحكمة ، فتثبت سر الازدواج والتولد فى حضرة الأشباح ، والمظهر واحد ، ولا يفهم هذا إلا الأفراد من البحرية ، الذين خاضوا بحر أحدية الذات وتيار الصفات ، فحطّ رأسك لهم ، إن أردت أن تذوق هذه الأسرار. وإلا فسلم تسلم.

ثم بيّن أنّ الأمور كلها بيد اللّه ، هداية وإضلالا ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٦١ الى ١٦٣]

فَإِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ (١٦١) ما أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفاتِنِينَ (١٦٢) إِلاَّ مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ (١٦٣)

---

(١) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٠٨). [.....]

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٢٣

يقول الحق جل جلاله : فَإِنَّكُمْ أيها المشركون وَما تَعْبُدُونَ أي : ومعبوديكم ، ما أَنْتُمْ وهم جميعا عَلَيْهِ على اللّه بِفاتِنِينَ بمضلّين ، إِلَّا مَنْ هُوَ صالِ الْجَحِيمِ أي : إلا من سبق فى علمه أنه من أهل النار. والمعنى : إنكم لستم تضلّون أحدا إلا أصحاب النار ، الذين سبق فى علمه أنهم يستوجبون بأعمالهم النار ، يقال : فتن فلان على فلان امرأته : أفسدها عليه. وقال الحسن : فإنكم أيها القائلون لهذا القول والذي تعبدونه من الأصنام ، ما أنتم على عبادة الأصنام بمضلّين أحدا ، إلا من أوجبت عليه

الضلال فى السابقة. هـ. وفيها دليل للقدر ، بل هى صريحة فيه. و«ما» فى «أنتم» : نافية ، و«من» : فى موضع النصب بفاتنين ، على الاستثناء المفرغ ، أي : لا تفتنون إلا الذي هو صالى الجحيم.

وحذفت الياء فى الرسم اكتفاء بالكسرة ، وقرأ الحسن : «صال الجحيم» بضم اللام – ووجهه : أنه جمع ، فحذفت النون للإضافة. والواو لالتقاء الساكنين ، و«من» مفرد فى اللفظ ، جمع فى المعنى ، فحمل «هو» على اللفظ ، و«الصالون» على المعنى.

الإشارة : ويقال لمن يرغّب الناس فى الدنيا ، ويدلهم على جمعها ، والاعتناء بها ، بمقاله ، أو بحاله ، ويزهّد فى طريق التجريد والانقطاع إلى اللّه : ما أنتم بفاتنين أحدا عن طريق اللّه ، إلا من سبق أنه يصلى نار القطيعة والبعد ، وأما من سبقت له سابقة الوصال ، فلا يصده عن اللّه فاتن ولا ضال. ولا شك أن من يدلّ الناس على الدنيا فقد غشهم. قال القطب ابن مشيش رضي اللّه عنه : من دلّك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلّك على العمل فقد أتبعك ، ومن دلك على اللّه فقد نصحك. هـ. فالدلالة على الدنيا من شأن المغرورين ، ورين الفاتنين ، والدلالة على العمل من شأن الصالحين ، الواقفين مع ظاهر الشريعة وعملها ، والدلالة على اللّه من شأن العارفين أهل التربية ، يدلون على اللّه ، بسقى الكؤوس ، ونسيان النفوس ، ودخول حضرة القدوس ، من باب الكرم والجود. وباللّه التوفيق.

ثم رجع إلى الكلام على الملائكة ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٦٤ الى ١٦٦]

وَما مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦)

يقول الحق جل جلاله : حاكيا عن الملائكة : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ فى العبادة ، أو : فى السموات ، نعبد اللّه فيه ، أو : فى القرب والمشاهدة لا نتعداه ، ولا نترقى عنه إلى غيره ، ففيه تنبيه واعتراف بافتقارهم لمخصصهم ، القاضي بحدوثهم. وفى اعترافهم بذلك ردّ على زعم الكفار أنهم بنات اللّه ، أو شركاء له ، وتنزيه له تعالى عن ذلك لتنافى العبودية والطاعة التي اعترفوا بها ، والبنوة المدّعاة من الكفار ، تعالى اللّه عن قولهم. وهذا

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٢٤

يجرى أيضا فى القول الذي يقول : إنهم قسم ثالث ، مجردات ، ليسوا بجوهر ولا عرض ، كالأرواح ، فإنها على تقدير كونها كذلك ، جائزة لقبولها التفاوت فى العلوم والمعارف وغير ذلك. وذلك قاض بالافتقار ، والتخصيص لما هى عليه ، المستلزم للحدوث. قاله فى الحاشية.

قلت : القول بأن الملائكة مجردات عن المادة ، هو قول الفلاسفة ، ونحى إليه الغزالي. وهو مناقض

للقرآن والحديث لأن كونهم صفوفا قائمين ، أو ساجدين ، أو سائرين ، يقتضى تشكيلهم وتحييزهم ، فيستلزم المادة إلا أنها نورانية لطيفة ، وكذلك الأرواح ، على ما فى الأحاديث ، فإنها متحيزة على أشكال لطيفة. والله أعلم.

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ نصفّ أقدامنا فى الصلاة ، أو : نصفّ حول العرش داعين للمؤمنين ، وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ المنزّهون اللّه تعالى عما نسبته إليه الكفرة ، من الولد ، وغير ذلك من الأباطيل المذكورة. أو :

المشتغلون بالتسبيح على الدوام ، أو : المصلّون. ويحتمل أن يكون هذا وما قبله من قوله : سُبْحانَ اللَّهِ .... إلخ ، من كلام الملائكة ، حتى يتصل بذكرهم «١» ، كأنه قيل : ولقد علم الملائكة أن المشركين محضرون للعذاب على افترائهم على اللّه فيما نسبوا إليه ، وقالوا : سبحان اللّه ، ونزّهوه عن ذلك ، واستثنوا عباد اللّه المخلصين ، وبرّؤوهم من ذلك ، وقالوا للكفرة : وإذا صح ذلك فإنكم وآلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا على اللّه أحدا من خلقه ، وتضلّوه ، إلّا من كان من أهل النار ، وكيف نكون مناسبين لرب العزة! وما نحن إلا عبيد أذلاء بين يديه ، لكلّ منا مقام من الطاعة معلوم ، لا يستطيع أن يزلّ عنه ، ونحن نصفّ أقدامنا لعبادته ، مسبّحين بحمده ، كما يجب على العباد. ولعل قولهم : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ إشارة إلى تفاوتهم فى درجات القرب ومقامات اليقين. وقولهم : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ إشارة إلى تفاوتهم فى الطاعات والعبادات ، وهم طبقات منهم هائمون مستغرقون فى الشهود ، ومنهم مستغرقون فى مقام الهيبة والمراقبة ، ومنهم مستغرقون فى الخدمة والعبادة. واللّه تعالى أعلم.

الإشارة : مادة الآدمي أكمل من مادة الملائكة ، فإذا اتصل العبد بشيخ كامل ، واعتنى بتصفية روحه وسره ، طوى نوره الوجود بأسره ، ولا يزال يترقى فى معاريج أسرار التوحيد والتفريد ، وتتوارد عليه الكشوفات ، والعلوم ، والأسرار ، فى هذه الدار الفانية ، وفى تلك الدار الباقية ، أبدا سرمدا ، بخلاف الملائكة ، فإنّ لكل واحد مقاما معلوما لايتعداه ، كما أخبر تعالى.

وسرّ ذلك : أن الآدمي فيه بشرية وروحانية ، فكلما جاهد نفسه ، وغاب عن حس بشريته ترقى فى معارج التوحيد ، والمجاهدة لا تنقطع عنه فى هذا الدار لأنها دار أكدار ، فلا ينقطع عنه الترقي فى المشاهدة ، وأما فى تلك

---

(١) فى قوله : وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ.

الدار فالترقى فيها من باب الكرم والإثابة على ما هنا. وأيضا : البشرية للآدمى بمنزلة الطلاء للمرآة ، فالمرآة بلا طلاء لا ترى فيها صور الأشياء ، كذلك الملائكة لا بشرية لهم ، فلا تنكشف لهم الحقائق كما تنكشف للآدمى ، ولو كشف لهم ما انكشف له لذابوا. واللّه أعلم.

قال فى القوت : لعمرى إن سائر الملائكة لا ينتقلون فى المقامات كترقى المؤمنين ، إنما لكلّ مقام معلوم ، لا ينتقل إلى غيره ، إلا أنهم يمدّون من ذلك بمدد لا نهاية له إلى يوم القيامة ، بأكثر ما يزداد جملة البشر هـ.

قلت : ومعنى كلامه : أن الملائكة يمدون فى مقامهم بقوة لا يستطيعها البشر ، فمن كان فى مقام الهيبة دام فيها ، وقوى عليها ، ومن كان فى مقام الخدمة ، دام عليها ، وقوى عليها ، قوة لا يطيقها البشر ، ولا يترقى عنها ، بخلاف الآدمي ، فليست فيه هذه القوة ، لكنه يترقى من مقام إلى مقام ، ويترقى فى المعارف على الدوام.

ثم بسط صاحب القوت فى ذلك الكلام فى فضائل الصلاة ، وأنها جامعة لما فرق على الملائكة من الأعمال والأذكار. قال : وبذلك فضل المؤمنون الملائكة ، وكذلك فضل الموقن أيضا فى مقامات اليقين من أعمال القلوب ، على الأملاك بالتنقيل بأن جمعت فيه ، ورفع فيها مقامات ، والملائكة لا ينقلون ، بل كل ملك موقوف فى مقام معلوم ، لا ينقل منه إلى غيره ، وإنما له المزيد من المقام الواحد على قدر قواه ، وجمع ذلك كله فى قلب المؤمن ، ونقل فيه مقامات. وكان له من كل مقام مشاهدات. هـ.

قال المحشى الفاسى : وفيه نظر ، مع تلقيهم ضروب الوحى الجامع للمقامات ، فكيف لا يمكّنهم تحققا بها على اختلافها؟ ، ولو كان كما قال لكان كل ملك إنما يتلقى من الوحى ما يناسبه ، ويختص بمقامه ، وليس الأمر كذلك ضرورة. هـ. قلت : وفى نظره نظر إذ لا يلزم من تلقيهم للوحى على أنواعه أن يترقوا به إذ ليس الترقي هو مجرد العلم ، بل الترقي إنما هو أذواق ووجدان ، وكشوفات بعد حصول العلم. وقد يتحقق العلم بالمقام ، ولا ينتقل عنه إلى غيره ، بل قد يعلمه ولا يذوقه ، كما هو محقق عند أهل الفن ، ثم قال : والحق ما نبّه عليه البيضاوي. وكلام القوت ينظر لقول الحكماء ، ومثله كلام الإحياء. هـ.

ونص البيضاوي فى قوله تعالى : قالَ يا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمائِهِمْ «١» الآية : إنّ علوم الملائكة وكمالاتهم تقبل الزيادة ، والحكماء منعوا ذلك فى الطبقات العليا منهم ، وحملوا عليه قوله تعالى : وَما مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ.

هـ. قلت : ترقى الآدمي هو انتقاله من مقام إلى مقام ، حتى يكاشف بأسرار الذات وأنوار الصفات ، ثم لا يزال يترقى

(١) الآية ٣٣ من سورة البقرة.

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٢٦

فى الأذواق والكشوفات ، يتجدد له فى كل يوم وساعة ، حلاوة وكشف لم تكن عنده قبل ، بخلاف الملائكة ، فإنما يترقى كل واحد فى كشف أسرار مقامه ، ويجد حلاوة فى ذلك المقام لم تكن له قبل ، ولا ينتقل عنه ، فمن كان من أهل الخدمة زاده اللّه حلاوتها. ومن كان من أهل المراقبة فكذلك. ومن كان من أهل المشاهدة غلب عليه السكر و؟؟؟ ان ، ولا يزيد على ذلك. وهم الطبقة العليا ، فلا منافاة بين كلام القوت وكلام البيضاوي لأن الترقي إنما هو فى الأذواق والكشوفات ، لا فى العلوم الغيبية ، ولا فى الكمالات النفسية. فتأمله.

وقال القشيري : الملائكة لا يتخطون مقامهم ، ولا يتعدّون حدّهم ، والأولياء مقامهم مستور بينهم وبين اللّه ، لا يطلع عليه أحد ، والأنبياء – عليهم السّلام – لهم مقام مشهور ، مؤيّد بالمعجزات الظاهرة لأنهم للخلق قدوة ، فأمرهم على الشهرة ، وأمر الأولياء على السّتر. هـ. وقال الورتجبي : أهل البدايات فى مقام الطاعات ، والأوساط فى المقامات ، مثل التوكل والرضا ، والتسليم ، والمحبّون فى مقامات الحالات والمواجيد ، وأهل المعرفة فى مقام معارف ، ينقلون فى المشاهدة من مقام إلى مقام ، ولا يبقى المقام للموحدين ، فإنهم مستغرقون فى بحار الذات والصفات ، فليس لهم مقام معلوم لأن هناك لم يكن لهم وقوف ، حيث أفناهم قهر الجلال ، والجمال ، والعظمة ، والكبرياء ، عن كل ما وجدوا من الحق ، فيبقوا فى الفناء إلى الأبد. هـ. قلت : ما ذكر من الطبقات الثلاث هم العباد ، والزهاد ، وأرباب الأحوال ، وحالهم كحال الملائكة ، يمدّون فى مقامهم ، ولا ينتقلون منه ، فلكل واحدة قوة فى مقامه ، لا يطيقها العارف ، لكنه فاتهم بالترقي عنهم إلى مشاهدة الذات ، والترقي فيها أبدا.

ثم قال الورتجبي فى قوله تعالى : وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ : لمّا كانوا من أهل المقامات المعلومات افتخروا بمقاماتهم فى العبودية ، من الصلاة والتسبيح ، ولو كانوا من أهل الحقائق فى المعرفة لفنوا عن ملاحظة طاعتهم ، من استيلاء أنوار مشاهدة الحق عليهم ، والاستغراق فى بحار من الألوهية. قال بعضهم : لذلك قطعت بهم مقاماتهم عن ملاحظة المنّة ، حتى قالوا بالتفخيم : إِنَّا لَنَحْنُ ، فلما أظهروا سرائرهم عارضوا إظهار أفعال الربوبية بالمعارضة ، حتى قالوا : أَتَجْعَلُ فِيها مَنْ يُفْسِدُ فِيها. هـ. وكلامنا كله مع عامة الملائكة ، وأما المقربون فالأدب الإمساك عنهم – صلوات اللّه وسلامه عليهم.

ثم رجع إلى الكلام مع قريش ، فقال :

[سورة الصافات (٣٧) : الآيات ١٦٧ الى ١٨٢]

وَإِنْ كانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذا نَزَلَ بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (١٨٢)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٢٧

يقول الحق جل جلاله : وَإِنْ كانُوا أي : مشركو قريش لَيَقُولُونَ قبل مبعثه صلى اللّه عليه وسلم : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ أي : كتابا من كتب الأولين ، الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل ، لَكُنَّا عِبادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ أي : لأخلصنا للّه ، وما كذّبنا كما كذّبوا ، ولما خالفنا كما خالفوا ، فلما جاءهم الذكر الذي هو سيد الأذكار ، والكتاب الذي هو مهيمن على الكتب ، فكفروا به ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ عاقبة تكذيبهم ، وما يحلّ بهم من الانتقام. و«إن» مخففة ، واللام فارقة. وفى ذلك أنهم كانوا يقولون ، مؤكّدين للقول ، جادّين فيه ، ثم نقضوا بأشنع نقض ، فكم بين أول الأمر وآخره!.

ثم بشّر رسوله بالنصر والعز ، فقال : وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ أي : وعدناهم بالنصر والغلبة.

والكلمة هى قوله : إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ دون غيرهم ، إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ

،

وإنما سمّاها كلمة ، وهى كلمات لأنها لمّا انتظمت فى معنى واحد كانت فى حكم كلمة مفردة ، والمراد : الوعد بعلوّهم على عدوهم فى مقام الاحتجاج وملاحم القتال فى الدنيا ، وعلوهم عليهم فى الآخرة. وعن الحسن : ما غلب نبىّ فى حرب قط.

وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : إن لم ينتصروا فى الدنيا نصروا فى العقبى. والحاصل : أن قاعدة أمرهم ، وأساسه ، والغالب منه : الظفر والنصر ، وإن وقع فى تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء والمحنة فنادر ، والعبرة بالغالب.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ إلى مدة يسيرة. وهى المدة التي أملهوا فيها ، أو : إلى بدر ، أو : إلى فتح مكة

، وَأَبْصِرْهُمْ أي : أبصر ما ينالهم ، والمراد بالأمر : الدلالة على أن ذلك كائن قريب ، فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ما قضينا لك من النصر والتأييد ، والثواب الجزيل فى الآخرة. و«سوف» للوعيد ، لا للتبعيد.
ولمّا نزل : فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ قالوا : متى هو؟ فنزل : أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ قبل وقته؟ فَإِذا نَزَلَ العذاب بِساحَتِهِمْ فَساءَ صَباحُ الْمُنْذَرِينَ صباحهم. واللام للجنس لأن «ساء» و«ليس» يقتضيان ذلك. قيل : هو

(٦٢٧/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٢٨
نزول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم الفتح بمكة. وقيل : نزول العذاب بهم يوم القيامة. شبهه بجيش هجم فأناخ بفنائهم بغتة.
والصباح : مستعار من : صباح الجيش المبيت ، استعير لوقت نزول العذاب. ولمّا كثرت الغارة فى الصباح سموا الغارة صباحا ، وإن وقعت فى غيره.
وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ ، وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ، كرر ليكون تسلية بعد تسلية ، وتأكيدا لوقوع الوعد إلى تأكيد ، وفيه فائدة ، وهو إطلاق الفعلين معا عن التقييد بالمفعول ، بعد التقييد له ، إيذان بأنه يبصر من صنوف المسرة ويبصرون من أنواع المساءة ما لا يفى به نطاق العبارة. وقيل : أريد بأحدهما : عذاب الدنيا ، وبالآخرة : عذاب الآخرة.
سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ ، أضيف الربّ إلى العزة لاختصاصه بها ، أو : يريد : أن ما من عزّة لأحد إلا وهو ربها ومالكها ، لقوله : وَتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ «١» أي : تنزيها له عما يصفون من الولد والصاحبة والشريك. وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، عمم الرسل بالسلام بعد ما خصص البعض فى السورة لأن فى تخصيص كلّ بالذكر تطويلا.
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ على هلاك الأعداء ، ونصرة الأنبياء.
قيل : فى ختم السورة بالتسبيح بعد ما تضمنته السورة من تخليط المشركين وأكاذيبهم ، ونسبتهم إلى جلاله الأقدس ما لا يليق بجنابه الأرفع ، تعليم للمؤمنين ما يختمون به مجالسهم لأنهم لا يخلو إذا جلسوا مجلسا من فلتة أو هفوة ، وكلمات فيها رضى اللّه وسخطه ، فالواجب على المؤمن إذا قام من مجلسه أن يتلو هذه الآية لتكون مكفرة لتلك السقطات ، ويحمد لما وفق من الطيبات ، ومن ثمّ قال صلى اللّه عليه وسلم : «كلمات لا يتكلم بهن أحد فى مجلسه عند قيامه ثلاث مرات إلا كفّر بهن عنه ، ولا يقولهن فى مجلس خير ، ومجلس ذكر ، إلا ختم اللّه بهن ، كما يختم بخاتم على الصحيفة سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ألا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك» «٢». والمراد هو ختم

المجلس أو الكلام بالتنزيه. وعن عليّ – كرم اللّه وجهه : من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة ، فليكن آخر كلامه : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ «٣» .. إلخ.

---

(١) من الآية ٢٦ من سورة آل عمران.

(٢) أخرجه ، بلفظه ، أبو داود فى (الأدب ، باب فى كفارة المجلس ٥/ ١٨١ ، ح ٤٨٥٧) وابن حبان فى صحيحه (٥٩٢) عن عبد اللّه ابن عمرو بن العاص ، موقوفا. وأخرجه أبو داود فى الموضع نفسه (ح ٤٨٥٨) عن أبى هريرة مرفوعا. ولم يذكر أبو داود نص الرواية ، بل قال – بعد ذكره لرواية عبد اللّه بن عمرو : (عن أبى هريرة ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم مثله) ، وأخرجه بنحوه الترمذي فى (الدعوات باب : ما يقول إذا أقام من المجلس ٥/ ٤٦٠ – ٤٦١ ، ح ٣٤٣٣) من حديث أبى هريرة ، مرفوعا.

(٣) أخرجه البغوي فى تفسيره (٧/ ٦٦) وعبد الرزاق فى المصنف (٢/ ٢٣٧) ، عن سيدنا عليّ ، موقوفا ، وعزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٥٤) لابن أبى حاتم ، من رواية الشعبي ، عن النبي صلى اللّه عليه وسلم ، مرسلا.

(٦٢٨/٤)

البحر المديد ، ج ٤ ، ص : ٦٢٩

وعنه صلى اللّه عليه وسلم أنه قال : «إذا سلمتم على فسلّموا على المرسلين ، فإنما أنا أحدهم» «١».

الإشارة : ترى بعض الناس يقول : لو ظهر شيخ التربية لكنّا من المخلصين ، بصحبته وخدمته ، فلما ظهر كل الظهور جحد وكفر ، وأنف واستكبر ، وقنع بما عنده من العلم ، فإذا رأى ما ينزل بأهل النسبة من أصحابه ، من الامتحان فى أول البادية ، قال : ليس هذه طريق الولاية ، فيقال له : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين ، ولمن كان على قدمهم ، إنهم لهم المنصورون ، وإنّ جندنا لهم الغالبون ، فتولّ عن مثل هذا حتى حين ، وهو وقت هجوم الموت عليه ، وأبصر ما يحلّ به من غم الحجاب ، وسوء الحساب ، فسوف يبصرون ما يناله أهل النسبة من الاصطفاء والتقريب ، فإذا طلب الكرامة بالانتصار ممن ظلمهم ، فيقال له : أَفَبِعَذابِنا يَسْتَعْجِلُونَ ... الآية. والغالب عليهم الرحمة. فإذا أوذوا قابلوا بالإحسان ، إذ لم يروا الفعل إلا من الرحمن ، فينزهونه بقولهم : سُبْحانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ، وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ «٢».

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١١٦) وزاد السيوطي فى الدر (٥/ ٥٥٣) عزوه لعبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، عن قتادة ، بنحوه. كما عزاه السيوطي لابن مردويه ، وابن سعد ، عن قتادة ، عن أنس.

(٢) إلى هنا ينتهى المجلد الرابع بتجزئة المحقق ، ويتلوه – إن شاء اللّه – المجلد الخامس ، وأوله تفسير سورة «ص». – أسأل اللّه العلى القدير – أن يتقبله بأحسن قبول ، وأن يبلّغ من طالعه كل مأمول. والحمد لله رب العالمين ، وصلى اللّه على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا. وكان الفراغ من نسخ هذا المجلد وتحقيقه ومراجعته فى الثاني عشر من ربيع الأول ، سنة عشرين وأربعمائة وألف ، على يد/ أحمد عبد اللّه القرشي ، عفا اللّه عنه ، آمين.

سورة ص

مكية ، أو : سورة داود. وآيها : ست أو ثمان وثمانون آية. ومناسبتها لما قبلها : قوله تعالى : لَوْ أَنَّ عِنْدَنا ذِكْراً مِنَ الْأَوَّلِينَ «١» مع قوله : وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، فأخبر عنهم أولا أنهم لو نزل عليهم الذكر لأخلصوا فى الإيمان ، فلما نزل كفروا به ، وتعززوا عنه ، قال تعالى :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١ الى ٣]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنادَوْا وَلاتَ حِينَ مَناصٍ (٣)

يقول الحق جل جلاله : ص أي : أيها الصادق المصدوق. وقال القشيري : معناه : مفتاح اسمه الصادق ، والصبور ، والصمد. أقسم بهذه الأسماء ، وبالقرآن ذِي الذِّكْرِ أي : ذى الشرف التام ، الباقي ، المخلد لمن تمسك به ، أو : ذى الوعظ البليغ لمن اتعظ به ، أو : الذكر للأمم والقصص والغيوب. أو : يراد به الجميع.

وجواب القسم : محذوف ، أي : إنه لكلام معجز ، أو : إنه لمن عند اللّه ، أو : إن محمدا لصادق ، أو : ما الأمر كما يزعمون ، أو : إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ وقيل : إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ أو : إِنَّ ذلِكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ، وهو بعيد.

بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا من قريش فِي عِزَّةٍ تكبّر عن الإذعان لذلك ، والاعتراف بالحق ، وَشِقاقٍ خلاف للّه

ولرسوله. والإضراب عن كلام محذوف يدل عليه جواب القسم ، أي : إن كفرهم ليس عليه برهان ، بل هو بسبب العزة ، والعداوة ، والشقاق ، وقصد المخالفة. والتنكير فى «عزة وشقاق» للدلالة على شدتهما وتفاقمهما.

وقرىء «فى غرة» «٢» أي : فى غفلة عما يجب عليهم من النّظر واتباع الحق.

ثم هددهم بقوله : كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ من قبل قومك مِنْ قَرْنٍ من أمّة أو جيل ، فَنادَوْا أي : فدعوا واستغاثوا حين رأوا العذاب : وَلاتَ حِينَ مَناصٍ أي : وليس الوقت وقت خلاص ونجاة وفرار ،

---

(١) الآية ١٦٨ من سورة الصافات.

(٢) هى قراءة حماد بن الزبرقان. انظر مختصر ابن خالويه ص ١٣٠.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٦

والمعنى : أنهم استغاثوا حين لم ينفعهم ذلك. وَلاتَ هى «لا» المشبّهة ب «ليس» ، زيدت عليها تاء التأنيث ، كما زيدت على «ربّ» و«ثمّ» للتوكيد ، وتغيّر بذلك حكمها ، حيث لم تدخل إلا على الأحيان ، ولم يبرز إلا أحد معموليها ، إما الاسم أو الخبر ، وامتنع بروزهما بنفي الأحيان ، وهذا مذهب الخليل وسيبويه ، وعند الأخفش أنها النافية للجنس ، زيدت عليها الهاء ، وخصّت بنفي الأحيان. وقال أبو محمد مكى : الوقف عليها عند سيبويه ، والفراء ، وأبى إسحاق ، وابن كيسان ، بالتاء ، وعليه جماعة القراء ، وبه أتى خط المصحف. وعند المبرد والكسائي بالهاء ، بمنزلة «رب». هـ.

الإشارة : افتتح الحق جل جلاله هذه السورة ، التي ذكر فيها أكابر أصفيائه ، بحرف الصاد ، إشارة إلى مادة الصبر ، والصدق ، والصمدانية ، والصفاء إذ بهذه المقامات ارتفع من ارتفع ، وبالإخلال بها سقط من سقط.

فبالصبر على المجاهدات تتحقق الإمامة والقدوة ، وبالصدق فى الطلب يقع الظفر بكلّ مطلب ، وبالصمدانية تقع الحرية من رقّ الأشياء ، وبالصفاء تحصل المشاهدة والمكالمة ، فكأن الحق تعالى أقسم بهذه الأشياء وبكتابه العزيز إن المتكبرين على أهل الخصوصية ما أنكروا إلا جحودا وعنادا ، وتعززا واستكبارا ، لا لخلل فيهم ، ثم أوعدهم بالهلاك ، كما أهلك من قبلهم ، فاستغاثوا حين لم ينفعهم الغياث.

ثم ذكر تعجبهم من كون المنذر منهم ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٤ الى ٧]

وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ (٥) وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ (٦) ما سَمِعْنا بِهذا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاقٌ (٧)

يقول الحق جل جلاله : وَعَجِبُوا أي : كفار قريش من أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ رسول من أنفسهم ، استبعدوا أن يكون الرّسول من البشر. قال القشيري : وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، ولم يعجبوا أن يكون المنحوت إلها لهم ، وهذه مناقضة ظاهرة. هـ. يعنى : لأن المستحق للإعجاب إلهية المنحوت من الحجر ، لا وجود منذر من البشر ، وهم عكسوا القضية. وَقالَ الْكافِرُونَ هذا ساحِرٌ كَذَّابٌ أي : ساحر فيما يظهر من المعجزات ، كذّاب فيما يدعيه من الرّسالة. وضع الظاهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالكفر ، وغضبا عليهم ، وإشعارا بأن كفرهم هو الذي جسرهم على هذه المقالة الشنعاء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٧

ثم قالوا : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً بأن نفى الألوهية التي كانت لآلهتهم وقصرها على واحد ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ بليغ فى العجب ، وذلك لأنه خلاف ما ألفوا عليه آباءهم ، الذين أطبقوا على عبادة آلهتهم ، كابرا عن كابر ، فإنّ مدار كلّ ما يأتون ويذرون ، من أمور دينهم ، هو التقليد والاعتياد ، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجبا من العجاب ، بل محالا ، وأما جعل مدار تعجبهم عدم وفاء علم الواحد ، وقدرته بالأشياء الكثيرة ، فلا وجه له لأنهم لا يدّعون أن لآلهتهم علما وقدرة ومدخلا فى حدوق شيء من الأشياء ، حتى يلزم من ألوهيتهم بقاء الأثر بلا مؤثر ، قاله أبو السعود منتقدا على البيضاوي.

قال القشيري : لم تباشر خلاصة التوحيد قلوبهم ، وبعدوا عن ذلك تجويزا ، فضلا عن أن يكون إثباتا وحكما ، فلا عرفوا أولا معنى الإلهية فإن الإلهية هى القدرة على الاختراع. وتقدير قادرين على ذلك غير صحيح لما يجب من وجود التمانع بينهما وجوازه ، وذلك يمنع من كمالها ، ولو لم يكونا كاملى الوصف لم يكونا إلهين ، وكلّ من جرّ ثبوته لسقوطه فهو مطرح باطل. هـ.

روى أنه لما أسلم عمر رضي اللّه عنه فرح به المؤمنون ، وشقّ على قريش ، فاجتمع خمسة وعشرون نفسا من صناديدهم ، ومشوا إلى أبى طالب ، وقالوا : أنت كبيرنا ، وقد علمت ما فعل هؤلاء السفهاء – أي : الذين دخلوا فى الإسلام – وجئناك لتقضى بيننا وبين ابن أخيك ، فاستحضر أبو طالب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، فقال : يا ابن أخى هؤلاء قومك يسألونك السواء ، فلا تمل كلّ الميل على

قومك ، فقال – عليه الصلاة والسّلام – «ما ذا يسألوننى»؟ فقالوا :
ارفضنا وارفض ذكر آلهتنا ، وندعك وإلهك ، فقال – عليه الصلاة والسّلام : «أعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب ، وتدين لكم العجم» ، قالوا : نعم ، وعشرا «١». قال : «قولوا : لا إله إلا اللّه» فقاموا ، وقالوا : أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلهاً واحِداً ، إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عُجابٌ «٢». قيل : العجب : ما له مثل ، والعجاب : لا مثل له.
وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أي : وانطلق الأشراف من قريش عن مجلس أبى طالب ، بعد ما بكّتهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم بالجواب ، وشاهدوا تصلبه – عليه الصلاة والسّلام – فى الدين ، وعزيمته على إظهاره ، ويئسوا مما كانوا يرجونه ، بتوسط أبى طالب ، من المصالحة على الوجه المذكور ، قائلين أَنِ امْشُوا و«أن» تفسيرية لأن المنطلقين عن

---

(١) أي : نعطيكها وعشر كلمات معها.
(٢) أخرجه بنحوه أحمد فى المسند (١/ ٢٢٧ ، ٣٦٢) والترمذي وحسّنه فى (التفسير – سورة ص ، ح ٣٢٣٢) والنّسائى فى الكبرى (التفسير ٤/ ٤٥٦) وابن حبان (الموارد ح ١٧٥٧) والطبري فى التفسير (٢٣/ ١٢٥) والبيهقي فى السنن (٩/ ١٨٨). والواحدي فى الأسباب (ص ٣٨٠) وصحّحه الحاكم (٢/ ٤٣٢) ووافقه الذهبي. عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٨
مجلس التقاول لا بد لهم من أن يتكلموا ، أو يتفاوضوا فيما جرى لهم ، فكان انطلاقهم مضمنا معنى القول ، وقيل :
ليس المراد بالانطلاق المشي ، بل انطلاق ألسنتهم بهذا الكلام ، كما أنه ليس المراد بالمشي المتعارف ، بل الاستمرار على المشي ، يعنى أنه على هذا القول : عبارة عن تفرقهم فى طرق مكة ، وإشاعتهم للكفر. هـ. أي : امشوا وَاصْبِرُوا عَلى آلِهَتِكُمْ أي : اثبتوا على عبادتها ، متحملين لما تسمعون فى حقها من القدح.
قال القشيري : إذا [تواصى] «١» الكفار فيما بينهم بالصبر على آلهتهم ، فالمأمنون أولى بالصبر على عبادة معبودهم ، والاستقامة فى دينهم. هـ.
إِنَّ هذا لَشَيْءٌ يُرادُ أي : هذا الذي شاهدناه من محمد صلّى اللّه عليه وسلم من أمر التوحيد ، وإبطال أمر آلهتنا ، لشيء يراد إمضاؤه وتنفيذه ، من جهته – عليه الصلاة والسّلام – لا محالة ، من غير

صارف يلويه ، ولا عاطف يثنيه ، لا قول يقال من طرف اللسان ، وأمر ترجى فيه المسامحة بشفاعة أو امتنان ، فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله عن رأيه ، بواسطة أبى طالب وشفاعته ، وحسبكم ألا تمنعوا من عباده ألهتكم بالكلية ، فاصبروا عليها ، وتحملوا ما تسمعون فى حقها من القدح وسوء المقالة ، أو : إنّ هذا الأمر لشيء يريده اللّه تعالى ، ويحكم بإمضائه ، فلا مرد له ، ولا ينفع فيه إلا الصبر ، أو : إنّ هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر ، يراد بنا ، فلا انفكاك لنا منه ، أو : إن دينكم لشيء يراد ، أي : يطلب ليؤخذ منكم وتغلبوا عليه ، أو : إن هذا الذي يدعيه من التوحيد ، ويقصده من الرّئاسة ، والترفع على العرب والعجم ، لشيء يتمنى ، ويريده كلّ أحد. فتأمل هذه الأقاويل ، واختر منها ما يساعده النّظم الجليل.

ما سَمِعْنا بِهذا الذي يقوله من أمر التوحيد فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ أي : فى ملة عيسى ، التي هى آخر الملل لأن النّصارى مثلثة غير موحدة ، أو : فى ملة قريش التي أدركنا عليها آباءنا ، ويجوز أن يكون الجار والمجرور حالا من «هذا» ، أي : ما سمعنا بهذا من أهل الكتاب ولا الكهان كائنا فى الملة المترقبة. ولقد كذبوا فى ذلك أقبح كذب فإن حديث البعثة والتوحيد ، وإبطال عبادة الأصنام ، كان أشهر الأمور قبل الظهور. إِنْ هذا أي : ما هذا إِلَّا اخْتِلاقٌ أي : كذب ، اختلقه من تلقاء نفسه.

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٨ الى ١١]

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ (٨) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ (١٠) جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ (١١)

أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ أي : القرآن : مِنْ بَيْنِنا ونحن رؤساء النّاس وأشرافهم. أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم ، وينزل عليه الكتاب من بينهم ، حسدا من عند أنفسهم ، كقولهم : لَوْ لا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ «٢». وأمثال هذه المقالات الباطلة دليل على أن مناط تكذيبهم ليس إلا الحسد ، وقصر النّظر على الحطام الدنيوية ، والعياذ باللّه.

---

(١) فى الأصول [توصوا].

(٢) الآية ٣١ من سورة الزخرف.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٩

قال الورتجبي : كانوا منطمسة العيون عما ألبسه الحق من أنوار ربوبيته ، وسنا جلاله وجماله ، لم يروا

إلا الصورة الإنسانية ، التي هى ميراث آدم من ظاهر الخلقة. وهذا كقوله : وَتَراهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ «١» ، استبعدوا اصطفائيته بالوحى ، ولم يعرفوا أنه أثر اللّه فى العالم ، ومشكاة تجليه ، حتى قالوا مثل ما قالوا : وَعَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، رأوا أنفسهم خالية عن مشاهدة الغيوب ، وإدراك نور صفات الحق ، فقاسوا نفس محمد صلّى اللّه عليه وسلم بأنفسهم ، ولم يعلموا أنه كان نفس النّفوس ، وروح الأرواح ، وأصل الخليقة ، وباكورة من بساتين الرّبوبية. يا ليتهم لو رأوه فى مشاهدة الملكوت ، ومناصب الجبروت ، إذ خاطبه الحق بلولاك ما خلقت الأفلاك. هـ.

الإشارة : هذه عادة اللّه تعالى فى خلقه ، كل من يأمر النّاس بالتجريد ، وخرق العوائد ، وصريح التوحيد ، وترك ما عليه النّاس من جمع الدنيا ، وحب الرّئاسة ، والجاه ، أنكروه ، وسفّهوا رأيه ، وقالوا فيه : ساحر كذّاب. ويقول بعضهم لبعض : امشوا واصبروا على ما أنتم عليه ، من جمع الدنيا ، والخدمة على العيال ، وعلى ما وجدتم عليه أسلافكم ، من الوقوف مع العوائد ، ما سمعنا بهذا الذي يدلّ عليه هذا الرّجل من ترك الأسباب والانقطاع إلى اللّه فى هذا الزمان ، إن هذا الا اختلاق ، أأنزلت عليه الخصوصية من بيننا ، ولم يعلموا أن اللّه يختص برحمته من يشاء ، ويبعث فى كلّ زمان من يجدد الدين بتربية مخصوصة. واللّه تعالى أعلم.

ثم ردّ عليهم بقوله :

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ...

يقول الحق جل جلاله : بَلْ هُمْ أي : كفار قريش فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي من القرآن ، أو الوحى ، لميلهم إلى التقليد ، وإعراضهم عن النّظر فى الأدلة المؤدية إلى علم حقيقته ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذابِ أي : بل لما يذوقوا عذابى الموعود فى القرآن ، ولذلك شكّوا فيه ، فإذا ذاقوه زال ما بهم من الشك والحسد حينئذ ، أي : إنهم لا يصدّقون به إلا أن يمسّهم العذاب ، فحينئذ يصدّقون ، ولات حين تصديق.

---

(١) الآية ١٩٨ من سورة الأعراف. [.....]

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٠

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ أي : ما هم بمالكى خزائن الرّحمة حتى يصيبوا بها من شاءوا ، ويصرفوها عمن شاءوا ، ويختاروا للنبوة بعض صناديدهم ، ويترفّعوا بها عن محمد صلّى اللّه عليه وسلم ، وإنما يملك الرحمة وخزائنها العزيز القاهر على خلقه ، الوهّاب الكثير المواهب ، المصيب بها من يشاء. والمعنى : أن النّبوة عطية من اللّه تعالى ، يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين ، لا

مانع له ، فإنه الغالب ، الذي له أن يهب كل ما يشاء لكلّ من يشاء.

وفى إضافة اسم الرّب المنبئ عن التربية والتبليغ إلى الكمال إلى ضميرة – عليه الصلاة والسّلام – من تشريفه واللطف به ما لا يخفى.

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما أي : بل ألهم ملك هذه العوالم العلوية والسفلية حتى يتكلموا فى الأمور الرّبانية ، ويتحكموا فى التدابير الإلهية ، التي اختصّ بها رب العزّة والكبرياء؟ ثم تهكّم بهم غاية التهكم فقال : فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبابِ ، وهو جواب عن شرط مقدر ، أي : إن كان لهم ما ذكر من الملك ، ويملكون التصرف فى قسمة الرّحمة ، فليصعدوا فى المعارج والطرق التي يتوصّل بها إلى السماء ، حتى يدبروا أمر العالم وملكوت اللّه ، فينزلون الوحى إلى من يختارون ويستصوبون.

والسبب ، فى الأصل : ما يتوصل به إلى المطلوب.

ثم وعد نبيه – عليه الصلاة والسّلام – بالنصر عليهم بقوله : جُنْدٌ ما هُنالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ الْأَحْزابِ أي : هم جند ما من الكفار المتحزبين على الرّسل مَهْزُومٌ مكسور عما قريب ، فلا تبال بما يقولون ، ولا تكترث بما يهذون. و«جند» : خبر ، أو : مبتدأ ، و«مهزوم» : خبره و«ما» : صلة مقوّية للنكرة. أو : للتقليل والتحقير.

و«من الأحزاب» : متعلق بجند ، أو : بمهزوم ، و«هنالك» : إشارة إلى بدر ومصارعهم ، أو : إلى حيث وضعوا فيه أنفسهم من الانتداب لمثل ذلك القول العظيم ، من قولهم لمن ينتدب لأمر وليس من أهله : لست هنالك.

الإشارة : يقال فى جانب أهل الغفلة : بل فى شك من حلاوة ذكرى ومعرفتى ، حيث لم يذوقوا. قال إبراهيم ابن أدهم رضي اللّه عنه : (خرج النّاس من الدنيا ولم يذوقوا شيئا ، قيل : ومافاتهم؟ قال : حلاوة المعرفة). بل لمّا يذوقوا عذابى ، هو وبال القطيعة والبعد ، والانحطاط عن درجات المقربين ، وسيذوقونه إذا تحققت الحقائق ، حيث لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى اللّه بقلب سليم. ويقال فى جانب من حسد أهل الخصوصية : أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ ... الآية.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١١

ثم هدد كفار قريش بقوله :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١٢ الى ١٥]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أُولئِكَ الْأَحْزابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقابِ (١٤) وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً ما لَها مِنْ

فَواقٍ (١٥)

يقول الحق جل جلاله : كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ أي : قبل أهل مكة قَوْمُ نُوحٍ نوحا ، وَعادٌ هودا وَفِرْعَوْنُ موسى ، ذُو الْأَوْتادِ ، قيل : كانت له أربعة أوتاد وحبال يلعب بها أو عليها بين يديه ، وقيل :

كان يوتّد من يعذب بأربعة أوتاد فى يديه ورجليه ، ويتركه حتى يموت. وقيل : كان يرسل عليه عقارب وحيات.

وقيل : معناه : ذو الملك الثابت ، من : ثبات البيت المطنّب «١» بأوتاده ، فاستعير لرسوخ السلطنة ، واستقامة الأمر ، كقول الشاعر :

ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة فى ظلّ ملك ثابت الأوتاد «٢»

وَثَمُودُ وهم قوم صالح ، وَقَوْمُ لُوطٍ كذّبوا لوطا ، وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ أصحاب [الغيضة] «٣» كذّبوا شعيبا عليه السّلام ، أُولئِكَ الْأَحْزابُ : بدل من الطوائف المذكورة. وفيه فضل تأكيد وتمهيد لما يعقبه ، وأراد بهذه الإشارة الإعلام بأن الأحزاب الذين جعل الجند المهزوم منهم هم هؤلاء الطوائف ، وأنهم الذين وجد منهم التكذيب ، ولذلك قال :

إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ أي : ما كلّ أحد من آحاد أولئك الأحزاب ، أو : ما كلّ حزب منهم إلا كذّب الرسل لأن تكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم لاتفاق الكلّ على الحق ، أو : ما كلّ حزب إلا كذّب رسوله ، على نهج مقابل الجمع بالجمع. وأيّا ما كان فالاستثناء مفرغ من أعم [العلل] فى خبر المبتدأ ، أي : ما كلّ أحد منهم محكوم عليه بحكم إلا أنه كذب الرّسل ، فَحَقَّ عِقابِ أي : فوجب لذلك أن أعاقبهم حق العقاب ، التي كانت توجبه جناياتهم من أصناف العقوبات.

---

(١) خباء مطنب ، أي : مشدود بالأطناب ، والأطناب : ما يشد به البيت من الحبال بين الأرض والطرائق ، وقيل : هى الأوتاد ، واحدتها :

طنب. انظر اللسان (٤/ ٢٧٠٨).

(٢) البيت للأسود بن يعفر. انظر غريب القرآن لابن قتيبة (٢/ ١٠٠) ومعانى القرآن للنحاس (٦/ ٨٥).

(٣) فى الأصول الخطية [الغيظة].

وَما يَنْظُرُ هؤُلاءِ أي : وما ينتظر أهل مكة. وفى الإشارة إليهم بهؤلاء تحقير لشأنهم ، وتهوين لأمرهم ،

أي : وما ينتظر هؤلاء الكفرة الذين هم أمثال أولئك الطوائف المهلكة فى الكفر والتكذيب ، إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً وهى النّفخة الثانية لما فيها من الشدة والهول ، فإنها داهية ، يعم هولها جميع الأمم ، برها وفاجرها. والمعنى : أنه ليس بينهم وبين حلول ما أعد اللّه لهم من العقاب إلا نفخة البعث ، أخرت عقوبتهم إلى الآخرة لأن حلولها بهم فى الدنيا يوجب الاستئصال ، وقد قال تعالى : وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ «١» ، فأخرت ليوم القيامة.

وأما ما قيل من أنها النّفخة الأولى فمما لا وجه له لأنه لا يشاهد هولها ، ولا يصعق بها إلا من كان حيّا عند وقوعها. قاله أبو السعود.

ما لَها مِنْ فَواقٍ أي : من توقّف مقدار فواق ، هو ما بين حلبتى الحالب ، أي : إذا جاء وقتها لم تستأخر هذا القدر من الزمان. وعن ابن عباس : ما لها من رجوع وترداد ، من أفاق المريض : إذا رجع إلى الصحّة ، وفواق الناقة : ساعة يرجع الدرّ إلى ضرعها. يريد : أنها نفخة واحدة ، لا تثنى ، ولا تردد. والفواق بمعنى التأخر ، فيه لغتان : الفتح والضم ، وأما ما بين حلبتى النّاقة ، فبالضم فقط.

الإشارة : ما جرى على مكذبى الرّسل يجرى فى مكذّبى الأولياء ، إلّا أن عذابهم البعد والطرد ، وحرمان معرفة العيان. وباللّه التوفيق.

ثم ذكر استعجالهم العذاب ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ١٦ الى ٢٠]

وَقالُوا رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ (١٦) اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنا مُلْكَهُ وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطابِ (٢٠)

يقول الحق جل جلاله : وَقالُوا أي : كفار مكة لمّا سمعوا بتأخير عقابهم إلى الآخرة : رَبَّنا عَجِّلْ لَنا قِطَّنا أي : حظّنا من العذاب الذي وعدتنا به ، قَبْلَ يَوْمِ الْحِسابِ ولا تؤخره إلى الصيحة المذكورة. وفى القاموس : القط – بالكسر : النصيب ، والصّك ، وكتاب المحاسبة. هـ. أو : عجّل لنا صحيفة أعمالنا لننظر فيها ، أو :

---

(١) من الآية ٣٣ من سورة الأنفال.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٣

حظنا من الجنة لأنه صلّى اللّه عليه وسلم ذكر وعد اللّه المؤمنين بالجنة ، فقالوا على سبيل الهزء :

عجّل لنا نصيبنا منها «١».

وتصدير دعائهم بالنداء للإمعان فى الاستهزاء ، كأنهم يدعون ذلك بكمال الرّغبة.

اصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ من أمثال هذه المقالات الباطلة. ثم سلّاه بما يقص عليه من خبر الأنبياء – عليهم السّلام – الذين كانت بدايتهم أيام المحن ، ثم جاءتهم أيام المنن ، وبدأ بنبيه داود عليه السّلام ، فقال : وَاذْكُرْ عَبْدَنا داوُدَ ، فإنه كان فى أول أمره ضعيفا ، يرعى الغنم ، ثم صار نبيا ملكا ، ذا الأيادى العظام. وقوله : ذَا الْأَيْدِ أي : ذا القوة فى الدين ، والملك ، والنّبوة. يقال : فلان ذو يد وأيد وأياد ، بمعنى القوة ، وأياد كلّ شيء : ما يتقوى به.

إِنَّهُ أَوَّابٌ : رجّاع إلى اللّه فى كلّ شيء ، أو : إلى مرضاة اللّه تعالى. وهو تعليل لكونه ذا الأيد ، ودليل على القوة فى الدين فإنه كان عليه السّلام يصوم يوما ويفطر يوما ، وهو أشدّ الصوم ، ويقوم نصف الليل «٢» ، مع مكابدة سياسة النّبوة والملك والشهود ، فقد أعطى القوة فى الجهتين.

إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ أي : ذللناها له ، تسير معه حيث يريد. ولم يقل «له» لأن تسخير الجبال له عليه السّلام لم يكن بطريق التفويض الكلى ، كتسخير الرّياح وغيرها لابنه ، بل بطريق التبعية ، والاقتداء به فى عبادة اللّه تعالى. وقيل : مَعَهُ متعلق ب يُسَبِّحْنَ ، أي : سخرناها تسبّح معه ، إما بلسان المقال ، يخلق اللّه لها صوتا ، أو :

بلسان الحال ، أي : يقدس اللّه تعالى وينزهه عما لا يليق به. والجملة : حال ، أي : مسبّحات ، واختيار الفعل ليدل على حدوث التسبيح من الجبال ، وتجدده شيئا بعد شيء ، وحالا بعد حال ، بِالْعَشِيِّ فى طرفى النّهار ، والعشىّ :

وقت العصر إلى الليل وَالْإِشْراقِ ، وهو حين تشرق الشمس ، أي : تضيء ، وهو وقت الضحى ، وأما شروقها – الثلاثي : فطلوعها ، تقول : شرقت الشمس ولمّا تشرق ، أي : طلعت ولم تضيء. وعن ابن عباس رضي اللّه عنه : ما عرفت صلاة الضحى إلا بهذه الآية «٣». وعنه – عليه الصلاة والسّلام – أنه صلّى عند أم هانيء صلاة الضحى ، وقال :

«هذه صلاة الإشراق» «٤».

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٧٥).

(٢) أخرج البخاري فى (التهجد ، باب من نام عند السحر ، ح ١١٣١) ومسلم فى (الصيام ، باب النّهى عن صوم الدهر ٢/ ٨١٦ ، ح ١٨٩) عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، قال : قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم : «أحب الصلاة إلى اللّه صلاة داود عليه السّلام وأحبّ الصيام إلى اللّه صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوما».

(٣) عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٦٢) لسعيد بن منصور ، بلفظ : طلبت صلاة الضحى فى القرآن ، فوجدتها بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْراقِ. وانظر روايات أخرى تفيد هذا المعنى ذكرها السيوطي فى الدر.

(٤) أخرجه البغوي فى التفسير (٧/ ٧٦) عن ابن عباس بلفظ : قال – أي ابن عباس – : كنت أمرّ بهذه الآية لا أدرى ما هى حتى حدثتنى أم هانى بنت أبى طالب : أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم دخل عليها فدعا بوضوء فتوضأ ، ثم صلّى الضحى ، فقال : «يا أم هانىء هذه صلاة الإشراق».

(١٣/٥)

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٤

وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً أي : وسخّرنا الطير مجموعة من كلّ ناحية. عن ابن عباس رضي اللّه عنه : كان إذا سبّح ، جاوبته الجبال بالتسبيح ، واجتمعت إليه الطير ، فسبّحت ، فذلك حشرها. كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ أي : كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود. ووضع الأوّاب موضع المسبّح لأن الأوّاب : الكثير الرّجوع إلى اللّه تعالى ، من عادته أن يكثر ذكر اللّه ، ويدير تسبيحه وتقديسه على لسانه. وقيل : الضمير للّه ، أي : كل من داود والجبال والطير أواب ، أي :

مسبّح للّه تعالى ومرجّع للتسبيح ، وقيل : لداود ، أي : يرجع لأمره.

وَشَدَدْنا مُلْكَهُ أي : قوّيناه بالهيبة والنّصرة وكثرة الجنود. قيل : كان بيت المقدس حول محرابه ثلاثة وثلاثون ألف رجل. قال القشيري : ويقال : وشددنا ملكه بالعدل فى القضية ، وحسن السيرة فى الرّعية ، أو : بدعاء المستضعفين ، أو : بقوم مناصحين ، كانوا يدلونه على ما فيه صلاح ملكه ، أو : بقبوله الحق من كلّ أحد ، أو :

برجوعه إلينا فى عموم الأوقات. هـ. وقال ابن عباس : أن رجلا من بنى إسرائيل استعدى على رجل من عظمائهم إلى داود ، فقال المستعدى : إن هذا غصبنى بقرتي ، فجحد الآخر ، ولم تكن له بينة ، فقال داود : قوما حتى أنظر فى أمركما ، فأوحى اللّه تعالى إلى داود فى منامه : أن اقتل الرّجل الذي استعدى عليه ، فتثبت داود حتى أوحى اللّه إليه ثلاثا أن يقتله ، أو تأتيه العقوبة من اللّه ، فأرسل داود إلى الرّجل : أن اللّه قد أوحى إليّ أن أقتلك ، فقال : تقتلنى بغير بينة؟ فقال : نعم ، واللّه لأنفذنّ أمر اللّه فيك ، فلما عرف الرّجل أنه قاتله ، فقال : لا تعجل عليّ حتى أخبرك أن اللّه تعالى لم يأخذنى بهذا الذنب ، الذي هو السرقة ، ولكنى كنت قتلت أبا هذا غيلة ، وأخذت البقرة ، فقتله داود ، فقال الناس : إذا أذنب أحد ذنبا أظهره اللّه عليه فقتله ، فهابوه ، وعظمت هيبته فى القلوب هـ. «١».

وَآتَيْناهُ الْحِكْمَةَ النبوة ، وكمال العلم ، وإتقان العمل ، والإصابة فى الأمور ، أو : الزبور وعلم الشرائع. وكلّ كلام وافق الحق فهو حكمه. وَفَصْلَ الْخِطابِ علم القضاء وقطع الخصام ، فكان لا يتتعتع فى القضاء بين الناس ، أو : الفصل بين الحق والباطل. والفصل : هو [التمييز] «٢» بين الشيئين ، وقيل : الكلام البيّن ، بحيث يفهمه المخاطب بلا التباس ، فصل بمعنى مفصول ، أو : الكلام البيّن الذي

يبين المراد بسرعة ، فيكون بمعنى فاصل ، والمراد : ما أعطاه اللّه من فصاحة الكلام ، الذي كان يفصل به بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، فى قضاياه

---

(١) أخرجه الطبري (٢٣/ ١٣٨ - ١٣٩) والبغوي فى التفسير (٧/ ٧٧). وعزاه فى الدر المنثور (٥/ ٥٦٣) لعبد بن حميد ، وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس رضي اللّه عنه.

(٢) فى الأصول [التحيز].

وحكوماته ، وتدابير الملك ، والمشورات. وعن عليّ رضي اللّه عنه : «هو البينة على المدّعى ، واليمين على من أنكر» وعن الشعبي : «هو : أما بعد» «١» فهو أول من تكلم بها ، فإنّ من تكلم فى الذي له شأن يفتتح بذكر اللّه وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له الكلام ، فصل بينه وبين ذكر اللّه بقوله : أما بعد.

الإشارة : فاصبر أيها الفقير على ما يقولون فيك ، وتسلّ بمن قبلك من أهل الخصوصية الكبرى والصغرى ، ففيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الوصول إلى اللّه تعالى. وقوله تعالى : إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبالَ مَعَهُ ... إلخ. قال القشيري : كل من تحقق بحالة ساعده كلّ شيء. هـ. قلت : وفى الحكم : «أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكوّن ، فإذا شهدت المكوّن كانت الأكوان معك» وباللّه التوفيق.

ثم ذكر امتحان داود عليه السّلام ، فقال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٢١ الى ٢٥]

وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قالُوا لا تَخَفْ خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ (٢٢) إِنَّ هذا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ فَقالَ أَكْفِلْنِيها وَعَزَّنِي فِي الْخِطابِ (٢٣) قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَقَلِيلٌ ما هُمْ وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ راكِعاً وَأَنابَ (٢٤) فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥)

يقول الحق جل جلاله : وَهَلْ أَتاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ استفهام ، معناه التعجب والتشويق إلى استماع ما فى حيزه لأنه من الأنباء البديعة ، والأخبار العجيبة. والخصم - فى الأصل : مصدر ، ولذلك يطلق على الواحد والجمع ، كالضيف والزور. وأريد هنا اثنان ، وإنما جمع الضمير بناء على أن أقل الجمع اثنان.

إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرابَ أي : تصعّدوا سوره ونزلوا إليه. والسور : الحائط المرتفع ، ونظيره : تسنمه : إذا علا سنمه. والمحراب :

---

(١) انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبري (٣/ ١٤٠) والبغوي (٧/ ٧٧ - ٧٨) والدر المنثور (٥/ ٥٦٤).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٦

الغرفة ، أو : المسجد ، سمى محرابا لتحارب الشيطان فيه والخواطر الرّدية. و«إذ» : متعلق بمحذوف ، أي : نبأ تحاكم الخصمين ، أو : بالخصم لما فيه من معنى الخصومة ، إِذْ دَخَلُوا عَلى داوُدَ : بدل مما قبله ، أو : ظرف لتسوروا ، فَفَزِعَ مِنْهُمْ : تروع منهم.

روى أن اللّه تعالى بعث إليه ملكين فى صورة إنسانين ، قيل : جبريل وميكائيل ، فطلبا أن يدخلا عليه ، فوجداه فى عبادته ، فمنعهما الحرس ، فتسوّروا عليه المحراب ، فلم يشعر إلا وهما بين يديه ، جالسان ، ففزع منهم لأنهم دخلوا عليه فى غير يوم القضاء ، ولأنهم نزلوا من فوق ، وفى يوم الاحتجاب ، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه. قال الحسن : جزأ داود عليه السّلام الدهر أربعة أجزاء يوما لنسائه ، ويوما للعبادة ، ويوما للقضاء ، ويوما للمذاكرة مع بنى إسرائيل. فدخلوا عليه يوم عبادته.

فلما فزع قالُوا لا تَخَفْ ، نحن خَصْمانِ بَغى بَعْضُنا عَلى بَعْضٍ أي : ظلم وتطاول عليه ، فَاحْكُمْ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ لا تجر ، من : الشطط ، وهو مجاوزة الحدّ وتخطى الحق ، وَاهْدِنا إِلى سَواءِ الصِّراطِ وأرشدنا إلى وسط الطريق ومحجته ، والمراد : عين الحق وصريحه.

روى : أن أهل زمان داود عليه السّلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل له عن امرأته ، فيتزوجها إذا أعجبته ، وكان لهم عادة فى المواساة بذلك. وكان فى أول الإسلام شيء من ذلك بين المهاجرين والأنصار ، فاتفق أنّ عين داود عليه السّلام وقعت عل امرأة أوريا ، وكانت جميلة ، فأحبّها ، فسأله النّزول له عنها ، فاستحيا أن يردّه ، ففعل ، فتزوجها ، وهى أم سليمان فعوتب فى ذلك ، وقيل له : إنك مع عظيم منزلتك ، وكثرة نسائك ، لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة ، كان الواجب عليك مغالبة هواك ، وقهر نفسك ، والصبر على ما امتحنت به. وقيل :

خطبها أوريا ، وخطبها داود ، فآثره أهلها ، فكانت زلته أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه «١». هـ.

ولعلم لم يكن محرما فى شرعهم ، وإنما كان خلاف الأولى.

وقال شيخ شيوخنا فى حاشيته : لا يصح هذا فى حق الأنبياء ، وما يحكى أنه بعث أوريا إلى الغزو مرة بعد مرة ، وأحب أن يقتل ليتزوجها ، فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أبناء النّاس ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء.

وقال علىّ – كرم اللّه وجهه – : من حدثكم بحديث داود عليه السّلام على ما يرويه القصّاص جلدته مائة وستين «٢» ، وهو

---

(١) قال القاضي عياض فى الشفاء (٢/ ٨٢٧) : لا تلتفت إلى ما سطره الأخباريون من أهل الكتاب ، الذين بدّلوا وغيّروا ، ونقله المفسرون ، ولم ينص اللّه تعالى على شىء من ذلك فى كتابه ، ولا ورد فى حديث صحيح ، والذي نصّ اللّه عليه فى قصة داود :

قوله : وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ وليس فى قصة داود وأوريا خبر ثابت.

وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٣١) : قد ذكر المفسرون هاهنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه .... فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة ، وأن يرد علمها إلى اللّه عز وجل ، فإن القرآن حق ، وما تضمن فهو حق أيضا.

وانظر : الإسرائيليات والموضوعات لأبى شهبة (٢٦٤ – ٢٧٠).

(٢) قال الحافظ ابن حجر ، فى الكافي الشاف : (رقم ٣٠٦) : لم أجده.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٧

حدّ الفرية على الأنبياء – يعنى الحدّ مرتين – وروى : أن رجلا حدّث بها عند عمر بن عبد العزيز ، وعنده رجل من أهل الحق ، فكذّب المحدّث ، وقال : إن كانت القصة على ما فى كتاب اللّه ، فما ينبغى أن يلتمس خلافها ، ولا أن يقال غير ذلك ، وإن كانت على ما ذكرت ، وقد سترها اللّه على نبيه ، فما ينبغى إظهارها عليه ، فقال عمر : لسماعى لهذا الكلام أحبّ إلىّ مما طلعت عليه الشمس «١».

والذي يدلّ عليه المثل الذي ضربه اللّه لقصته عليه السّلام ليس إلا أنه طلب من زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب ، فتزوجها ، وإنما جاءت على طريق التمثيل والتعريض ، دون التصريح لكونها أبلغ فى التوبيخ ، من قبل أنّ المتأمل إذا أدّاه إلى الشعور بالمعرّض به كان أوقع فى نفسه ، وأشدّ تمكّنا من قلبه ، وأعظم أثرا فيه ، مع مراعاة حسن الأدب ، بترك المجاهرة بالعتاب. قاله النّسفى.

ثم ذكر التعريض بقوله : إِنَّ هذا أَخِي فى الدين ، أو : فى الصداقة ، أو : الشركة. والتعبير به لبيان

كمال قبح ما فعل به صاحبه ، لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً النعجة : الأنثى من الضأن ، وقد يكنى بها عن المرأة ، والكناية والتعريض أبلغ من التصريح «٢». وَلِيَ نَعْجَةٌ واحِدَةٌ لا أملك غيرها ، فَقالَ أَكْفِلْنِيها أي :

ملّكنيها ، واجعلنى أكفلها كما أكفل ما تحت يدى ، وَعَزَّنِي غلبنى فِي الْخِطابِ فى الخصومة ، أي : كان أقدر منى على الاحتجاج والمجادلة ، أو : غلبنى فى الخطبة ، حيث خطبت وخطب ، فأخذها ، وهذا منهما تعريض وتمثيل ، كأنهما قالا : نحن كخصمين هذه حالهما ، فمثّلت قصة أوريا مع داود بقصة رجل له نعجة واحدة ، وخليطه له تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تتمة المائة ، فطمع فى نعجة خليطه ، وحاجّه فى أخذها ، محاججة حريص على بلوغ مراده. وإنما كان ذلك على وجه التحاكم إليه ، ليحكم بما حكم به من قوله :

قالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤالِ نَعْجَتِكَ إِلى نِعاجِهِ ، حتى يكون محجوجا بحكمه. وهو جواب عن قسم محذوف ، قصد به عليه السّلام المبالغة فى إنكار فعل صاحبه به ، وتهجين طمعه فى نعجة من ليس له غيرها ، مع أنّ له قطيعا منها. ولعله عليه السّلام قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه ، أو : بناه على تقدير صدق المدعى ، أي :

إن كنت صدقت فقد ظلمك ، والسؤال : مصدر مضاف إلى المفعول ، وتعديته إلى مفعول آخر لتضمينه معنى الضم.

---

(١) ذكره النّسفى فى تفسيره (٣/ ١٥٠). [.....]

(٢) الظاهر : إبقاء لفظ النّعجة على الحقيقة ، من كونها أنثى الضأن ، ولا يكنى بها عن المرأة ، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك. انظر البحر المحيط (٧/ ٣٧٦).

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ١٨

وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطاءِ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ، لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ غير مراع لحق الصحبة والشركة ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ منهم ، فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ، وَقَلِيلٌ ما هُمْ أي : وهم قليل. و«ما» : مزيدة للإبهام ، والتعجب من قلتهم. والجملة : اعتراض. وَظَنَّ داوُدُ أَنَّما فَتَنَّاهُ ، الظن مستعار للعلم الاستدلالي لما بينهما من المشابهة الظاهرة ، أي : علم بما جرى فى مجلس الحكومة وقيل : لمّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى الآخر ، فضحك ، ثم صعدا إلى السماء فعلم عليه السّلام أنه تعالى ابتلاه. والقصر منصّب على الفتنة ، أي : علم أنما فعلناه به فتنة وامتحان.

واختلف فى سبب امتحانه ، قيل : لأنه تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وقال : يا رب أرى الخير كله ذهب به آبائي ، فأوحى إليه : إنى ابتليتهم ، فصبروا فابتلى إبراهيم بنمرود وبذبح ولده ، وإسحاق بالذبح «١».

ويعقوب بالحزن على يوسف وذهاب بصره ، وأنت لم تبتل بشىء ، فقال : يا رب ابتلنى بمثل ما ابتليتهم به ، فابتلى بالمرأة «٢». وقيل : إنه ادعى القوة ، وقال : إنه لا يخاف من نفسه قط ، فامتحن ، فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ إثر ما علم أن ما صدر منه ذنب وَخَرَّ راكِعاً أي : ساجدا ، على تسمية السجود ركوعا ، أو : خرّ راكعا مصليا صلاة التوبة ، وَأَنابَ أي : رجع إلى اللّه بالتوبة ، روى : أنه بقي ساجدا أربعين يوما يبكى ، حتى نبت البقل من دموعه ، ولم يشرب ماء إلا وثلثاه دموع ، واشتغل بذلك عن الملك ، حتى وثب ابن له ، يقال له : «إيشا» على ملكه ودعا إلى نفسه ، واجتمع إليه أهل الزيغ من بنى إسرائيل ، فلما غفر له حاربه فهزمه. هـ.

وهذا الموضع فيه سجدة عند مالك ، خلافا للشافعى ، إلا أنه اختلف فى مذهب مالك هل سجد عند قوله :

وَأَنابَ أو عند قوله : وَحُسْنَ مَآبٍ. وروى الترمذي عن أبى سعيد الخدري : أنه رأى فى المنام شجرة تقرأ سورة «ص» ، فلما بلغت : «وأناب» سجدت ، وقالت : اللهم اكتب لى بها أجرا ، وحط عنى بها وزرا ، وارزقني بها شكرا ، وتقبلها منى كما تقبلتها من عبدك داود ، فقال له – عليه الصلاة والسّلام – «وسجدت أنت يا أبا سعيد؟» قلت : لا. قال : «كنت أحق بالسجود من الشجرة» ، ثم تلى نبى اللّه الآيات ، حتى بلغ : وَأَنابَ فسجد ، وقال كما قالت الشجرة «٣».

---

(١) تقدم أن الذبيح هو إسماعيل عليه السّلام ، راجع التعليق على تفسير الآيات : ٩٩ – ١١١ من سورة الصافات.

(٢) انظر تفسير الطبري (٢٣/ ١٤٦) والبغوي (٧/ ٧٨).

(٣) أخرجه ، عن ابن عباس ، الترمذي فى (أبواب السفر ، باب ما يقول فى سجود القرآن ٣/ ٤٧٢ – ٤٧٣ – ح ٥٧٩) ، وابن ماجه فى (إقامة الصلاة والسنة ، باب : سجود القرآن ١/ ٣٣٤ ، ح ١٠٥٣) والحاكم وصحّحه ووافقه الذهبي ، (١/ ٢١٩ – ٢٢٠) والبغوي فى تفسيره (٧/ ٨٦) قال – أي : ابن عباس – : جاء رجل إلى النّبى صلّى اللّه عليه وسلم فقال : يا رسول اللّه ، إنى رأيتى الليلة وأنا نائم كأنى أصلى خلف شجرة ، فسجدت ، فسجدت الشجرة لسجودى .. إلخ الحديث. قال الترمذي : (و فى الباب عن أبى سعيد) قلت : حديث أبى سعيد الخدري عزاه السيوطي فى الدر المنثور (٥/ ٥٧٢) لأبى يعلى.

فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ أي : ما استغفر منه. قال القشيري : ولمّا أوحى اللّه بالمغفرة ، قال : يا رب كيف بحديث الخصم؟ – أي : الرجل الذي ظلمته – فقال : قد استوهبتك منه. هـ. وفى رواية : إنى أعطيه يوم القيامة ما لم تر عيناه ، فاستوهبك منه فيهبك لى ، قال : يا رب الآن قد عرفت أنك غفرت لى «١». هـ. قال تعالى وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنا لَزُلْفى لقربى وكرامة بعد المغفرة ، وَحُسْنَ مَآبٍ مرجع فى الجنة.

الإشارة : إنما عوتب داود عليه السّلام لأنه التفت إلى الجمال الحسى الفرقى ، دون الجمال المعنوي الجمعى ، ولو سبته المعاني بجمالها ما التفت إلى الجمال الفرقى ، فلما نبّهه الحق تعالى استغفر ورجع إلى الجمال المعنوي ، الذي هو جمال الحضرة القدسية ، وعبارة شيخ شيوخنا سيدى عبد الرّحمن الفاسى رضي اللّه عنه : عدّ عليه التفاته عن الجمال المطلق عن الأشكال والصور إلى المقيد بهما ، وهى مقام تفرقة ، لا مقام جمع ، فاستغفر ورجع إلى شهود الفاعل جمعا ، عن شهود فعله فرقا ، فخلع عليه خلعة الخلافة واللّه أعلم. هـ. قال القشيري : قال داود عليه السّلام : يا رب إنى أجد فى التوراة أنك أعطيت الأنبياء الرّتب العالية ، فأعطينها؟ فقال : إنهم صبروا لمّا ابتليتهم ، فوعد من نفسه الصبر إذا ابتلاه ، طمعا فى مثل تلك الرّتب ، فأخبر أنه يبتليه يوم كذا ، فلما جاء ذلك اليوم دخل خلوته ، وأغلق أبوابه ، ولم يمكنه غلق باب السماء. وقد قال الحكماء : الهارب مما هو كائن فى كف الطالب يتقلب. ثم إنه كان فى البيت كوة ، يدخل منها النّور ، فدخل منها طير صغير ، كأنه من ذهب ، وكان لداود ولد صغير ، فهمّ أن يقبضه لابنه ، فمازال يحاوله ويتبعه حتى وقع بصره على المرأة ، فامتحن بها ، فلم يدع به الاهتمام بولده حتى فعل ما فعل ، وفى ذلك لأولى الأبصار عبرة. هـ.

وقال عند قوله : فَغَفَرْنا لَهُ ذلِكَ : التجأ داود عليه السّلام فى أوائل البلاء إلى التوبة ، والبكاء ، والتضرع ، والاستكانة ، فوجد المغفرة والتجاوز. وهكذا من رجع فى أوائل الشدائد إلى اللّه ، فاللّه يكفيه ويتوب عليه ، و[كذلك] «٢» من صبر إلى حين طالت عليه المحنة. ويقال : إن زلة قدّرها عليك ، توصلك إليه بندمك ، أحرى بك من طاعة ، إعجابك بها يقصيك عن ربك. هـ. وفى الحكم : «معصية أورثت ذلا وافتقارا ، خير من طاعة أورثت عزا واستكبارا» وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضي اللّه عنه : كل سوء أدب يثمر لك حسن أدب فهو أدب. هـ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٧/ ٨٤).

(٢) ما بين المعقوفتين مستدرك من لطائف الإشارات.

ولمّا تحققت إنابته ، جعله اللّه خليفة ، كما قال :

[سورة ص (٣٨) : الآيات ٢٦ الى ٢٨]

يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ (٢٦) وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)

يقول الحق جل جلاله : يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ أي : استخلفناك على الملك فيها ، والحكم فيما بين أهلها ، أو : جعلناك خليفة عمّن كان قبلك من الأنبياء القائمين بالحق ، وفيه دليل على أن حاله عليه السّلام بعد التوبة ، كما كان قبلها ، لم يتغير قط ، خلاف ما نقله الثعلبي من تغير حاله وصوته ، ومنع الطيور من إجابته ، فانظره.

فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ بحكم اللّه تعالى ، إذ كنت خليفته ، أو : بالعدل ، وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى أي : هوى النفس فى الحكومات ، وغيرها من أمور الدين والدنيا ، بل قف عند ما حدّ لك. وفيه تنبيه على أن أقبح جنايات العبد متابعة هواه ، فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أي : فيكون الهوى ، أو اتباعه ، سببا لضلالك عن دلائله اللاتي نصبها على الحق ، تكوينا وتشريعا. و«يضلك» : منصوب فى جواب النّهى ، أو : مجزوم ، فتح لالتقاء الساكنين.

إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ عن طريقه الموصلة إليه. وأظهر «سبيل اللّه» فى موضع الإضمار للإيذان بكمال شناعة الضلال عنه ، لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا بسبب نسيانهم يَوْمَ الْحِسابِ فإنّ تذكره وترداده على القلب يقتضى ملازمة الحق ومباعدة الهوى.

وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما من المخلوقات على هذا النّظام البديع باطِلًا أي : خلقا باطلا ، عاريا عن الحكمة ، أو : مبطلين عابثين ، بل لحكم بالغة ، وأسرار باهرة ، حيث خلقنا من بينها نفوسا ، أودعناها العقل لتميز بين الحق والباطل ، والنّافع والضار ، ومكّناها من التصرفات العلمية والعملية ، فى استجلاب

منافعها ، واستدفاع مضارها ، ونصبنا لها للحق دلائل آفاقية ، ونفسية ، ومنحناها القدرة على الاستشهاد بها ، ثم لم نقتصر على ذلك المقدار من الألطاف ، بل أرسلنا إليها رسلا ، وأنزلنا عليها كتبا

، بيّنا فيها كيفية الأدب معنا ، وهيئة السير إلى حضرة قدسنا ، وقيّضنا لها جهابذة ، غاصوا على جواهر معانيها ، فاستخرجوا منها كيفية المعاملة معنا ، ظاهرا وباطنا ، وأوعدنا فيها بالعقاب لمن أعرض عنها ، ووعدنا بالثواب الجزيل لمن تمسك بها ، ولم نخلق شيئا باطلا.

ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ، الإشارة إلى خلق العبث ، والظن بمعنى المظنون ، أي : خلقها عبثا هو مظنون الذين كفروا ، وإنما جعلوا ظانين أنه خلقها للعبث ، وإن لم يصرحوا بذلك لأنه لمّا كان إنكارهم للبعث ، والثواب ، والحساب ، والعقاب ، التي عليها يدور فلك تكوين العالم ، مؤديا إلى خلقها عبثا ، جعلوا كأنهم يظنون ذلك ويقولونه لأن الجزاء هو الذي سيقت إليه الحكمة فى خلق العالم ، فمن جحده فقد جحده الحكمة فى خلق العالم.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ، الفاء سببية لإفادة ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل ، وأظهر فى موضع الإضمار للإشعار بأن الكفر علة ثبوت الويل لهم ، و«من النّار» : تعليلية ، كما فى قوله : فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ «١» أي : فويل لهم بسبب النّار المترتبة على ظنهم وكفرهم.

أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ ، «أم» : منقطعة ، والاستفهام فيها للإنكار ، والمراد أنه لو بطل الجزاء – كما تقول الكفرة – لا ستوت أحوال أتقياء المؤمنين وأشقياء الكفرة ، ومن سوّى بينهما كان سفيها ، ولم يكن حكيما ، أي : بل أنجعل المؤمنين المصلحين كالكفرة المفسدين فى أقطار الأرض ، كما يقتضيه عدم البعث وما يترتب عليه من الجزاء لاستواء الفريقين فى التمتع فى الحياة الدنيا ، بل الكفرة أوفر حظا فيها من المؤمنين ، مع صبر المؤمنين ، وتعبهم فى مشاق الطاعات ، لكن ذلك الجعل محال ، فتعين البعث والجزاء لرفع الأولين إلى أعلى عليين ، وخفض الآخرين إلى أسفل سافلين.

أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ إنكار للتسوية بين الفريقين المذكورين ، وحمل الفجار على فجرة المؤمنين مما لا يساعده المقام ، ويجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولين ، ويكون التكرير باعتبار وصفين آخرين ، هما أدخل فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين. وقيل : قالت قريش للمؤمنين : إنا نعطى من الخير يوم القيامة مثل ما تعطون ، فنزلت «٢».

---

(١) من الآية ٧٩ من سورة البقرة.

(٢) ذكره البغوي فى تفسيره (٧/ ٨٧).

الإشارة : قال الورتجبي : ولمّا خرج داود من امتحان الحق وبلائه ، كساه خلعة الرّبوبية ، وألبسه لباس العزة والسلطنة ، كآدم خرج من البلاء ، وجلس فى الأرض على بساط فلك الخلافة ، وذلك بعد كونهما متخلقين بخلق الرحمن ، مصوّرين بصورة الرّوح الأعظم ، فإذا تمكن داود فى العشق ، والمحبة ، والنّبوة ، والرّسالة ، والتخلق ، صار أمره أمر الحق ، ونهيه نهى الحق. هـ. وقال ابن عطية : لا يطلق خليفة اللّه إلا لنبى ، وإطلاقه فى غير الأنبياء تجوّز وغلوّ. هـ. قلت : يطلق عند الأولياء على من تحققت حريته ، ورسخت ولايته ، وظهر تصرفه فى الوجود بالهمة ، حتى يكون أمره بأمر اللّه ، غالبا ، وهو مقام القطبانية ، فالمراتب ثلاث : صلاح ، وولاية ، وخلافة ، فالصلاح لمن صلح ظاهره بالتقوى ، والولاية لمن تحقق شهوده ، مع بقية من نفسه ، بحيث تقل عثراته جدا ، والخلافة لمن تحققت حريته ، وظهرت عصمته بجذب العناية. واللّه تعالى أعلم.

وقوله تعالى : وَلا تَتَّبِعِ الْهَوى ، الهوى : ما تهواه النّفس ، وتميل إليه ، من الحظوظ الفانية ، قلبية كانت ، كحب الجاه ، والمال ، وكالميل فى الحكم عن صريح الحق ، أو : نفسانية ، كالتأنق فى المآكل ، والمشارب ، والمناكح.

واتباع الهوى : طلبه ، والسعى فى تحصيله ، فإن كان حراما قدح فى الإيمان ، وإن كان مباحا قدح فى نور مقام الإحسان ، فإن تيسّر من غير طلب وتشوف ، وكان موافقا للسان الشرع ، جاز تناول الكفاية منه ، مع الشكر وشهود المنّة. قال عمر بن عبد العزيز : إذا وافق الحقّ الهوى ، كان كالزبد بالبرسام ، أي : الكسر. وفى الحكم : «لا يخاف أن تلتبس الطرق عليك ، إنما يخاف من غلبة الهوى عليك» «١» وغلبة الهوى : قهره وسلطنته ، بحيث لا يملك نفسه عند هيجان شهوتها.

وقوله تعالى : وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلًا أي : بل خلقناهما لنعرف بهما ، فما نصبت الكائنات لتراها ، بل لترى فيها مولاها. وقد تقدم هذا مرارا.

ولا ينال هذا المقام إلا بعبادة التفكر والتدبر ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

[سورة ص (٣٨) : آية ٢٩]

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ (٢٩)

قلت : «كتاب» : خبر عن مضمر ، أي : هذا ، و«أنزلناه» : صفة له ، و«مبارك» : خبر ثان ، أو : صفة الكتاب ، و«ليدبروا» : متعلق بأنزلناه.

---

(١) حكمة رقم ١٠٧ ، انظر الحكم بتبويب المتقى الهندي ص ١٧.

قيل : لمّا نفى التسوية بين الصالح المتّقى ، والمفسد الفاجر ، بيّن ما تحصل به لمتبعيه السعادة الأبدية ، ويحصل به الصلاح التام ، والتقوى الكاملة. وهو كتاب اللّه فقال جل جلاله : هذا كِتابٌ وهو القرآن أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ كثير المنافع الدينية والدنيوية ، أنزلناه لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ أي : ليتفكروا فى آياته ، التي من جملتها هذه الآيات المعربة عن أسرار التكوين والتشريع ، فيعرفوا ما فى ظاهرها من المعاني الفائقة ، والتأويلات اللائقة.

وقرىء : لتدبروا على الخطاب «١» ، أي : أنت وعلماء أمتك ، بحذف إحدى التاءين. وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ أي : وليتّعظ به ذوو العقول الصافية ، السليمة من الهوى ، فيقفوا على ما فيه ، ويعملوا به ، فإنّ الكتب الإلهية ما نزلت إلا ليتدبر ما فيها ، ويعمل به. وعن الحسن : قد قرأ هذا القرآن عبيد وصبيان ، لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه وضيّعوا حدوده. هـ.

الإشارة : كتاب اللّه العزيز بطاقة من عند الملك ، والمراد من البطاقة فهم ما فيها ، والعمل به ، لا قراءة حروفها ورسومها فقط ، فمن فعل ذلك فهو مقصّر.

وذكر فى الإحياء أن آداب القراءة عشرة ، أي : الآداب الباطنية :

الأول : فهم عظمة الكلام وعلوّه ، وفضل اللّه سبحانه بخلقه ، فى نزوله عن عرش جلاله ، إلى درجة أفهام خلقه ، فلو لا استتار كنّه جلال كلام اللّه تعالى ، بكسوة الحروف ، لما ثبت لكلام اللّه عرش ولا ثرى ، ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه ، ولو لا تثبيت اللّه موسى عليه السّلام ما أطاق سماع كلامه ، كما لم يطق الجبل مبادر نوره.

الثاني : تعظيم المتكلم به ، وهو اللّه سبحانه ، فيخطر فى قلبه عظمة المتكلم ، ويعلم أن ما يقرأه ليس من كلام البشر ، وأن فى تلاوة كتابه غاية الخطر ، ولهذا كان عكرمة إذا نشر المصحف غشى عليه.

الثالث : حضور القلب ، وترك حديث النّفس ، فإذا قرأ آية غافلا أعادها.

الرابع : التدبر ، وهو وراء الحضور ، فإنه قد لا يتفكر فى غير القرآن ، ولكنه مقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره. قال علىّ رضي اللّه عنه : لا خير فى عبادة لا فقه فيها ، ولا خير فى قراءة لا تدبّر فيها.

الخامس : التفهم «٢» ، وهو أن يستوضح كلّ آية ما يليق بها إذ القرآن مشتمل على ذكر صفات اللّه تعالى ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال أنبيائه – عليهم السّلام – ، وذكر أحوال المكذّبين ، وكيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنّار ، قال عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه : «من أراد علم الأولين والآخرين فليثوّر القرآن» ، أي : فإنه مشتمل على فعل اللّه ، وصفاته ، وكشف أسرار ذاته ، لمن تأمله حق تأمله.

---

(١) وبذلك قرأ أبو جعفر .. انظر إتحاف فضلاء البشر (٢/ ٤٢١).
(٢) فى الأصول [التفهيم] والمثبت هو الذي فى الإحياء.

البحر المديد ، ج ٥ ، ص : ٢٤
السادس : التخلي عن موانع الفهم ، ومعظمها أربعة : أولها : صرف الهمة إلى إخراج الحروف من مخارجها ، وهذا تولى حفظه شيطان وكّل بالقراء. وكذلك الاشتغال بضبط رواياته ، فأنى تنكشف لهذا أسرار المعاني. ثانيها : أن يكون مقيدا بمذهب ، أخذه بالتقليد ، وجمد عليه ، فهذا شخص قيّده معتقده ، فلا يمكن أن يخطر بباله غير معتقده ، فلا يتبحر فى معانى القرآن لأنه مقيد بما جمد عليه. ثالثها : أن يكون مصرا على ذنب ، أو متصفا بكبر ، أو : مبتلى بهوى فى الدنيا ، وبهذا ابتلى كثير من النّاس ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :
سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ «١» أي : عن فهم آياتي. رابعها : أن يكون قد قرأ تفسيرا ظاهرا ، واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما يتناوله النّقل عن ابن عباس وغيره ، وأمّا ما وراء ذلك تفسير بالرأى ، فهذا أيضا من أعظم الحجب فإن القرآن العظيم له ظاهر وباطن ، وحدّ ومطّلع ، فالفهم فيه لا ينقطع إلى الأبد ، فهو بحر مبذول ، يغرف منه كلّ واحد على قدر وسعه ، إلى يوم القيامة.
السابع : التخصيص ، وهو أن يعتقد أنه المقصود بكلّ خطاب فى القرآن ، فإن سمع أمرا أو نهيا ، قدر أنه المأمور والمنهي ، وكذلك إن سمع وعدا ووعيدا ، وإن سمع قصص الأولين علم أن المقصود به الاعتبار ، ليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه ، ويتقوى إيمانه ، قال تعالى : وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ «٢» فالقرآن لم ينزل خاصا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم ، بل هو شفاء ورحمة ونور للعالمين ، فيثبت فؤاد كلّ من يسمعه.
الثامن : التأثير ، وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة ، بحسب اختلاف الآيات ، فيكون له بحسب كلّ فهم حال ووجد ، يتصف به قلبه من الخوف ، والرّجاء ، والقبض ، والبسط ، وغير ذلك.
التاسع : الترقي وهو أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من اللّه سبحانه ، لا من نفسه ، ولا من غيره.
فدرجات القرآن ثلاث : أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرأ على اللّه تعالى ، واقفا بين يديه ، فيكون حاله السؤال والتملق.
ثانيها : أن يشهد بقلبه كأن اللّه تعالى يخاطبه بألفاظه ، ويناجيه بإنعامه وإحسانه ، فمقامه الحياء والتعظيم. الثالثة :

أن يرى فى الكلام المتكلّم ، فلا ينظر إلى نفسه ، ولا إلى قراءته ، بل يكون مقصور الهم على المتكلم ، مستغرقا فى شهوده ، وهذه درجة المقربين ، وما قبلها درجة أصحاب اليمين ، وما خرج عن هذا فهو درجة الغافلين. وعن الدرجة العليا أخبر جعفر الصادق رضي اللّه عنه بقوله : واللّه لقد تجلى اللّه لخلقه فى كلامه ولكن لا يبصرون. هـ. وقال

---

(١) من الآية ١٤٦ من سورة الأعراف.

(٢) الآية ١٢٠ من سورة هود.